

حرية حورية

رواية

د. علاء الدين التهامي

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع



رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادي

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة الأولى

الكتاب : حرية حورية

المؤلف : د. علاء الدين التهامي

تصميم الغلاف : أحمد أبو دوح

إخراج عام : أحمد عبد الحليم

المقاس ١٤ × ٢٠

رقم الإيداع : ٤٣٩٣ / ٢٠١٨

الترقيم الدولي : 9 - 631 - 776 - 977 - 978

البريد الإلكتروني للمؤلف : abo.omir@yahoo.com

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجزيرة

التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢

Email : yastoron@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الحرية أكبر خدعة في تاريخ الإنسانية .. / و الحر منا من لا
يحب، ياله من مأساة.. / رحلة البشرية للعودة للفردوس
المفقود.. / إن أردتني عبدا فلا تخيرني و إن أردتني حرا فلا
تحاسبني .. / و كلما جذبنا اقتربنا حتى وصل القارب إلى
الشاطئ.. / المأفون ذهب يبحث عن الحرية.. / يوم بلا طعام لا
يتعب بدنا و لا يقرب أجلا.. /

لماذا غادرت؟ لماذا تركت ما تركت؟ .. / رغبته في السفر
أضحت كالشجرة المحرمة التي يعجز عن الصبر عنها البشر.. /
لكي تجد الحرية لابد أن تركب سفينة النجاة.. / لكي تعيش
في قلب العالم لابد أن تقبل بالتاريخ المزور.. / لا يصلون و لا
يعودون و لكن يتيهون.. / المجرم يريد أن يجعل من نفسه
قديسا.. / لا أستطيع أن أصف لك، لابد من التجربة الشخصية.

A decorative flourish consisting of a thick black curved line that forms a partial circle. Inside this curve, there are intricate, swirling black lines and small circular motifs, resembling a stylized vine or floral design.

الفصل الأول

التجربة

جلست «حورية» أمام قفص الطائر بديع الألوان الذي أهدها لها والدها في يوم ميلادها العاشر، وأخذت تخاطبه في براءة و مرح قائلة : ها أنت قد أمضيت معنا أسبوعاً، أنت الآن فرد من العائلة، لعلك ترغب في الطيران، أنا لم أحضرك لأحبسك وإنما لأصاحبك و ألعب معك، سأفتح لك القفص لتطير في الغرفة كما تشاء و عندما تشعر بالجوع و تعود إلى بيتك ستجد طعامك في انتظارك.

مدت الطفلة يدها لتفتح باب القفص ثم تراجعت كأنها تذكرت شيئاً هاماً و قالت : معذرة لا بد أن أغلق النافذة أولاً، و لكنني سأترك الستائر لتستطيع أن تنظر إلى السماء.

و ما أن فتحت الباب حتى انتبه الطائر و أخذ ينظر بحذر كأنها يفكر هل المرور ممكن أم أنه كمين؟ ثم بدأ يقترب بحذر من منفذ الخروج و أطل برأسه أولاً و نظريمة و يسرة، و ما أن لمح النافذة حتى انطلق كالسهم تجاه السماء، و لم يساعده عقله أن يدرك وجود الزجاج الذي يسمح بالرؤية و لا يسمح بالمرور فاصطدم به رأسه الصغير بقوة دقت عنقه فخر صريعاً في الحال.

استغرق المشهد ثوانٍ معدودة، و استغرقت «حورية» ثوانٍ أخرى لتدرك ما حدث ثم انطلقت نحو الطائر في محاولة يائسة لإسعافه، لكنه كان قد فارق الحياة، فأسقط في يدها و ركضت على غير هدى و هي تصيح باكية: أبي.. أبي.

استمرت في الركض و الصياح و لم تتوقف حتى وجدت نفسها بين ذراعي أبيها يربت عليها و يسألها عن الخبر، فقصت عليه القصة من بين الشهيق و النحيب و البكاء، فأخذ يهدئ من

روعها ويقول : لا بأس أنت لم تقصدي شرا، و الطائر أراد أن
ينعم بالحرية لكن الثمن كان غاليا.

«حورية» وقد هدأت نوعاً ما: أنا أيضا أردت له الحرية و
لذلك فتحت له القفص، فلماذا فعل ذلك؟

«الأب»: أنت أردت له الحرية النسبية وهو أراد الحرية المطلقة.

لم تفهم الطفلة عبارة أبيها فنظرت إليه نظرة استفسار مشوبة
بالاستياء، فقال متلطفاً: يعني أنت أردت له أن يطير في الغرفة و
هو أراد أن يطير في السماء.

«حورية»: أليست الغرفة واسعة و جميلة؟!

«الأب»: بلى. لكن السماء أوسع و أجمل.

«حورية»: هنا كان سيجد الحب و الماء و كنت سأعتني به و
ألاعبه، أما في الخارج فكان عليه أن يبحث عن الطعام بنفسه و
ربما يتعرض للخطر من الطيور الكبيرة، فهل كان يعرف ذلك؟

احتار الأب في الجواب و لم يستطع أن يحدد هل اختار الطائر ما
اختار و هو يدرك العواقب و الأخطار؟ أم أنه اتبع غريزته و هو اه
بلا بصيرة و لا إبصار؟ فسكت برهة ثم بدا له أن يحيل السؤال
إلى السائلة، فقال: ما رأيك أنت؟ و ماذا تختارين لو كنت مكانه؟

أطرقت الفتاة و صمتت فترة ليست بالطويلة لكنها مرت على
الأب طويلا لأنه كان يرجو أن تختار الأوقع و الأيسر، و كان يعلم
أنه لن يستطيع أن يمنحها الاختيار الآخر، ثم رفعت رأسها و
نظرت في عين أبيها و قالت كلمة واحدة: السماء.

شعر الوالد بالخذلان ولم يجد ما يعزي به نفسه سوى أن ابنته ما زالت طفلة و عندما تكبر ستغير رأيها فابتسم مشجعاً وقال: حسناً، و الآن ماذا سنفعل بهذا الطائر المسكين؟

ظنت «حورية» أن ابتسامه أبيها تشجيعاً لها على حسن جوابها و لم تدرك أنها كانت تشجيعاً لنفسه على الصبر عليها حتى تغير من رأيها، فأصبحت «الساء» منذ ذلك اليوم أميتها القصوى و غايتها العليا تتطلع إليها دوماً و تحن إليها شوقاً.

«حورية»: نحفر له حفرة بين الزهور في الحديقة المجاورة و نضعه فيها.

التقط الأب منديلاً ورقياً وضع فيه الطائر ثم أعطاه لابنته و قال : فكرة رائعة، هيا بنا.

أمسكت الفتاة الطائر بيد و تعلقت بيد أبيها بالأخرى و انطلقا ليوذعا الطائر إلى مثواه الأخير.

*** **

«حازم ليب» دكتور في علم الاجتماع، في أواخر العقد الخامس من العمر، على عكس الكثير من الأساتذة لم يكن يلقي بالاً لمن يحضر متأخراً أو يغادر مبكراً طالما لم يحدث جلبه أو يتسبب في إزعاج للحاضرين أو يقاطع المحاضرة بغباء، و كان كثيراً ما يقول لطلابيه: «من شاء فليحضر متى شاء و ليرحل متى شاء و لكن إياكم و الغباء»، و كان طلابه يحمدون له ذلك القدر من الحرية، و يحضرون محاضراته ليس من باب الالتزام بالنظام ولكن رغبة فيما يشار فيها و يقال، و كان يروقههم تفاعله معهم على

المستوى العقلاني مع ما يأخذه عليه من الجفاف على المستوى الوجداني.

و رغم حرص «حورية» على الحضور مبكراً إلا أنها تأخرت ذات صباح، و وصلت بعدما بدأ الدكتور «ليب»، فأخذت تتسلل على أطراف أصابعها خشية أن تتسبب في قطع حبل أفكاره فتسمع ما لا يرضيها من كلامه، حتى وصلت إلى أقرب مقعد شاغر بجوار إحدى زميلاتها في الجانب الأيسر من قاعة المحاضرات، فجلست بأكبر قدر ممكن من الهدوء وبدأت في الإنصات، فكان أول ما وقع على سمعها و أثار انتباهها من كلام المحاضر ما يلي:

«...الحرية أكبر خدعة في تاريخ البشرية، ضحى الناس من أجلها بأرواحهم، وقتل بعضهم بعضاً في سبيلها، وتغزل فيها الأدباء، وتغنى بها الشعراء، وقال أميرهم :

فَفِي الْقَتْلِ أَلْجِيَاءُ أَلْحَيَاءُ

وَفِي الْأَسْرِى فِدَى لَهُمْ وَعَتَقُ

وَالْحُرِّيَّةُ الْحَمْرَاءُ بَابُ

بِكُلِّ يَدٍ مُضْرِبَةً يُدِقُّ

تطلع الدكتور «ليب» إلى طلابه لحظة ثم أكمل حديثه قائلاً: و لكن عندما فتح الباب بالدماء لا كان عتق ولا فداء، وإنما انتقال من أسير قديم إلى أسير جديد، ومن صورة من صور الاستبداد إلى صورة أخرى منه، أو على أحسن تقدير استبدال قيود الحديد بقيود الذهب، والخروج من السجن المظلم إلى السجن المضيء.

بدأت المهمات تسري بين الطلاب و تزداد، و ترددت في القاعة بعض الكلمات ما بين الاحتجاج و الاعتراض و الاستنكار أو التعجب و الاندهاش و الاستفسار، فقطع الدكتور «ليب» استرساله و أشار بيديه للطلاب أن يهدؤا، ثم قال: تعلمون أننا نفتح الباب للمناقشة بعد انتهاء المحاضرة، لكن يبدو أنكم لا تستطيعون اليوم صبراً، فلا بأس أن نفتح الباب الآن، و أضاف بابتسامة مستفزة: و الحمد لله أن باب المناقشة ليس بكل يد مضرجة يدق.

و فور انتهائه من تلك العبارة انتقل من القيام إلى الجلوس أمام المكتب و ضغط زراً فيه فبدأت أرضية قاعة المحاضرات في التحرك لتعيد تشكيل المقاعد التي يجلس عليها الطلاب لتتحول من صفوف متوازية إلى صفوف متقابلة ماعدا الصف الأخير بقي في مكانه ليصبح ترتيب المقاعد على شكل حرف « ⌋ » اللاتيني، ثم التقط مطرقة خشبية صغيرة من المكان المخصص لها بالمكتب و دق بها دقتين و قال: ها هو الباب قد فتح، فأعلنوا ما كنتم تسرون، و أخرجوا ما كنتم تكتمون. ثم نظر يمنة و يسرة و أضاف: من يجب أن يبدأ؟

ضغط أحد الطلاب الجالسين على الجانب الأيمن زراً خاصاً في المقعد لطلب الكلمة فظهر على الشاشة الصغيرة المثبتة على مكتب الدكتور «ليب» اسم الطالب و رقم المقعد الذي يجلس عليه، فأشار له الدكتور أن يبدأ، فقال: هل يعني هذا أن الأوطان لا تستحق التضحية و أن الشعوب لا يجب أن تناضل من أجل استعادة حريتها؟

«ليب»: ولماذا يجب على الشعب أن يضحي بحياته في سبيل حرية وطن لم يختره بحرية وإنما ولد فيه رغماً عنه يا عاطف؟
«عاطف»: وكذلك الإنسان لم يختر أمه و أباه، أفلا يضحي من أجلهما؟

«ليب»: هب أن أباه كان ظالماً أو فاسداً أو جهولاً، أتخنق حياة بريئة لتطلق حياة مجرمة؟

«عاطف» وقد أثارت حفيظته إجابات الدكتور: وإلى متى سيستمر حوارنا على هذا النسق؟ أسأل حضرتك سؤالاً فتجيبني بسؤال؟

لم يبد على «ليب» أي علامة من علامات الاستياء أو الانزعاج رغم نبرة الحدة في عبارة «عاطف» الأخيرة، بل على العكس بدا عليه شيء من الارتياح والاستمتاع، فقد كان من هواة المباريات العقلية والقضايا الجدلية، فقال في هدوء: حسناً أيها الثائر، أنت على حق، دعنا نحول الأسئلة الاستنكارية إلى جملٍ خبرية فتصبح على النحو التالي، ثم اعتدل في جلسته وقال :

الإنسان سجين المكان والزمان، و سجين بدنه ولونه و أرضه و وطنه، و سجين أسرته وقومه، و سجين بيئته و ثقافته، لم يكن له اختيار في كل ذلك و لا يستطيع أن يتحرر من كل ذلك، و مع ذلك هذا السجين المسكين مطالب بتحرير أرضه و وطنه و أسرته وقومه، و مطالب بالدفاع عن بيئته و ثقافته، و مطالب بأن يضحي بحياته من أجل ذلك كله أو بعضه تحت دعاوى الحرية و بريقها، و لذلك أطلقت عليها الخدعة الكبرى.

طلبت «سارة» الجلوس في الصف الأخير المقابل لمكتب الدكتور الكلمة وقالت: ما تفضلت به حضرتك قد ينطبق على الدول والشعوب في منطقتنا، أما في العالم المتقدم فقد نالوا حريتهم بالفعل، حرية حقيقية وليست خدعة أو وهماً.

«ليب»: لا أظن ذلك يا «سارة»، والفارق بيننا وبينهم فارق في الدرجة لا في النوع، بمعنى أننا للأسف عادة ما نتقل من سجن إلى سجن مماثل أو أشد ضيقاً، بينما هم قد انتقلوا إلى سجون رحبة، وهذا ما قصده حينما قلت في نهاية المحاضرة: (أو على أحسن تقدير استبدال قيود الحديد بقيود الذهب، و الخروج من السجن المظلم إلى السجن المضيء)، و ابتلع ريقه ثم أضاف: الأمريكيون كمثال منذ عشرات العقود تتمثل حريتهم في الاختيار بين الجمهوريين والديمقراطيين و يظنون أنهم قد بلغوا قمة الحرية.

و هنا قام «عاصم» من الصف الأخير أيضاً بطلب الكلمة وقال: ليست هناك حرية مطلقة لا بالنسبة للفرد ولا بالنسبة للمجتمع؛ لأنه لا وجود لكائن إنساني غير خاضع لحتميات بيولوجية ومجتمعية، كما أنه لا إمكانية لتصوير قيام مجتمع يجسد مقولة الحرية بمدلولها الإطلاقي، أي بلا قيد ولا شرط ولا حتميات. فالحرية بمعناها المطلق ليست سوى فوضى أو يوتوبيا حاملة، وبالتالي ليس من الإنصاف أن نلقي باللوم على الشعوب التي ضحت من أجل أن تصل إلى القدر المتاح من الحرية، و ليس من الحق أن نتهمها بأنها ضحية لخدعة كبرى.

«ليب»: الحرية يا «عاصم» لا تقبل القسمة، أم تراك من أنصار أنصاف الحلول والأمر؟ ثم ضغط زرا على جهاز الحاسوب فظهرت على الشاشة الموجودة في مقدمة القاعة أبيات من قصيدة لجبران خليل جبران تتلى بصوت رخيم على خلفية موسيقية هادئة يقول فيها:

لا تجالس أنصاف العشاق، ولا تصادق أنصاف الأصدقاء، لا تقرأ لأنصاف الموهوبين، لا تعيش نصف حياة، ولا تمت نصف موت، لا تختر نصف حل، ولا تقف في منتصف الحقيقة، لا تحلم نصف حلم، ولا تتعلق بنصف أمل، إذا صمتت.. فاصمت حتى النهاية، وإذا تكلمت.. فتكلم حتى النهاية، لا تصمت كي تتكلم، ولا تتكلم كي تصمت.

إذا رضيت فعبر عن رضاك، لا تصطنع نصف رضا، وإذا رفضت.. فعبر عن رفضك، لأن نصف الرفض قبول.. النصف هو حياة لم تعيشها، وهو كلمة لم تقلها، وهو ابتسامة أجلتها، وهو حب لم تصل إليه، وهو صداقة لم تعرفها.. النصف هو ما يجعلك غريباً عن أقرب الناس إليك، وهو ما يجعل أقرب الناس إليك غرباء عنك، النصف هو أن تصل والآن تصل، أن تعمل والآن تعمل، أن تغيب وأن تحضر.. النصف هو أنت، عندما لا تكون أنت.. لأنك لم تعرف من أنت. النصف هو الآن تعرف من أنت.. ومن تحب ليس نصفك الآخر.. هو أنت في مكان آخر في الوقت نفسه!!

نصف شربة لن تروي ظمأك، ونصف وجبة لن تشبع جوعك، نصف طريق لن يوصلك إلى أي مكان، ونصف فكرة

لن تعطي لك نتيجة.. النصف هو لحظة عجزك وأنت لست بعاجز.. لأنك لست نصف إنسان. أنت إنسان.. وجدت كي تعيش الحياة، وليس كي تعيش نصف حياة!!»

«عاصم»: لقد جئت بالقصيدة يا سيدي في غير سياقها، وهي لا تتضمن كلمة واحدة عن الحرية، وما ذكرته آنفاً عن استحالة الحرية المطلقة لم يكن من كلامي وإنما.. وإنما.. ارتبك «عاصم» ومنعه الخجل من إتمام عبارته، فابتسم «ليب» ابتسامته المستفزة المعتادة وقال: وإنما من كلام علماء الاجتماع، ها أنا قد أكملت لك حتى أرفع عنك الحرج، أليس هذا ما أردت قوله؟

«عاصم» في حياء: بلى.

«ليب»: ليكن، لكن طالما نحن نتحدث عن الحرية فلم لا نتحرر من أطروحات العلماء السابقة؟

«عاصم»: إذن ما تطرحه حضرتك هو أن الحرية الحقيقية خدعة كبرى ولا وجود لها، وكل ما دون الحرية الحقيقية مما يتغنى به البشر ليس بحرية. صحيح؟

«ليب»: أجل.

وهنا عاد «عاطف» للمداخلة قائلاً: معنى هذا أن حضرتك متفق مع القول باستحالة الحرية المطلقة، وما تعتبره ليس بحرية يعتبره الآخرون حرية نسبية، فالخلاف في الواقع لفظي.

«ليب»: لا. ليس كذلك. عندما يؤس البشر من التمتع بالحرية المطلقة ولكي يخففوا من درجة الاحباط لديهم، أخذوا في التعامل مع الحرية النسبية أو المتاحة على أنها مطلقة وبدأوا

يلبسونها هالات الإجلال والإكبار حتى أفسدوا في الأرض و
سفكوا الدماء من أجلها، وصدق قول مدام رولان إبان الثورة
الفرنسية أمام المقصلة: (أيتها الحرية كم من الجرائم ترتكب
باسمك!)، و كان أحرى بهم أن يسموا الأشياء بأسمائها وأن
يعترفوا أن الحرية النسبية ليست بحرية ولا تستحق أن ترتكب
الجرائم من أجلها، و حينئذ تصبح التضحيات مشروطة ولا تتم
إلا في إطارها الصحيح.

«عاطف»: و هذا يعيدنا إلى مسألة التضحية من أجل تحرير
الأوطان أو التضحية من أجل الوالدين والأهل والعشيرة.

«ليب»: نعم. إن كانت تضحيات الشعوب و نضالها فقط من
أجل استبدال الحكم من الجنسيات الأخرى بحكام من نفس
الجنسية، و اعتبار أنه إذا لم يتم ذلك فهي خيانة للوطنية، فهذا
غش و خداع و تحايل لأغراض شخصية، فمعيار الحكم على
الحكام إنما هو تحقيق العدالة و ليس التمتع بالجنسية، فالحاكم
الذي يحافظ على الوطن و مقدراته و يرفعى المواطنين و مصالحهم
هو حاكم وطني و لو جاء من المريخ، و الحاكم الذي يفرض
في مصالح البلاد و العباد و يكتسب الجاه من الظلم و المال من
السلب هو حاكم خائن و لو كانت جذوره ضاربة في عمق
تاريخ البلاد، و يتمتع بالجنسية أبا عن جد إلى مائة من الأجداد.

ترددت «حورية» قليلاً ثم حسمت أمرها و قررت المشاركة في
الحوار، فطلبت الكلمة و قالت: اختلف معك يا دكتور «ليب» أن
البشر يؤسوا من الحرية المطلقة و أن الحرية الحقيقية لا وجود لها،
أنا بصراحة أتحذث عن نفسي، فالأمل في الحرية المطلقة لا يزال

حياً في خيالي، و البحث عن الحرية الحقيقية نزعة بشرية مستمرة منذ بدء الخليقة إلى يومنا هذا، و أحسب أن الرغبة العميقة في الحرية المطلقة كانت الدافع الخفي وراء معصية أبينا آدم الأولى، و هي التي جعلته ينجذب إلى الشجرة المحرمة و يلتفت عن آلاف الأشجار المباحة، لأن تلك الأشجار حرته فيها كانت كاملة أما الشجرة المحرمة فحرته فيها كانت منقوصة و لذلك أراد أن يستكملها.

نظر الدكتور «ليب» إلى «حورية» نظرة فاحصة من فوق النظارات الطبية التي يرتديها ثم قال لها: إذن المعصية يا «حورية» هي السبيل إلى الحرية الحقيقية من وجهة نظرك؟

«حورية»: ليست المعصية وإنما الإرادة و الاختيار و التجربة و إن أدت بنا للمعاصي فهي معصية عارضة نتعلم منها ثم نقلع عنها، تماماً كما فعل أبونا، و لعل هذه هي الحكمة من مشروعية التوبة بعد كل ذنب و إن تكرر منا في اليوم سبعين مرة.

«ليب» موجهاً الحديث للطلبة: ما رأيكم فيما تطرحه زميلتكم؟

«سارة»: أية محاولة للجمع بين الدين و الحرية هي محاولة للجمع بين نقيضين، الدين يقوم على وجود رب خالق معبود و بشر مخلوقين عبيد، ليس لهم إلا أن يقولوا سمعنا و أطعنا، فأنى للبعد أن يكون حراً؟

«عاصم»: حتى لو تحرر الإنسان من الدين فسيبقى خاضعاً للحتميات البيولوجية و الاجتماعية، و سيظل سجيناً للبدن و

اللون، و الأرض و الوطن، و البيئة و الثقافة، كما أشار الدكتور.
«عاطف»: لو كان المطلوب من البشر مجرد السمع و الطاعة
لما كانت هناك إضافة في منظومة الخلق من الجمادات و حتى
الملائكة، و لكان هناك من المخلوقات من يقوم بهذا الدور
أفضل من البشر بكثير، و لما كان هناك معنى لتكليفهم و إرسال
الرسل إليهم و محاسبتهم.

«سارة»: الحساب يتناقض مع الحرية، إن أردتني عبداً فلا
تخبرني، و إن أردتني حراً فلا تحاسبني على اختياري، أ رأيت كم
التناقض بين الدين و الحرية؟

«عاصم»: بهذا المنطق فإن الحرية ستتناقض أيضاً مع الأخلاق
و القيم، و النظم و القوانين، و السياسة و المجتمع، و الحضارة و
التاريخ، فلماذا جعلت الدين غرضاً لسهامك دون كل ما سبق؟

«حورية»: نعم الحساب يتناقض مع الحرية، و لذلك درج
العامة على مقولة الحساب يوم الحساب، لأنهم يعلمون أن
الحساب الحقيقي مؤجل، و أن البشر يستطيعون من خلال التحايل
على القانون و استخدام المال و النفوذ الإفلات من المساءلة و
المحاسبة، فنحن نعيش يومين أو حياتين، يوم فيه عمل و لا جزاء
و يوم فيه جزاء و لا عمل، و بذلك نحن أحرار حرية حقيقية.

«عاطف»: بل الحرية بلا حساب لا معنى لها، و إذا لم يتحمل
الإنسان نتيجة ما يختار فما قيمة الاختيار؟ هبوا أن أكل أبينا آدم
من الشجرة المحرمة لم يترتب عليه أي شيء، و لم يُحمل مسؤولية
هذا القرار، فما النتيجة؟ النتيجة أن يكون الأكل من الشجرة و

عدم الأكل منها سواء بسواء، يعني يستوي الوجود و العدم، و الطاعة و المعصية، و الخير و الشر، أما مع خروجه من الجنة، فقد نال الخبرة و ظهرت الحكمة و بدأت الرحلة.

«سارة»: أية رحلة؟

«عاطف»: رحلة البشرية للعودة إلى الفردوس المفقود.

لمعت عينا الدكتور «ليب» حينما سمع عبارة «عاطف» الأخيرة لسبب غير مفهوم، ثم قال: أوشك الوقت على النفاذ. حواركم لا بأس به، لكنكم ما زلتم تدورون حول الموضوع و لم تصلوا بعد إلى صلبه، ما أريده منكم جميعا- المتكلمين و المستمعين- في المرة القادمة أن يحدد كل واحد منكم موقفه من «الحرية» في جملة واحدة لتتمكن من تحرير المناط.

«حورية»: هلا بدأت حضرتك أولاً يا دكتور.

«ليب»: قد فعلت يا «حورية» حينما ذكرت لكم أن الحرية أكبر خدعة في تاريخ البشرية.

*** **

عادت «حورية» إلى المنزل مشغولة الذهن بمحاولة صياغة عبارة جامعة مانعة تلخص موقفها من عشق قلبها و حلم روحها و أمل حياتها، تلك المدعوة بالحرية، و عندما دخلت لمحت أباهما في مكتبه فذهبت إليه و ألقت التحية عليه، لكنه كان مستغرقا في قراءة أوراق استخرجها من صندوق خشبي قديم لكنه أنيق بدا مألوفاً لديها، فلم ينتبه لها و لم يرد عليها، فصنفت يديها و رفعت صوتها قائلة بمرح: اصح يا نائم .. وحد الدائم.

التفت إليها الأب باسمًا وقال: مرحبا بحبة القلب، و ثمرة
الفؤاد.

«حورية»: ماذا تقرأ أيها الملك السعيد، ذو الرأي الرشيد؟

«الأب»: ألا تذكرين هذا الصندوق و تلك الأوراق؟

عقدت «حورية» حاجبيها وقالت: بلى. هذا صندوق جدي و
أحسب أن تلك الأوراق مذكراته.

«الأب»: أجل.

«حورية»: و ما الذي ذكرك بها بعد تلك الأعوام؟

«الأب»: لم أنسها لأذكرها، و لكن حان موعد مراجعتها
حسب وصية أبي، فقد كتب لي في نهايتها أن أعيد قراءتها بعد
خمس سنوات، و اليوم هذه السنون قد مرت.

«حورية»: و هكذا الأكوام تدور و الأزمان تدور، أذكر مدى
حفاوتك بها عندما وصلتك بعد خمسة أعوام من اختفاء جدي،
و أنك حاولت أن تشرح لي محتواها لكنني لم أتمكن من الاستيعاب
في ذلك الوقت.

«الأب»: وها أنت اليوم على أعتاب سن الرشد، و قد أوشكت
على الانتهاء من دراستك الجامعية، و لعل هذا ما قصده جدك
حينما أوصى بالرجوع إلى ما كتبه بعد خمس سنين، يبدو أنه أراد
أن ينقل خبرته للجيل الثالث أيضا.

«حورية»: بالفعل أنا اليوم أكثر شوقاً من أي وقت مضى
لمعرفة تجربة جدي في الفرار من الحياة.

«الأب»: ليس الفرار من الحياة، بل الفرار إلى الحرية.

«حورية» في حماسة من وجد كنزاً: حقاً.

«الأب»: هذا ما وقع في قلبي حين قرأتها للمرة الأولى، وربما بعد القراءة الثانية نصل لنتيجة ثانية.

«حورية»: إذن تفضل و ابدأ بالقراءة و كلي أذان مصغية.

«الأب» وهو يمد يده بالمذكرات إلى ابنته: بل أحب هذه المرة أن أسمعها منك.

شعرت «حورية» بشيء من الرهبة وهي تتناول المذكرات، و تسألت بينها وبين نفسها: هل سيدحض جدها نظرية الخدعة الكبرى أم سيؤكدها؟ ثم فتحت الصفحة الأولى و أخذت في القراءة:

(..الملل يفتك بحياتي.. يحيطني من كل جانب.. يشل عقلي و يمحق وجداني.. و كلما أردت منه فكاكاً وجدته يكبلني بقيود الواجب.. الواجب تجاه بيتي.. عملي.. أسرتي، ألا يمكن للمرأة أن يؤدي الفروض و الواجبات دون أن يقع أسيراً لها! ألا يمكن للفرد أن يحب من يحب من البشر دون أن يفقد قدراً من حريته! يبدو أن هناك تناسباً عكسياً بين الحب و الحرية، و قديماً قيل من المستحيل الجمع بين النقيضين، يحب الرجل امرأة فتمتلك قلبه، و يحب أصدقائه فيمتلكون وقته، و يحب عمله فيمتلك عقله، و يحب أطفاله فيمتلكون حياته، و هكذا يحيا الواحد منا عبداً مملوكاً لمن يحب، و الحر منا من لا يحب، يا لها من مأساة.

فما المخرج؟ وأين المفر؟ كيف يمكن كسر هذا الطوق؟ لا بد أن هناك لحظة ما يستطيع الإنسان أن يفوز فيها بالحرية دون أن يخسر فيها الحب، لا بد أن هناك نقطة ما يمكن للإنسان عندها أن ينطلق دون أن يخل بالواجب، وقد انتظرت هذه اللحظة طويلاً وبحث عن تلك النقطة كثيراً، وها أنا قد وصلت أخيراً، وصلت إلى نقطة الانطلاق وأدركت اللحظة الفارقة، فقد فارقتني الحبيبة إلى ربها، ووصلت إلى سن التقاعد، وأنهيت مهمتي تجاه أسرتي فابني الوحيد قد شق طريقه في الحياة بنجاح وابتته الوحيدة أتمت العقد الأول من عمرها المبارك، والأصدقاء تفرقوا في الدنيا والآخرة، فاليوم لا حبيبة تؤنسني، ولا عمل يكبلني، ولا أسرة تشغلني، ولا صديق يجذبني، وهذا في نظر كثير من الناس علامة على اقتراب النهاية ولكني سأعتبرها فرصة للبداية، فصحتي على ما يرام ومعني ما يكفيني من المال، فالآن أحيا ما أريد كما أريد لا كما يريد الآخرون، وإن كان هؤلاء الآخرون هم قرة العيون.

مذ ولدت وأنا كغيري من الناس أعيش أسيراً مقيداً، ففي طفولتي المبكرة عشت أسيراً لظروف والدي الاقتصادية ومكانتهما الاجتماعية وثقافتهما الشرقية، وفي طفولتي المتأخرة عشت أسير توجيهات المدرسين والواجبات المدرسية، وفي الصبا والمراهقة كنت أسير الرفاق والأصحاب والهوايات والألعاب، وفي الشباب كنت أسير النظم والقوانين التي تحكم البلاد والعباد، وبعد التخرج كنت أسير سنن الحياة وضرورتها ومتطلبات المعيشة وضغوطها، نعم تصادمت مع كل ما سبق وركبت طبقاً عن طبق وحاولت أن أغير لون الشفق، لكن النتيجة في النهاية كانت مزيداً

من الرهق، أما آن لهذا الأسير أن يتحرر؟ أما آن لهذا الفارس أن يترجل؟ أما آن لهذا الطير أن يطير؟ بلى.. قد آن الأوان...

توقفت «حورية» عن القراءة و تطلعت في حيرة إلى أبيها، فقال لها مداعباً: لماذا أطبقتِ شفتيكِ؟ ولما تطل الحيرة من عينيك؟
«حورية»: هل كان جدي متشائماً؟

«الأب»: لا. لكنه كان يميل إلى التجريد في نظره للأمر.

«حورية»: و هل من التجريد أن يحيل النعم إلى نقم؟

«الأب»: ماذا تقصدين؟

«حورية»: أقصد أنني أرى الأمور على العكس مما يراها، و ما يشكو منه أحمد الله عليه، ففي طفولتي المبكرة عشت أميرة على والدي، كل رغباتي مجابة و كل ما أرجوه أناله، و في طفولتي المتأخرة كنت محل تقدير و تشجيع المدرسات و المدرسين، و رغم ما كنت أجده من التعب في أداء الواجبات المدرسية كنت أجد فيها متعة التحدي و لذة الإنجاز، و في الصبا و المراهقة كان الرفاق و الأصدقاء و الهوايات و الألعاب مصادر لتبادل الخبرات و نوافذ للمرح و الانطلاق و فرصاً لمعايشة الاهتمامات المشتركة.

«الأب»: و على هذا النحو أيضاً ترين النظم و القوانين التي تحكم البلاد و العباد؟

«حورية»: نعم طالما خلت من الظلم، فلن يكون الهدف منها إلا حفظ الحقوق و ضمان تكافؤ الفرص و تسيير حياة الناس في يسر و انسجام.

«الأب»: مهما يكن في السلطات الأسرية و المدرسية و المجتمعية و الحكومية من نفع و فائدة تظل للحرية مكبلة و مقيدة، و هذا هو التجريد الذي أجده في كلام جدك.

«حورية»: إذن لكي يكون الإنسان حراً لا بد أن يعيش وحيداً.
«الأب»: ربما.

«حورية»: فلما يقولون في الأمثال الشعبية: (الجنة من غير ناس ما تنداس)؟

«الأب»: تلك هي المشكلة، السعادة مع الوحدة معضلة، و الحرية مع الناس غير ممكنة.

«حورية»: يا لكم من عائلة! الجد يرى أن الحر فينا من لا يحب، و الأب يرى أن شرط الحر أن يكون وحيداً.

«الأب»: اصبري حتى تنتهي من قراءة ما كتبه جدك، ربما تتغير نظرتك.

«حورية»: نعم لا بد أن أكمل القراءة، لكن ليس الآن، أريد أن أكون أكثر تركيزاً، هل تأذن لي بالاحتفاظ بمذكرات جدي إلى حين الانتهاء من قراءتها؟

«الأب» و هو يناولها الصندوق: بكل تأكيد، و لكن ضعها دوماً في هذا الصندوق.

«حورية»: يبدو أن لهذا الصندوق عند جدي شأن.

«الأب»: أجل.

«حورية»: و ما شأنه؟

«الأب»: عندما تختمين القراءة تعرفين.

«حورية»: لا تزد شوقي فما عندي منه يكفيني.

«الأب»: نلتقي ثانية بعدما تنتهين.

«حورية»: حسناً. أراك على خيرٍ يا أبي.

«الأب»: في أمان الله يا ابنتي.

وقف «هانئ السعيد» المدرس المساعد بالقسم أمام حجرة مكتب الدكتور «لييب» و طرق الباب بلطف، و على الفور سمع صوت الدكتور قائلاً: تفضل يا هانئ.

دخل «هانئ» إلى الغرفة و ألقى التحية على الدكتور ثم قال: طلبتني مبكراً هذا الصباح، يبدو أن الحوار الذي دار في المحاضرة الماضية يشغلك.

أوماً «لييب» برأسه قائلاً: استتاجك في محله رغم أنك لم تكن حاضراً معنا.

«هانئ»: نعم لكنني حصلت على الأسطوانة المدجة و شاهدتها.

«لييب»: و ما رأيك؟

«هانئ»: حضرتك خرجت عن المألوف و حولتها من محاضرة إلقاءية لمحاضرة نقاشية استجابة لرغبة الطلبة، و كان ذلك رائعاً، لكن ماذا بعد؟

«ليب»: هذا ما طلبتك من أجله، الحوار داخل قاعات المحاضرات لا يكفي، لا بد من التجربة العملية.

«هانئ»: ولما في هذه المرة بالذات؟ هذا شيء لم تفعله من قبل؟

«ليب»: هذه المرة مختلفة كما لاحظت، واستجابة الطلاب كانت متميزة، فهم يستحقون أكثر من الكلام النظري، و دوري كمعلم أن أرفع مستوى التعليم كلما كانت الفرصة سانحة، و حتى لو لم أفعل ذلك من قبل فلكل شيء بداية، و لكل حادث حديث.

«هانئ»: و كيف ستُدّرس الحرية من خلال التجربة العملية؟

«ليب»: الفكرة لم تبلور لدي بعد، لكن على سبيل المثال القصائد الناتجة عن تجارب شعورية عميقة للشعراء تختلف عن القصائد النابعة عن الرغبة في استعراض القدرات البلاغية أو الصادرة عن رجاء منفعة عاجلة بمدح فلان أو رثاء آخر أو هجاء ثالث، لا شك أن النوع الأول أبقى أثراً و أعظم تأثيراً. هذا ما أبتغيه، دراسة المعاني الفلسفية و القيم الأخلاقية من خلال التجارب الفكرية و الوجدانية.

«هانئ»: لكن التجارب الشعورية هي تجارب طبيعية و ليست اصطناعية.

«ليب»: بالنسبة لنا ستكون اصطناعية لكن بالنسبة للطلاب ستكون طبيعية.

«هانئ» معترضاً بحذر: و لكن في هذه الحالة قد نكون أخللنا بأخلاق المهنة.

«ليب» في مزيج من الدهشة والغضب: ماذا تقول! كل ما في الأمر أنني سأنقلهم من صفوف المتفرجين إلى أرض الملعب ليشاركوا في المباراة مشاركة حقيقية، أفبذلك أكون قد أخللت بالقيم الأخلاقية؟

«هانئ» بنبرة لا تخلو من التحذير: سيدي هؤلاء بشر وليسوا حقول تجارب، وأنت أعلم مني بالضوابط العلمية والمهنية التي اعتمدتها الجامعة بهذا الشأن.

«ليب» باستياء: طلبتك لتدعمني و تعاونني فإذا بك تحبطني و تعرقلني، ألم أشرف على رسالتك التي تقدمت بها لنيل درجة الماجستير؟ هل أضرت بك في شيء؟

«هانئ» بخجل: بل أفدتني و علمتني، و أحسب أنني أرد الجميل بموقفني هذا الذي يثير حنقك و استياءك، فغاية ما في الأمر أنني لا أريدك أن تتورط في أمر قد يؤثر على مكانتك العلمية، و مستقبلك الأكاديمي.

«ليب» بعد برهة من الصمت و التردد: لا بأس. سأجعل التجربة اختيارية لمن يشاء من الطلاب، و ستجرى خلال إجازة نصف العام دون أن يكون لها شأن بالجدول الدراسي و الساعات المعتمدة و لن تدخل نتائجها ضمن معايير تقويم الطلاب، هل يريحك هذا؟

«هانئ»: أحسب أنا هذا أفضل بالفعل، لكنني لن أرتاح تماماً حتى أعلم طبيعة هذه التجربة.

«ليب» في نفسه: لقد خدمتني يا «هانئ» من حيث لا تشعر، هذا أفضل بالفعل من العمل تحت قيود اللوائح والقوانين الجامعية المكبلة للعلم والحرية، أخبركم أنها خدعة كبرى فلم تصدقوني.

لاحظ «هانئ» شروء أستاذه و عدم انتباهه لجوابه، فأعاد السؤال قائلاً: كنت استفسر عن نوعية التجربة التي تنوي إجرائها وطبيعتها؟

«ليب»: المعاني الفلسفية والقيم الأخلاقية تحتاج أن تلمس أطرافها القصوى لتتمكن من إدراكها واستيعابها والإحاطة بها من جميع الجوانب، ولتتمكن أيضاً من تحديد مساحة الاتزان بدقة بحيث يكون ما قبل هذه المساحة وما بعدها خارجاً عن المعنى الذي تبحث عنه أو القيمة التي تدرسها.

«هانئ»: تقصد مثلاً أن إدراكنا للكرم يتطلب معرفة التقدير والتبذير، وتعاطينا مع الشجاعة يحتاج منا الإمام بالجن والتهور، وهكذا. أليس كذلك؟

«ليب»: بلى.

«هانئ»: فما طرفا النقيض بالنسبة للحرية؟

«ليب»: الفوضى والسجن.

*** **

أخرجت «حورية» مذكرات جدها من الصندوق ووضعتها في حقيبتها ثم خرجت إلى «حديقة الخالدين» لتلتقي بصديقتها، وأخذت تسير بين التماثيل الرخامية البيضاء المنتشرة في أنحاء الحديقة التي أقيمت لتخليد ذكرى الكثير من العلماء والشعراء والأدباء والحكماء من أمثال الفارابي والبيروني والمتنبي وغيرهم، وتوجهت إلى الأريكة التي اعتادت أن تجلس عليها، وعندما نظرت إلى ساعتها أدركت أن لديها متسعاً من الوقت قبل أن يحين موعد وصول الصديقة فأخرجت الورقات التي أحضرتها وبدأت تنصت لصوت جدها ينساب إلى عقلها من بين أصوات تغريد الطيور وخريف الماء، وهو يقول:

(..بلى. قد آن الأوان أن أحيا حيث أريد لا حيث ولدت، وأن أقول ما أحب لا ما يجب أن يقال، وأن أعمل من أجل المتعة لا من أجل المال، وأن أصحو فلا أنام وأرقد فلا أقوم، وأن أعيش الحاضر بلا أسفٍ على ماضٍ ولا خوفٍ من آتٍ، وعند هذه النقطة من التفكير قررت أنه قد حان وقت الرحيل، كل ما أرجوه هو الرحيل إلى مكان تتوفر فيه ثلاث خصال، أن يكون أهله على الفطرة، وألا تكون قد دخلته التكنولوجيا، وألا يعرفني فيه أحد، فالمجاهيل في نعيم، محررون منطلقون، والمشاهير في جحيم، مكبلون مقيدون، هذا ما أحسب أن أؤيس القرنى قد أدركه، ولذلك كان يعيش في المكان حتى إذا ما اشتهر أمره وذاع صيته غادره إلى غيره، فصار شعاره في الحياة (عُرفت فاهرب)، الكتب التي تروي سيرته ترجع هذا التصرف منه إلى رغبته في الإخلاص والبعد عن الرياء، وهذا ما كنت أعتقد في صباي أما الآن وبعد هذا العمر الطويل فأعتقد أنه كان ينتهج هذا

النهج رغبة في الحرية و اجتناباً للعبودية، و هل الرياء إلا أخس أنواع الرق؟

و بعد القرار يبقى التنفيذ، و يطرأ السؤال: أين هذا المكان؟ و هل لتلك الخصال الثلاث وجود في هذا الزمان؟ يغلب على حدسي أنني قد أجد المكان المرام في إحدى قرى جنوب شرق آسيا أو وسط افريقيا، سأجتهد حتى أجده، فإن لم أجده سأوجدّه، و هناك سأكمل كتابة هذه الورقات..).

- إلى أي البلاد رحلت؟ و بأي القرى حللت؟

خرجت «حورية» من الأوراق و عادت إلى الحديقة و التفتت باسمّة إلى الصديقة و قالت: مرحباً «سارة». كأنك كنت معنا.

«سارة»: معكم! من أنتم؟

«حورية»: أنا و جدي، كان في طريقه إلى قرية ينعم فيها بالحرية و كنت برفقته حتى قدمّت، فاعتذرت له و رجعت إليك.

جلست «سارة» بجانب صديقتها و قالت: قرية الحرية! يا لها من رومانسية. الحرية ليست قرية أو مكاناً تنتقل إليه، إنما هي كنز مدفون في صدورنا، فإن لم يجدها الإنسان في باطن النفس فلن يجدها على ظهر الأرض.

«حورية»: و هذا الكنز الدفين كيف يصل إليه الإنسان يا فيلسوفة الزمان و حكيمة العصر و الأوان؟

«سارة»: لن يصل حتى يتحرر من جميع القيود، من كل المعتقدات و الأفكار و المشاعر.

«حورية»: و ماذا سيبقى له من إنسانيته بعد ذلك؟ إذا تحرر البشر من عقولهم و عواطفهم فلن يبقى لهم سوى الغرائز الحيوانية و العناصر المكونة للمادة الطينية.

«سارة»: إنما عנית بالتحرر من الأفكار و الأحاسيس أن نتحكم فيها لا أن نتحكم فيها.

«حورية»: التحكم في الأفكار و المشاعر يتطلب خضوعها للإرادة، و طبقاً لهذا التصور لا يكون الإنسان مطلق الحرية إلا إذا كان مطلق الإرادة، أليس كذلك؟

«سارة»: بلى. أعطني حريتي أطلق يدي، فلا حرية بدون طلاقة اليد.

«حورية»: لا. طلاقة اليد تعني طلاقة القدرة لا طلاقة الإرادة، و كلنا يعلم مدى العجز المركب فيها.

«سارة»: و ما فائدة طلاقة الإرادة مع العجز عن إنفاذها؟

«حورية»: أنا أريد و أنت تريد و يفعل الله ما يريد.

«سارة»: و تدّعين أنك تؤمنين بالحرية المطلقة كما قلت في المحاضرة؟ العجز المركب فيها الذي ذكرته ما هو إلا أحد الأوهام التي يكبل بها الناس أيديهم بأيديهم، انظري إلى من سبقونا في سلم الحضارة، إرادتهم نافذة و أيديهم مطلقة، إذا أردوا تحرير بلد حرروها، و إذا أردوا احتلال أخرى احتلوها، و إذا شاءوا أن يعاقبوا ثلاثة حاصروها و أجاجوها.

«حورية»: العجز ليس وهماً، بل هو صفة كمال في الإنسان، فنحن نتعلم و نترقى من عجزنا و ضعفنا و جهلنا و خطئنا، إنما الوهم هو حلم القوة المطلقة و أن يظن أهل الأرض أنهم قادرون عليها و على من عليها، و الحقيقة في الصورة التي رسمتها للتقدم الحضاري المزعوم ليست إلا الظلم و العدوان.

«سارة»: الظلم سيختفي فقط حينما يختفي الضعفاء، و العدوان لن يتوقف طالما هناك مساكين، ألا ترين أن الحروب بين دول المتقدمة توقفت منذ الحرب العالمية الثانية و أصبحت فقط موجهة إلينا، بينما هم ينعمون بالسلام فيما بينهم.

«حورية»: العدل الذي سيتحقق بقتل الضعفاء ليس عدلاً، إنما هو قمة الظلم لأنه يعني أنه قد تم ظلم كل من يمكن ظلمه بالفعل، و السلام الذي سيحل بذبح المساكين ليس سلاماً بل قمة العدوان لأنه يعني أنه قد تم العدوان على كل من يمكن العدوان عليه، هذا ليس ترقياً في سلم الحضارة الإنسانية كما تصفينه بل تدنياً في سلم الغابة الحيوانية.

«سارة»: هل نقاشنا عن العدل و السلام أم عن الحرية؟

«حورية»: بل عن الحرية.

«سارة»: إذاً لنعد إلى قضيتنا و لا داعٍ للاستطراد.

«حورية»: لا بأس . كما تشائين.

«سارة»: هذه هي النقطة التي وصلنا إليها فعلاً، المشيئة أو الإرادة، معنى قولك: أنا أريد و أنت تريد و يفعل الله ما يريد أن الإرادة مقيدة، فأنى لصاحب الإرادة المقيدة أن ينال الحرية المطلقة؟

«حورية»: العبارة المذكورة تتناول الفعل لا الإرادة، يعني الفعل هو المقيد لا المشيئة، نحن أحرار في أن نشاء ما نشاء، فحرية الإرادة لدينا مطلقة، وحرية الفكر كذلك، وحرية المشاعر أيضاً، لكن حرية الإرادة لها اليد العليا لأننا من خلالها يمكننا التحكم في أفكارنا و مشاعرنا.

«سارة»: اليد العليا دائماً للقوة، إذا توفرت القوة تحققت الإرادة وأثبتت حريتها، ولا وجود للحرية بدونها، ولذلك و على مر العصور كان العبيد من الضعفاء و الأسياد من الأقوياء.

«حورية»: غير صحيح، أقصى ما يمكن أن ينال السيد من العبد أن يتحكم في جسده، لكن مهما أوتي من القوة فلا سلطان له على قلبه و روحه، و العبد مهما كان ضعيفاً فيمكنه أن ينال وراثته الأرض و الإمامة فيها، و علاقة العبد بالسيد علاقة مرتبطة بثقافة المجتمع و قوانينه من جهة و مرتبطة بالتفاعل الإنساني بينهما من جهة أخرى و بالتالي قد تكون إيجابية و قد تكون سلبية، و قد يكون السيد أشد دناءة و ضعفاً من العبد، بالله عليك أخبريني من أكثر قوة و تحرراً و أرفع قدراً و شرفاً و أجدر بالكرامة الإنسانية: بلال بن رباح أم أمية بن خلف؟

«سارة» في ثورة: إيجابية! العبودية قد تكون إيجابية! يعني إنسان يستعبد إنساناً فإذا بهذا الإنسان المستعبد يتقبل هذه العلاقة و يراها إيجابية و سنية و مرضية و بهية! ما أبدع أفكارك المريخية!

«حورية» ضاحكة: ماذا لو أثبت لك أن ما ترينه مستحيلاً قد وقع، و أن الأفكار المريخية قد تحققت على كرتنا الأرضية؟

«سارة»: المياه تكذب الغطاس و الغطاسة.

«حورية» وقد تقمصت دور «شهرزاد»: كان يا مكان في قديم الزمان و سالف العصر و الأوان، طفل برئ رقيق اختطفه تجار الرقيق، فحملوه مع متاعهم على النوق و عرضوه في أم القرى للبيع في السوق، فاشتريته سيدة مشهورة بالبر و السماحة و وهبته لزوجها المعروف بالصدق و الأمانة، فرباه و أكرمه، و علمه و أدبه، فتعلق قلب الفتى به فأحبه، و دارت الأيام و أهل الفتى يبحثون عنه حتى علموا أمره و جاء أبوه و عمه، و طلبا من الرجل الذي ملك ابنهما أن يتركه لهما، فجاء الرجل بالفتى أمامهما و قال له: « اخترني أو اخترهما ». فقال الشاب: « ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت مني مكان الأب و العم ». فقالا له: « ويحك! أختار العبودية على الحرية، وعلى أهلك و عمك و أهل بيتك؟ » فقال لهما: « ما أنا بالذي أختار عليه أحداً. وإني يا أبي رأيت من ذلك الرجل الشيء الحسن فما أنا بمفارقة ». فحينها فرح الرجل الكريم و وقف على صخرة أمام الكعبة و قال: « يا أهل قريش اشهدوا، هذا الفتى ابني يرثني و أرثه ». فلما رأى ذلك أبوه و عمه طابت نفسيهما و انصرفا.

«سارة»: قد أدركت ما تقصدين، و هذه الحادثة ليس لها في التاريخ مثيل، و لذلك لا يمكنك التعميم.

«حورية»: لستُ في حاجة إلى التعميم، و هذه الحادثة العجيبة فيها إشارة فريدة هي جوهر القصيدة، مع الحب و الكرم و الإحسان و بعد اجتياز الفتى الامتحان، تطورت العلاقة من العبودية إلى البنوة، فإذا كان هذا العطاء و تلك المكافأة قد وقعا

من إنسان يوصف بأنه الرحمة المهداة لشاب اختاره دون سواه و فضله على أبيه و عمه، فما بالك بمن أهدي هذه الرحمة للعالمين كيف يكون عطاؤه و مكافأته لمن اختاره وحده و لم يرض بغيره؟

«سارة»: المسلمات التي تنطلقين منها هي عندي ليست بمُسَلَّمة، و الأحلام الوردية لا تزيل التناقض بين الحرية و العبودية، و لا تحل المعضلات الفلسفية.

«حورية»: يبدو أن الإشكالية التي طرحتها في المحاضرة الماضية مازالت في ذهنك قائمة.

«سارة»: أي إشكالية تعنين؟

«حورية»: إن أردتني عبداً فلا تخيرني، و إن أردتني حراً فلا تحاسبني.

«سارة»: أجل. بلا شك.

«حورية»: ربما أراد من الحر أن يكون عبداً باختياره، أو أراد من العبد أن يكون حراً في عبوديته، و عندها تصبح العبودية قمة الحرية لأنه اختار بإرادته أن يمحو إرادته و يتحرر من جميع صفاته البشرية، و تصبح الحرية هي محض العبودية لأنه لم يبق له شيء يملكه حتى قلبه و روحه و بات مملوكاً لمعبوده بالكلية.

«سارة»: و هذا هو موقفك من الحرية الذي ستعلنينه في محاضرة الدكتور «ليب» القادمة؟

«حورية»: لا. فرغم عشقي للحرية لم أتمكن حتى الآن من صياغة موقفني منها في عبارة موجزة محكمة.

«سارة»: لا بأس. لا يزال في الوقت بقية قبل موعد المحاضرة.

«حورية»: و ماذا عنكِ؟

«سارة»: أنا أيضاً لم أصل إلى الصياغة النهائية، ثم أضافت باسمه: لكنني مندهشة من اعتبارك لنفسك عاشقة للحرية، فما أراك إلا عدوة لها.

«حورية»: مازحة: ما محبة إلا بعد عداوة، لكن إن كنت تُعدينني كارهة للحرية فما تُعدين دكتورنا المبجل الذي يراها خدعة كبرى.

«سارة»: كلام الدكتور «لييب» ينفي جوهر القضية فلا مجال فيه للكره و المحبة، فإذا كانت الحرية في جوهرها لا وجود لها، فكيف ستحبينها أو تكرهينها؟

«حورية»: صدقت. هذه شخصيته و تلك عادته، أن يطرح الموضوعات و المسائل مجردة من الأحاسيس و المشاعر.

نهضت «سارة» مؤذنة بالانصراف، و قالت: أتركك لتعودي إلى جدك، ثم غمزت بعينها و أضافت: لعله لا يزال ينتظرك ليصحبك إلى قرية الحرية.

«حورية»: نعم، و عندما نصل سأرسل لك بالعنوان لتلحقني بنا.

«سارة»: أحسب أن انتظاري سيطول.

*** **

بعد انصراف صديقتها عادت «حورية» إلى خلوتها، و غاصت في أعماق الأوراق لتجلي منها حكمة اليراق، و عندما وصلت إلى جدها وجدته يقول لها:

(..ها أنا أعاود الكتابة بعد طول انقطاع، فلكي تكتب لا بد أن تنقطع و تنقطع، نعم - بعد رحلة بحث طويلة لكنها جميلة و مرهقة بيد أنها مشوقة - وصلت إلى القرية التي أردتها و وجدتھا بالخصال التي حددتها، قرية الحرية - هكذا سميتها - حيث تتغلب فيها الفطرة الإنسانية على التقنية العصرية، و تعلمت من الحياة فيها أن الإنسان الأول كان أكثر تحرراً لأنه كان أشد تبسطاً، و على مر الأزمان صار الإنسان بل صارت الحياة كلها أشد تعقيداً، و هكذا أضحى الإنسان رقيقاً، الأجيال الأولى من البشرية كانت بلا جنسية، فجنسيتها كانت الإنسانية، و لم يكن لها وطن، فوطنها كان الكرة الأرضية، و بالتالي لم يكن هناك حدود بين البلاد و لا جوزات للسفر و لا تأشيرات، و لم يكن هناك صاحب عمل و عمال، بل كان الجميع من رجال الأعمال، من أراد أن يحتطب احتطب، و من ابتغى الصيد اصطاد، فلا تصريحاً للصيد مطلوب و لا سجلاً تجارياً للحطب مشروط، و كان الجميع سواسية، لا يوجد أحرار و ممالك و لا أسيا و عبيد، و لكن رغم أرض الله الواسعة و نعمه السابغة لم يعجز بنو آدم عن إيجاد الذرائع للحروب فيما بينهم، و أصبحت الحروب ذرائعاً لسفك الدماء ثم ذرائعاً للاسترقاق، و ذلك بعدما عرف البشر الزراعة فبدلاً من قتل المنتصرين لإخوانهم المنهزمين عمدوا إلى استعبادهم تحت ضغط الحاجة لليد العاملة لزراعة الأرض و بناء الحضارة، و العجيب أن العديد من الباحثين و المؤرخين يعدون

هذا - التحول من سفك دم العدو أو أكل لحمه إلى استعباده - ترقياً في السلم الأخلاقي على اعتبار أنه أدى في النهاية إلى حقن الدماء نسبياً، رغم أن الدافع إليه لم يكن الرحمة بل الطمع، وهكذا نجح الإنسان - هذا الكائن الفريد الذي اجمعت الملائكة والشياطين على سوء الظن به - في بناء أقدم الحضارات المعروفة في تاريخه على الاستعباد، فلم تخل واحدة منها سواء كانت الفرعونية أو الآشورية أو الإغريقية أو الرومانية من نظام الرق، بل كان المعلم الأول الخواجة أرسطو يرى في هذا النظام الحكمة البالغة.

المهم أنني وجدت القرية، أعني وصلت إلى بغيتي وحصلت على حريتي، فلا أحد يقول لي شيء فعلته لم فعلته ولا شيء لم أفعله هلا فعلته، ثم ماذا بعد؟ في البداية كنت متحمساً لمعرفة أنماط الحياة فيها، مشغولاً بمراقبة عادات وتقاليد أهلها وتعلم لغتهم، ولكن بعد فترة عاد الملل وآبت الرتابة، وجدت الحرية لكنني لم أجد السعادة، وما فررت منه بالأمس أكاد أفر إليه اليوم، ومن هجرته البارحة افتقده الليلة، الحرية لم تمنع الوحشة، ولم تسكن العبرة، ولم تُزل الجفوة، يحزنني أنني حزت الحرية لكنني لا أدري كيف أمارسها؟ كيف أسامرها؟ كيف أراقصها؟

يبدو أن رحلة البحث عن الحرية أجمل من الحرية ذاتها، وأن السير إليها أمتع من الحصول عليها، والجهاد من أجلها أبداع من الوقوف عندها، والرجاء فيها أنفع من نيلها، والعشق لها أحلى من الزواج بها.

لكن إن صح ما سبق فهذا يعني أن البحث عن الحقيقة أجمل من الحقيقة ذاتها، وأن السعي إلى النجاح ألد من النجاح، وأن السباق إلى الجنة أكثر روعة منها، و يقيني أن ذلك ليس بصواب، وهكذا يتضح إما أنني لم أصل لها وإما أنها لا وجود لها. و هنا يولد السؤال في الوجدان و ينمو في الجنان عن ماهية سيدة الحسن و الجمال تلك المدعوة بالحرية؟ ما هي الحرية؟..)

توقفت «حورية» عن القراءة، فقد شغلها السؤال عن الاسترسال، فطوت الورقات و أخذت تفكر في الجواب، ثم بدأت تجول ببصرها في وجوه من حولها من العلماء و الحكماء و الشعراء و الأدباء الذين ينتشرون في أرجاء الحديقة، لكن لم يسعفها واحد منهم بالدواء، فنهضت من جلستها و عادت أدراجها في انتظار ما يتحفها به تعاقب الليل و النهار.



كان «عاصم» يمارس رياضة الركض بينما صديقه «عاطف» جالسٌ بالجوار يحتسي كوباً من الكاكاو و يتصفح بعض المواقع الإخبارية على جهاز الحاسوب، و يتابعه بنظراته بين الحين و الحين، و عندما انتهى «عاصم» من التمرين توجه بقوامه الرياضي المشقوق إلى الطاولة التي يجلس إليها صاحبه و ألقى عليه التحية ثم جلس على المقعد المقابل لينال قسطاً من الراحة.

«عاطف»: ها أنا قد طلبت لك عصير البرتقال الطبيعي بدون سكر كما أردت.

تناول «عاصم» الكوب و شرب بعضه ثم قال مازحاً: بدون سكر لأنك حتماً قد أفرغته كله في كوبك أليس كذلك؟

أغلق «عاطف» جهاز الحاسوب و هو يقول: بلى. أليس ذلك بأفضل من الحرمان الذي تفرضه على نفسك؟

«عاصم»: ما تعتبره حرماناً هو ما يجعلني أسعد بصحة جيدة و جسم رشيق.

«عاطف»: معنى هذا يا صديقي أنك تتنازل عن قدر من الحرية لتحقيق قدراً من السعادة، أما أنا فسعادتي في حريتي، أتناول ما لذ و طاب، و لا أحمل هم الغذاء الصحي و القوام الرياضي، ثم أضاف ضاحكاً: فالحياة بدون سكر لا طعم لها.

«عاصم»: ستصاب بالسمنة يوماً، و عندئذ ستغير رأيك حتماً. حتى لو أمكنك الجمع بين السعادة و الحرية فلن يمكنك أن تضيف إليهما الصحة أيضاً.

«عاطف»: أنا إلى الآن بصحة جيدة و وزن مناسب، فلما الدخول في معركة لست مضطراً لها؟ لا شك أن مشاهدة الممارك أكثر متعة من التردى فىها، أنا متأكد أنك أثناء التمرىن كان همك ضبط عملية تنفسك و توفير الأكسجىن اللازم لخلايا جسدك و لىس التمتع برشاقة الحركات و تناسق الخطوات، تماماً كما أشاهد فىلماً من أفلام الحركة، أجد أنا المتعة مع كل قفزة بنىما يجد الممثل فىها المشقة، فكم مرة اضطر لإعادة المشهد و كم كانت نسبة التعرض للخطر فىه، كل هذا و القفزة على الشاشة فما بالك لو كانت على أرض الواقع، ابشر حىنئذ بالتواء كاحله

أو بكسر رقبته، الخلاصة أن المشاهد ينال الجمال و الممارس ينال الألم.

«عاصم»: المشاهد ينال جمالاً موهوماً بينما الممارس ينال مجداً حقيقياً، و المشاهد للمعارك لا ينتصر أبداً بينما المحارب قد ينتصر و قد يهزم.

«عاطف»: و قد يُؤسر المحارب فيفقد حريته بالكلية.

«عاصم»: الخوف من الأسر لا يحقق الحرية، بل يكبلها بقيود مضاعفة، و إن أردت الحق فالواحد منا لا يتمتع بالحرية الكاملة أبداً إلا في بداية حياته حين يولد و يعيش الأيام الأولى من عمره و له حقوق عند كل أحد و ليس عليه واجبات تجاه أي أحد.

«عاطف»: و ما قيمة الحرية في هذه المرحلة العمرية إن كنا لا نشعر بها؟

«عاصم»: لست أدري لكني لم استطع أن أجد أفضل منها معبراً عن أقصى درجات الحرية، فبمجرد أن يبدأ الإنسان في الإدراك و التعاطي مع من حوله تظهر القيود من حيث يحتسب و من حيث لا يحتسب، أبسط مثال أنك إذا كنت في غرفة وحدك ثم لحق بك آخر، ففي هذه اللحظة ستفقد نصف حريتك في إشعال مصباح الإضاءة أو إطفائه، و في فتح الشباك أو إغلاقه، فما بالك و أنت تعيش على كوكب يشاركك فيه ما يقارب العشرة مليارات من البشر.

«عاطف»: إن كنت لا تدري فأنا أدري، أتفق معك إن لحظة المولد فريدة في بيان الحرية و التعبير عنها، و لذلك كانت هي

اللحظة التي استندت إليها المقولة التراثية الشهيرة: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً) في إدانة استعباد البشر بعضهم البعض بكل صوره وأنواعه، وهذه اللحظة وإن كنا لا نعيها ولا نذكرها، فإنها قد غرست فينا شيئاً لا نصل إلى الكمال بدونه، ومن ثم يصبح سعينا في الحياة هدفه هو الرجوع إلى تلك اللحظة، لحظة البراءة التامة والتحرر الكامل، تلك اللحظة التي عشناها سابقاً بلا وعي ولا ذاكرة ولا إرادة سنعود إليها لاحقاً - إذا نجحنا في إتمام دورة حياتنا على الوجه الأكمل واستطعنا وصل البداية بالنهاية - لنعيشها مرة أخرى لكن مع الوعي والذاكرة والإرادة، ويمكنك اعتبار هذا الكلام جواباً على سؤال السابق.

«عاصم»: أراك لا تنفك عن الدوران في فلك الفردوس المفقود الذي أشرت إليه أيضاً في مناقشتنا أثناء محاضرة الدكتور «ليب» الأخيرة، هل لاحظت كيف لمعت عيناه وقتها؟

«عاطف»: نعم. ولا أدري أكان هذا استحساناً منه أم استنكاراً؟

«عاصم»: تعلم أنه شخص يصعب أن تعلم ما يدور بخلده، على كل حال خلاصة قولك أن الإنسان يولد محرراً ثم تتوالى عليه القيود فتتحول حياته إلى سلسلة من المقاومة ليعود محرراً كما كان، فإذا تحرر عاد إلى البراءة الأصلية التي هي شرط للعودة إلى الفردوس المفقود.

«عاطف»: أجل. البراءة من الرذائل والمعائب تُحررنا فإذا تحررنا انطلقنا إلى الفردوس فتفتح لنا الأبواب، وبقدر ما يقترب الإنسان من البراءة بقدر ما يمكنه النفاذ من الحجب ولذلك

يتوارث أجدادنا مقولة: (خذوا فالكم من عيالكم) للإشارة إلى حادثة عهد الأطفال بالملا الأعلى وقدرتهم على اختراق الحجب ببراءتهم التي يفتقدها الكبار ويسعون لاستعادتها قبل انتهاء الحياة وفوات الأوان، والسعيد من ينجح في ذلك، وبهذا النجاح ينتقل الإنسان من مصارعة الآفات والأهوال والظلام إلى معانقة الجمال والجلال والأنوار، ومن مجادلة الملا الأسفل إلى مناجاة الملا الأعلى، ويستعيد دور أبيه آدم عندما كان للملائكة معلماً.

«عاصم»: حالم أنت كعادتك، عاطفي كاسمك.

«عاطف»: يبدو أنك أكثر ميلاً لرأي الدكتور «لييب» وتظن أن الحرية لا وجود لها وليست محجوبة وعلينا إزالة الحجب عنها.

«عاصم»: لا. أنا ما زلت مقتنعاً بالحرية النسبية المتاحة للبشرية، ولا أميل إلى نظرية الخدعة الكبرى التي يدعيها الدكتور ولا إلى نظرية الرومانسية المثلى التي تنادي بها.

«عاطف»: ترى ماذا يعد لنا الدكتور في المرة القادمة؟

«عاصم»: لا تعجل. ما تنتظره اليوم سيأتي غداً.

*** **

دخل الطلاب قاعة المحاضرات ولاحظوا أن المقاعد قد رتبت على شكل حرف «U» اللاتيني فعلموا أنهم بصدد حلقة نقاشية، فبدأوا في اختيار المقاعد للجلوس، وبعد لحظات وصل الدكتور «لييب» يرافقه مساعده «هانئ» واتخذ كل منهما مقعده

على المكتب البيضاوي الموجود في مقدمة القاعة، و بعد التحية دخل «د. ليب» في الموضوع مباشرة وقال:

اليوم سنطبق ما اتفقنا عليه في المحاضرة السابقة، و المطلوب أن يسجل كل واحد منا- أنا و أنتم- موقفه من الحرية في عبارة محكمة على الشاشة المثبتة في مقعده، و ستظهر له أيضاً العبارات التي سيكتبها الآخرون، و سيكون عليه أن يقيم كل عبارة منها بدرجة واحدة إن كان لا يتفق معها تماماً تتصاعد حسب مدى اتفاهه معها إلى خمس درجات إن كان يتفق معها تماماً، و بعدها سيقوم «د. هانى» الذي بدوره ستظهر على شاشته أيضاً مواقفنا من الحرية و تقييماتها بإعلان المواقف التي نالت أعلى الدرجات، ثم نبدأ في تلقي الأسئلة و التعليقات و المناقشة، ثم ابتسم ابتسامته المستفزة المعتادة وقال: واضح أم مفهوم؟

الطلاب في صوت واحد: لا واضح و لا مفهوم.

كاد «هانى» أن يقهقه لكنه تمالك نفسه، بينما لم يبد على «ليب» أي انطباع، فقد كان يدرك أن الطلاب إنما يحاولون الرد على استفزازه لهم، فنظر إليهم من فوق النظارات الطبية التي يرتديها رافعاً حاجبيه و قال: إذن فلنبداً.

انهمك الطلاب في الكتابة و في نفس الوقت التي كانت العبارات تظهر على شاشاتهم كانت تظهر أيضاً على الشاشة الرئيسة الموجودة فوق مكتب المحاضرين في مقدمة القاعة، و لوحظ أن العديد من العبارات كانت تظهر لبرهة ثم تختفي، و كذلك الدرجات المسجلة أمام كل عبارة كانت تزيد و تنقص باستمرار مما يدل على أن العديد من المشاركين كانوا مترددين في تحديد المواقف و التقييم.

و بعد فترة أخذت التغيرات على الشاشة تتناقص بالتدريج حتى استقرت على الوضع النهائي لها، و عندها طلب «د. لبيب» من الطلاب غلق الشاشات الخاصة بهم و التركيز فقط على الشاشة الرئيسة، ثم بدأ «د. هانى» في إعلان النتائج و تسجيلها على تلك الشاشة و هو يقول:

المواقف التي حازت أعلى الدرجات خمسة، و الغريب أنها جميعها متساوية، و سأقوم الآن بتسجيلها على الشاشة مع ملاحظة أن الترتيب لن يكون له دلالة إحصائية بالطبع.

ثم بدأت تظهر على الشاشة الرئيسة العبارات الآتية على التوالي:

العبارة الأولى: الحرية أن نكون آلهة لأن العيد لا يكونون أحراراً.

العبارة الثانية: الحرية حق يقابله واجب.

العبارة الثالثة: الحرية الحقيقية أسمى معاني الحياة الإنسانية.

العبارة الرابعة: الحرية أجمل حلم في مسيرة البشرية.

العبارة الخامسة: الحرية أكبر خدعة في تاريخ البشرية.

انتظر الدكتور «لبيب» لحظات حتى يتأكد أن الطلاب قد وعوا الخمس عبارات ثم قال: يمكننا الآن أن نبدأ النقاش، و كما تعودنا يمكن لمن يريد أن يكون أول المشاركين أن يضغط زر المشاركة على شاشته و يلقي بدلوه، ثم تتوالى المشاركات بترتيب طلبات المداخله آلياً.

افتتحت «سارة» النقاش بقولها: الحلم و الخداع كلاهما بعيد عن الحقيقة، و لذلك لا أجد فارقا جوهريا بين العبارة الرابعة و الخامسة بل أحسب أنهما مترادفتان.

«عاطف»: لو كانت العبارتان مترادفتان لكان لكل من الحلم و الخداع نفس المعنى و هذا غير صحيح قطعاً، فالحلم قابل للتحقق و عندها يتحول إلى حقيقة أما الخداع فلا يخرج عن دائرة الكذب في جميع الأحوال. الفارق الثاني و الذي أعده جوهرياً، أن التاريخ معني بالماضي في المقام الأول، أما المسير فيصل الماضي بالحاضر بالمستقبل.

«عاصم»: هذا يعني أن العبارة الخامسة تعبر عن موقف يأس من الحرية بينما الرابعة تعبر عن موقف متشوق إليها، أو يمكننا القول أن هذه تتبنى موقفاً سلبياً من الحرية و تلك تتبنى موقفاً إيجابياً منها.

«د. ليب»: لا يعينني في مسألة الحرية اليأس أو الأمل، إنما يعينني مدى تحققها على أرض الواقع، و هنا تتفق العبارتان في نفيها عن الواقع، إلا أن إحداها تضع احتمال التغيير مستقبلاً بينما الأخرى لم تتعرض لهذه النقطة لأنها لا تدخل في نطاق البحث العلمي.

«حورية»: لا أحسب أن موضوع الحرية يندرج تحت العلم التجريبي حتى يقال إن المستقبل أو الغيب لا يدخل في نطاقه، و إنما هي من وجهة نظري تنطوي تحت البحث الفلسفي، و الفلسفة أوسع من العلم.

«عاطف»: أريد الانتقال إلى العبارة الأولى لو أذنتم، ما معنى أن نكون آلهة؟

«عاصم»: هذا ديدن الحداثة، عادة ما تصبو إلى تأليه الإنسان وأنسنة الإله.

«سارة»: لم ألاحظ هذا المعنى في العبارة، وواضح أمامي أنها عبارة رمزية، والمقصد أن التحرر الكامل المطلق غير متصور إلا لمن لا يُسأل عما يفعل، وهذا لا يعني خروج البشر عن مقتضى بشريتهم، وإنما يستلزم امتلاكهم لمقاييد القوة، من يستطيع مساءلة الدول العظمى عما تفعله في عصرنا؟

«عاطف»: معنى هذا أن القوة هي السبيل إلى الحرية، و القوة جوهرها الإكراه، إذا الحرية تقتضي الإكراه! ألا يعد ذلك تناقضاً؟

«سارة»: لا تناقض. فحرية «ألف» تقتضي الانتقاص من حرية «باء»، ولا يمكن لدولة ما أن تحرز القوة إلا إذا أضعفت غيرها من الدول، ببساطة عندما تفرغ من دلوك في دلو أخيك، يزيد دلوه بقدر ما ينتقص من دلوك.

«عاطف»: نعم هذا إذا نظرتِ إلى الدلو أما إذا أبصرتِ قلب من يُفرغ لوجدته يمتلأ بقدر ما يعطي.

«عاصم»: حريتك لا تقتضي الانتقاص من حرية الآخرين، حريتك تنتهي حين تبدأ حرية الآخرين.

«سارة»: بشيء من التحدي: إن كنت تؤمن بتلك المقولة فتيقن أن حريتك ستنتهي قبل أن تبدأ.

«د. ليب»: تجنبوا الانتقال من الموضوعية إلى الذاتية، وجهوا حديثكم إلى الأفكار لا إلى الأشخاص.

«حورية»: أجل هذا ما سأفعله الآن. وبالعودة إلى العبارة محل النقاش - الحرية أن نكون آلهة - أجد أن التصور الذي تطرحه للألوهية غير مكتمل، فتعالى الألوهية على المساءلة لا يعني الحرية المطلقة لها.

لاحظت «حورية» تسلل أكثر من سبابة في محاولة للوصول إلى زر طلب المداخلة على شاشات الزملاء، فسابقتهم فسبقتهم فتمكنت من منعهم من مقاطعتها قبل توضيح فكرتها كاملة، وأضافت:

صحيح أنه لا يوجد في الكون مَن أو ما يمكن أن يحد من حرية القوة والقدرة والمشيئة الإلهية، ولكن تبقى الألوهية ذاتها، تفرض على ذاتها ما تشاء، فتحرم الظلم على نفسها كمثال، وهذا يعني أن الضوابط لا تتنافى مع الحرية المطلقة، بل إن كانت تلك الضوابط نابعة من الذات فهي دلالة ترقى في طلاقة وكمال الحرية، وينبغي على البشر احتذاء هذا النموذج إذا أرادوا أن يكونوا أحراراً، وبقدر اقترابهم من الألوهية بقدر ما يحققون الحرية.

«عاصم»: هذا يصل بنا إلى تمحيص العبارة الثالثة - الحرية الحقيقية أسمى معاني الحياة الإنسانية - لماذا تم وصف الحرية هنا بالحقيقية؟ وليس بالكاملة أو المطلقة على سبيل المثال؟

«عاطف»: ربما لأن الحرية الحقيقية ليست بالكاملة ولا المطلقة.

«سارة»: بل إن لم تكن الحرية كاملة ومطلقة فهي ليست حقيقية.

«عاصم»: كيف تكون الحرية كاملة و مطلقة لكائن ليس بكامل و لا مطلق، يجب ألا ننسى أننا بشر.

«حورية»: صحيح أن الإنسان ليس بكامل و لكنه قابل للكمال، و ليس بمطلق و لكنه قادر على الاتصال بالمطلق.

«عاطف»: يعني يمكننا القول أن الإنسان بقدر ما يقترب من الكمال و بقدر ما يتصل بالمطلق يجعل حياته معنى سامياً، و بدون هذا السمو لا ينال حريته حقاً.

«حورية»: المهم أن نصل للحقيقة في كل شيء، حقيقة الإنسان، حقيقة الحياة، حقيقة الحرية.

نظر «د. ليب» إلى الساعة المعلقة في قاعة المحاضرات ثم قال: أوشك الوقت المخصص للمناقشة على الانتهاء. ثم ابتلع ريقه و أضاف: أرى أنكم قد تناولتم أربعة مواقف من خمسة، ألا يريد أحدكم التعليق على العبارة الثانية: (الحرية حق يقابله واجب)؟

«عاصم»: لا اعتقد أنها بحاجة لتعليق، واضح أنها تتبنى الموقف التقليدي من الحرية باعتبار أنها نسبية و أنها مسؤولية.

«د. ليب»: هل توافقون على ما قاله «عاصم»؟

الطلاب: نعم.

«د. ليب»: إذن دعونا نتقل للخطوة التالية. أرجو من كل واحد منكم أن يسجل أمام كل عبارة من العبارات الخمس كلمة واحدة تلخص الموقف الذي تتبناه تلك العبارة من الحرية، ثم يقوم «د. هانى» مشكوراً بعرض ما توصلتم إليه.

انهى الطلاب المهمة المطلوبة خلال دقائق، ثم أخذ «د. هانى» في تسجيل الخلاصة على الشاشة الرئيسة وهو يقول: لدينا الآن خمسة مواقف محددة من الحرية و معبر عنها بكلمة واحدة ستظهر أمامكم حالاً:

الحرية: نسبية

الحرية: إلحاد

الحرية: وهم

الحرية: حلم

الحرية: حقيقة

طلبت «سارة» المداخلة على عجل وقالت: اعترض وصف الحرية بالإلحاد، هذا تلخيص مخل للموقف الذي تبناه إحدى العبارات، ونوع من الإرهاب الفكري.

«د. ليب»: لا يوجد مجال للإرهاب الفكري في قاعات العلم والدراسة، نحن نناقش الأفكار ولا نحاكم من يطرحها.

«د. هانى»: ليس هناك إرهاب في الموضوع، إنما هو توصيف مجرد لما تنطوي عليه تلك العبارات من دلالات من خلال استيعابكم لها، دعيني أشرح لك. ما حدث هو أنني قمت بتجميع الكلمات التي كتبتموها أمام كل عبارة ثم عينت الكلمة التي حازت النسبة الأكبر من أصواتكم، وفي حالة العبارة محل النقاش الآن - الحرية أن نكون آلهة - وجدت أن الكلمة التي جاءت في المرتبة الأولى هي (الإلحاد) تليها مباشرة (الفوضى) بفارق صوت واحد.

«د. ليب»: إن أردت أن تلقي مزيداً من الضوء على مفهوم العبارة من وجهة نظرك ثم نعيد التصويت فلا بأس.

«سارة»: أظن أن الموقف الذي تعبر عنه العبارة هو أن الحرية انطلاق بلا حدود.

«عاصم»: لا أظن أن هذا التعريف قد أضاف جديداً، فإن كان المقصود انطلاقاً بلا حدود من السماء فهو إلحاد، وإن كان انطلاق بلا حدود من الأرض فهي فوضى.

«عاطف»: ألا يسعنا أن نقول إن الحرية انطلاق و كفى؟

«عاصم»: بلى و لكن في هذه الحالة لن تكون العبارة محكمة ولا محددة.

«حورية»: أحسب أن الموقف من الحرية على أنها إلحاد موقف حقيقي وواقعي، موجود عند نسبة لا بأس بها من البشر من كلا الفريقين: المحذرين من الحرية بعضهم يخشى أن تؤدي إلى الإلحاد، والداعين إليها بعضهم يظن أنها لن تتحقق إلا بالإلحاد، وهذا يستحق البحث والدراسة.

«عاصم»: و بالتالي ليس هناك تلخيص مغل و لا إرهاب فكري، دعونا نمضي مع هذا الطرح و لننظر إلى أين سيمضي بنا.

«سارة»: حسناً. اقتنعت و لا داعٍ لإعادة التصويت.

«د. ليب»: بأسلوب مسرحي نوعاً ما: جميل. و الآن أوشكت شمس المحاضرة على المغيب، و لم يعد لدينا سوى دقائق معدودات، هذه الدقائق سأطرح عليكم فيها فكرة تجربة عملية

اختيارية لن يترتب عليها تحصيل درجات إضافية في المادة الدراسية، لكن الهدف منها خلق مناخ يساعدكم على مناقشة قضية الحرية من منظور مختلف و من خلال موقف جديد.

بدأ التوتري يظهر على وجه «د. هانئ»، وبدأ أيضاً حماس الطلاب يزداد وأخذت نسبة المشاركين منهم في الحوار تعلو، فبادر أحد الطلاب يدعى «ماجد» بالسؤال قائلاً: وما طبيعة تلك التجربة؟

«د. ليب»: هي عبارة عن رحلة عبر «غابة الجبل»، تعلمون أن كثافة الأشجار هناك و الطبيعة الجبلية للتضاريس و رغبة الجهات المعنية في الحفاظ على تلك البقعة الفريدة كمحمية طبيعية بعيدة عن التلوث، كل ذلك سيجعل من أقدامكم وسيلة مواصلاتكم داخلها. «ماهر»: هذا جيد، و اضح أننا سنجمع بين الرياضة الذهنية و البدنية.

«د. هانئ»: لكن هذه المنطقة بعيدة عن تغطية شبكات الهواتف المحمولة و هذا قد يؤثر على نسبة الأمان في تلك الرحلة. «حنان»: و لكنه أيضاً سيزيد من نسبة الإثارة و التشويق فيها.

«د. ليب»: بشيء من الضجر المخفي و الحدة المستترة: ليس هناك خطراً دكتور، فهذه ليست غابة للحيوانات المفترسة و إنما كما نعلم جميعاً أنها عبارة عن غابة من النباتات يتوسطها جبل و تسكنها بعض الحيوانات الأليفة، و كل من يصطحب معه وسائل الاتصال الحديثة في رحلاته فكأنه لم يرحل أصلاً.

«حورية» و قد تذكرت رحلة جدّها: هذا صحيح.

«جميلة»: و كم من الوقت يستغرق عبور «غابة الجبل»؟

«د. ليب»: إذا تمكنا من قطع عشرين كيلو متر يوميا يمكننا عبورها في ثلاثة أيام.

«عادل»: متى موعد الرحلة؟

«د. ليب»: في الأسبوع الثاني من إجازة منتصف العام الدراسي.

«عاصم»: وما العلاقة بين تلك الرحلة الخلوية وبين مسألة الحرية؟

«د. ليب»: لو أخبرتك لفست التجربة، الفكرة أن تواجه في تلك الرحلة موقفاً يدفعك إلى التفكير ويضع أمامك عدة اختيارات.

«عاطف»: أجدها تجربة شائقة، سأشارك في تلك الرحلة.

«سارة»: وأنا كذلك.

«ليلي»: وأنا أيضا.

تتابع الطلاب و الطالبات على تسجيل رغبتهم في الاشتراك حتى وصل عددهم إلى عشرة من الطلبة، ومع زيادة عدد المشاركين يزداد القلق على وجه «د. هاني» و الارتياح على وجه «د. ليب» الذي قال في النهاية : نسبة المشاركة تقترب من الخمسين بالمائة وهي نسبة جيدة، يمكننا أن نبدأ في الخطوات التنفيذية، يمكنكم الشروع في تجهيز الخيام و الأدوات و كل ما يمكن أن تحتاجونه في الرحلة، و سأرسل لكم من النصائح و المقترحات ما يساعدكم في الإعداد.

«د. هانئ» بشيء من التحدي: وهل يمكنني أيضا المشاركة في الرحلة يا دكتور؟

نظر «د. ليب» إليه نظرة فاحصة ثم قال في اقتضاب: بالطبع.

استلقت «حورية» على فراشها وأخرجت مذكرات جدها، وقالت تخاطبه: يبدو أنني سأرحل إلى «غابة الجبل» كما رحلت أنت إلى «قرية الحرية»، لكن دعنا أولاً نرى إلى أين وصلت؟ وهل عرفت جواب سؤالك عن ماهية الحرية؟ ثم شرعت في إكمال القراءة من حيث انتهت المرة السابقة، وأصغت إلى صوت جدها وهو يقول:

(.. وهنا يولد السؤال في الوجدان وينمو في الجنان عن ماهية سيدة الحسن والجمال تلك المدعوة بالحرية؟ ما هي الحرية؟

بعد قدر من التفكير ليس بالقليل، وبعد هذا السير الطويل، اعترف أنني لم أجد جواباً يشفي العليل، ولكنني وإن لم استطع معرفة ماهية الحرية، أزعم معرفة ما ليس بالحرية، فالحرية ليست في التخلص من الواجبات، وليست في البعد عن المسؤوليات، وليست في ترك الوطن والفرار في البلاد، ببساطة لأنني فعلت كل ذلك وما زلت أشعر بالقيود داخلي، يعني وإن كنت قد حققت ما تمنيت ووطأت قدماي قرية الحرية، فقد وجدتها ظاهراً ولم أجدها باطناً، وجدتها حولي ولم أجدها في قلبي.

عند هذه النقطة من التفكير رأيته، كنت جالساً على صخرة على شاطئ البحيرة التي تطل عليها القرية، وكانت هي تمشي

الهوينى، مرت أمامي و لم تلتفت إلي، امرأة ربما في العقد الخامس من عمرها لكن نظرة الشباب لم تغب عن وجهها، لست أدري ما الذي جذبني إليها، ربما الملامح الصارمة على وجهها، ربما طريقة مشيها، ربما شيء ما في روحها، تابعتها ببصري حتى انتهت إلى قارب خشبي صغير قديم مربوط بحبل إلى سارية على المرسى، فقفزت داخله و فكت الحبل و بدأت في التجديف حتى وصلت إلى عمق مناسب في البحيرة ثم التقطت الشبكة من قاع القارب و ألقته في البحيرة و ظلت تراقب المشهد في صبر و سكون، و بعد فترة أخذت في جمع الشبكة بمهارة و التقاط ما علق بها من الأسماك، و قفلت عائدة إلى الشاطئ.

رغم أنني أمضيت قرابة العام في تلك القرية إلا أنني لم أر هذه المرأة إلا اليوم، و أغلب الظن لأنني لم أكن أجلس على الشاطئ في هذا الوقت من قبل، نظرت إلى ساعتني و عزمت على المجيء في اليوم التالي في نفس الموعد، و فعلت و لكنها لم تفعل، و تكرر الأمر في اليوم الذي بعده، و في اليوم الثالث جاءت و كررت ما فعلته في المرة الأولى، و ظلت على هذا النحو تغرب يومين و تشرق في الثالث، تبدو كأنها لا تراني و أبدو كأني لا أرى سواها، حتى جاء اليوم الموعد، و جاءت هي فيه و بدأت في تنفيذ برنامجها الذي صرت أحفظه عن ظهر قلب، لكن هذه المرة ما أن استقرت في القارب و حلت الحبل الذي يربطه و بدأت في الابتعاد أمتار قليلة حتى وجدتها تستخدم الدلو في إفراغ الماء الذي تسرب إلى القارب و في نفس الوقت تحاول التجديف للعودة إلى المرسى الخشبي على الشاطئ، أدركت أنها في أزمة و انطلقت على الفور التقطت الحبل و ألقيت به إليها بأقصى ما استطعت

من قوة، نجحت المحاولة وتمكنت من ربط الحبل في المكان المخصص له بالقارب، وأخذ كل منا يجذب طرف الحبل، وكلما جذبنا اقتربنا حتى وصل القارب إلى الشاطئ ولم يعد يفصل بيننا سوى خطوة واحدة خطتها المرأة وصعدت من القارب ووجدتني وإياها وجهاً لوجه، فنظرت إلي دون أن تتخلي عن صرامتها وقالت بلغة أهل القرية التي بدأت اتقنها: شكراً لك. قلت وأنا أنزل إلى القارب الذي صعدت هي منه: لا شكر على واجب.

فحصت القارب وأدركت سبب تسرب المياه إليه، ثم قلت لها: يمكنني إصلاحه إن شئت.

قالت في توجس: هذا كرم منك أيها الشيخ الغريب.

يبدو أنها أرادت أن تذكرني بكبر سني حتى لا يلعب الشيطان برأسي، والحقيقة أنها لم تكن بحاجة لذلك فأنا من ناحية لم أنس سني ومن ناحية أخرى لم يخطر في ذهني وأنا أساعدها أنني أساعد امرأة في ورطة وإنما مجرد إنسان يحتاج من يمد له يد العون، صحيح أنني انجذبت إليها منذ أسابيع وكنت انتظرها وأراقبها لكن ليس لأنوثتها وإنما لغرابتها و غرابة شأنها، وأحببت أن أزيل توجسها فقلت: اسمي «نادر» تركت وطني بعد وفاة زوجتي منذ عامين واستوطنت قريتك منذ عام.

قالت: كم من الوقت يستغرق إصلاح القارب؟

قلت: سأبدأ فيه اليوم ويمكنك استخدامه غداً.

قالت: لا بأس هذا جيد.

قلت: هل لديكم ما يكفيكم من السمك حتى الغد.

قالت: لديكم؟ أنا أعيش وحدي، ليس معي أحد.

قلت: أليس لديك عائلة؟

قالت: زوجي توفي منذ عقدين، و ابني الوحيد غادر القرية منذ عامين.

قلت باستنكار: غادر! إلى أين؟

قالت: المأفون ذهب يبحث عن الحرية.

شعرت أن دلواً من الماء البارد يصب فوق رأسي الساخن، و قلت: لا ينبغي له أن يبحث عن الحرية ويترك والدته وهي في حاجة إليه.

قالت: أنا لست في حاجة إليه، أنا اصطاد و ما أصاده أطعم منه و أبيع لأشتري ما يكفيني لمدة يومين ثم أعود إلى الصيد في اليوم الثالث وهكذا.

قلت: ربما لو قمتِ بالصيد كل يوم أو يومين لزداد دخلك و ادخرتِ.

قالت: ولما الادخار و الرب موجود و البحيرة و ما فيها ملكه.

قلت: ليوم كهذا.

قالت: يوم بلا طعام لا يتعب بدنًا ولا يقرب أجلاً.

أدركت أنها تتحدث بمنطق مختلف عن منطقي و أن لها رؤية مغايرة للحياة و بالتالي للحرية، فسألتها: طالما أن أمورك على ما يرام و لا تحتاجين لابنك فلما تعبتين عليه بحثه عن الحرية؟

قالت: لأنه الأخرى به أن يفر من الحرية لا أن يبحث عنها.

صحت: ولما؟

قالت: الحرية تعني الشقاء، تعني الذبول، تعني الحرمان، تعني البعد.

و قلت و أنا اشعر بمطارقها تحطم أحلامي: كيف؟

قالت: انظر إلى الجنين، انظر إلى الزهرة، انظر إلى الناي.

قلت: ما لها؟

قالت: الجنين كان يعيش في جنة الرحم، لا يحمل هم الجوع و العري، و لا الظمأ و الحر، ينصت إلى أعذب الألحان، لحن قلب الأم، ثم تحرر فانتقل من النعيم إلى الشقاء، وبدأت المعاناة فأخذ في الصراخ. و الزهرة كانت تحيا في جنة الأرض، بديعة الألوان تفوح بالعطر، فجاء من يحرقها فقطفها فقتلها، ففقدت نضارتها، و بهتت ألوانها، و ذبلت أوراقها، و ذهب عبيرها، و في النهاية داستها الأقدام. و الناي كان في جنته كذلك حتى نزع منها منذ زمان سحيق فلا يزال إلى الحين، يعاني من الحرمان و يؤن من الحنين. ألا يعني كل ذلك البعد عن النعيم؟ و عن الحياة؟ و عن السعادة؟

قلت: بل لولا تحرر الأجنة ما عرفنا الحياة، و لولا تحرر الزهور ما تهادى المحبون، و لولا تحرر الناي ما تذوقنا الألحان.

قالت و هي تهم بالانصراف: إذن أنت ترى أن الشقاء و الذبول و الحرمان ثمن مناسب للحرية، فاشبع بها.

غاضني أن تتركني في حيرتي و تنصرف فهممت أن أمسك بها لأمنعها، ثم انتبهت أن هذا لا يليق، فقلت مستعظفاً: أرجوك لا تذهبي. ما زال لدي سؤال. إذا كان هذا ما أراه أنا، فماذا ترين أنت؟ ألا تريدين للأجنة أن تولد؟

قالت: بلى أريدها أن تولد و لكن لكي تعود.

قلت: إلى أين؟

نظرت إلى نظرة من يتعجب من غبائي ثم قالت: إلى الجنة.

استدارت المرأة و أخذت في الابتعاد، و لم استطع أن أمنعها هذه المرة، لم يسعفني ذهني بحيلة، أقصى ما استطعته أن أصبح قائلاً بعدما ابتعدت بضعة أمتار: سيدي. هل يمكنني أن أعرف اسمك؟

التفتت بوجهها الذي يجمع بين الصرامة و الطيبة و قالت: رحيمة.

صحت مرة أخرى و هي تبعد: ستجدين القارب جاهزاً غداً في نفس الموعد يا سيدة رحيمة.

بمجرد أن غابت عن نظري انطلقت إلى مسكني لأحضر أدواتي ثم شرعت في إصلاح القارب، كنت أشعر بنوع من

الهمة و الحماس فارقني منذ عقود، و كنت سعيداً لا أعرف
لماذا تحديداً، و لكن على الأقل لم أعد أشعر بالملل و الرتابة، و
وجدتني استخدم المطرقة في تثبيت الألواح كمن يعزف مقطوعة
موسيقية، و وجدت أنني كلما تناثرت حبات العرق على جبیني
و جذعي تناثرت معها العديد من الأفكار و المشاعر السلبية التي
كانت تعشعش في رأسي أو تسكن في صدري، فأخذت تغادر كياني
و تسبح مبتعدة عني في الأثير من حولي..)

طوت «حورية» الورقات و أعادتها إلى الصندوق و هي تخاطب
جدها بصوت مسموع قائلة: حيرت قلبي معك يا جدي! هل
تبحث عن الحرية أم عن السعادة أم عن المغامرة؟ ثم وضعت
رأسها على الوسادة و استسلمت للنوم، ذلك البرزخ بين الماضي
و المستقبل، حيث يمكنها أن ترى من ذا و ذاك، فهي قبل النوم
كانت بالأمس و بعده ستصبح في الغد، فرأت أنها حبيسة في مكان
مظلم إلا من ضوء خافت لا تدري ما مصدره، صاحت تنادي
من يساعدها فلم تجد من يسمعها، تحسست طريقها نحو الباب
و أخذت تطرقه بيديها فلم تجد من يجيبها، و عندما يئست أن
يأتيها العون من الخارج نظرت إلى الداخل فوجدت حجراً يزيد
عن حجم قبضة اليد ملقى على بعد خطوات منها، تحركت
نحوه و التقطته ثم عادت إلى الباب على أمل أن تتمكن من ثقبه
أو كسره، و بدأت ضرباتها تتوالى حتى أصابها الإجهاد و انحدر
على جبينها العرق، ثم سمعت صوتاً يوحي بقرب انهيار الباب
فازداد حماسها، و لكن فجأة أضاءت الغرفة بضوء النهار فالتفتت
تتفقد المكان فوجدت أن الغرفة محاطة بالجدر من ثلاث جهات
فقط أما الجهة المقابلة للباب فمفتوحة و تطل على غابة من

النباتات يتوسطها جبل في منظر بديع، فانطلقت تركض بسرعتها القصوى تجاه الغابة، حتى لم يبق بينها وبين النجاة إلا بضعة أمتار سمعت صوتاً مألوفاً لديها يحذرهما، كان صوت جدّها وهو يقول: احذري يا «حورية»، احذري وتذكري ما حل بطيرك، ربما قادتك الحرية الزائفة إلى حتفك. في التو مر بخيالها مشهد الطائر وهو يصطدم بالنافذة فيلقى مصرعه، لم تتوقف عن الركض لكنها ألقت بالحجر الذي كان لا يزال بقبضتها نحو الغابة بأقصى قوتها، فإذا به يصطدم بالجدار الزجاجي المضاد للكسر ويرتد بعنف تجاه وجهها، فرفعت يدها تحتمي بها، ثم استيقظت لاهثة.

*** **

التقى الطلاب في إحدى ساحات الجامعة و جلسوا يرتبون أمورهم قبل الرحلة ببضعة أيام وهم يحتسون بعض المشروبات الساخنة، قال «ماجد»: لماذا وقع اختيار الدكتور على هذا المكان في ظنكم؟

«عادل»: غابة الجبل تبعد عن العاصمة مسيرة يوم بالسيارة، وهي منطقة نائية كانت فيما مضى مصدر جذب سياحي لجمال الطبيعة فيها، أما الآن فقليل من يذهبون إليها خاصة في هذا الوقت من العام، أي في الشتاء.

«ماجد»: يقال أن سبب انصراف الناس عنها، وقوع عدة حوادث اختفاء بسبب المتاهات، فجبل الغابة يمتاز بالعديد من الممرات داخله التي تغري المغامرين بمحاولة الوصول إلى الجانب الآخر من الغابة عبر الجبل، فلا يصلون ولا يعودون ولكن يتيهون.

«ماهر»: كل هذه مجرد إشاعات و حكايات كنا نسمعها من أمهاتنا و جداتنا، ربما حدثت واقعة ما منذ بضعة عقود، و أحسب أنه لا يمكن تكرارها الآن مع تقدم وسائل البحث و الاتصال.

«عاصم»: ألم تسمع تحذير الدكتور «هانئ» بأن المنطقة خارج نطاق التغطية و أن الهواتف الحديثة لا جدوى منها هناك؟

«ماهر»: إذا كانت الخطورة تكمن في المسالك داخل الجبل فنحن قطعاً لن نسلكها، فهي ليست رحلة مغامرة و استكشاف و إنما المفترض أنها رحلة تساعد على دراسة علم الاجتماع.

«عاطف»: أجل و معنا خرائط واضحة للطرق المؤدية للجانب الآخر من خلال الممرات الممهدة بين ثنايا الجبل لا داخله.

«عاصم»: لكن لا يزال السؤال قائماً، لماذا هذا المكان بعينه؟

«ماهر»: هذا السؤال لا طائل من ورائه، لأنه سيظل مطروحاً مع كل مكان آخر.

«عادل»: صحيح و لكن في كل الحالات من الأهمية بمكان أن نكون على بصيرة من أمرنا.

«ماهر»: لماذا لا تسألون الدكتور و تريجون أدمغتكم؟

«ماجد»: قد فعلت.

نظروا إليه نظرات تجمع بين الغيظ و الاستنكار ثم قالوا:

- يا لك من مستفز!

- يعني حصلت على الإجابة ثم جئت تمتحننا!

- و لماذا جعلتنا نضرب الأخماس في الأسداس؟

- ثم تركتنا نقع في حيص بيص؟

«ماجد»: رويدكم. نعم سألته و لكن لم تقنعني إجابته و لذلك أحلت السؤال إليكم في أول الجلسة.

«عاصم»: و ماذا كانت إجابته؟

«ماجد»: قال إن المكان مألوف بالنسبة له لأنه تردد عليه عدة مرات منذ الصغر، و أنه مناسب للمواقف التي يعدها لنا كحافز للتفكير و دافع للدراسة، كما أن عدم وجود رواد في هذا الوقت من العام سيمنع عنا التشويش و يعطينا المزيد من الحرية.

«ماهر»: أجدها إجابة مقنعة.

«عاطف»: و أنا كذلك.

«عاصم»: حتى لو لم تكن مقنعة، فكما يقولون الماء سيكذب الغطاس، دعونا نخوض التجربة ثم نعيد التقويم لمدى مناسبة المكان للرحلة و الهدف منها.

«عادل»: لا بأس و لننتقل الآن للتجهيزات، أنا لدي خيمة تكفي لخمسة أشخاص.

«ماجد»: حسناً ما دتم كلكم مقدمون فلن أحجم، يمكننا أن نستقل سيارتي الجيب فهي مناسبة تماماً لتلك الرحلة، و نتناوب القيادة خلال الطريق.

«ماهر»: و أنا سأوفر لكم ما طلبه الدكتور في الرسائل التي أرسلها إلينا من المصاييح الكهربائية المخزنة للطاقة و الحبال و غيرها.

«عاطف» و هو يشير إلى بطنه مبتهجاً: و أنا علي التموين من الماء و العصائر و الغذاء.

«عاصم»: أظن أنه لم يعد ينقصنا شيء سوى أن يعد كل واحد منا حقيبته الشخصية و حذاءه الرياضي، لكن إذا تذكرتم أي شيء قد تحتاجونه فأنا على استعداد أن أوفره لكم.

*** **

قال والد حورية بحزم: لا أوافق.

«حورية» باستعطاف: و لم؟

«الأب»: المكان بعيد و لا توجد جهة إشراف رسمية على الرحلة، إنما هي اجتهد أحد الأساتذة عندكم.

«حورية»: يا أبتى نحن جميعاً في سنة التخرج و قد قاربنا سن الرشد أو جاوزناه.

«الأب»: المسألة ليست بالسن، فالمسافرون بحراً و جواً مهمها كانت أعمارهم، الجهة أو الشركة التي تنقلهم مسئولة عن أمنهم و سلامتهم و تخضع لمعايير دولية و إذا قصرت تتم محاسبتها، أين تجدین هذا في رحلتكم المزعومة.

«حورية»: نحن لن نركب البحر و لن نطير في الجو، هي مجرد رحلة برية مثلها مثل أي رحلة تقوم بها عائلة أو مجموعة من

الأصدقاء للاصطياف أو السياحة، هل هذه أيضاً تحتاج جهة إشراف رسمية؟

«الأب»: لا تجادلي.

لم تستسلم «حورية» وقررت أن تلقي بورقتها الراحبة، فقالت: وإذا كان سيصبحنا في هذه الرحلة شخص أنت تعرفه وتثق فيه؟

«الأب»: من هذا الشخص؟

«حورية»: الدكتور هانى سعيد.

«الأب» وقد أخذت ثلوج حزمه في الذوبان: هانى شخصية محترمة، أعرفه منذ صغره فوالده من أعز أصدقائي، ثم أضاف بنظرة ذات مغزى: وأعلم أنه لن يدخر وسعاً في حمايتك حتى لو ضحى بنفسه من أجلك.

«حورية» وهي تقاوم وصول حمرة الحياء من قلبها إلى وجنتيها: أفهم من ذلك أنك توافق؟

«الأب» وهو يبطئ في الإجابة متعمداً ليطيل انتظارها: قد.. قد أوافق.

قبلت «حورية» رأس أبيها وانصرفت بسرعة قبل أن يعيد التفكير وهي تقول: شكراً يا أبي. شكراً جزيلاً.

«الأب» مداعباً: انتظري أنا قلت قد. قد فقط. ولكنها كانت قد اختفت.

*** **

لحقت «حورية» بصديقاتها المجتمعات في بيت «سارة»، و دخلت عليهن وهي تشير بعلامة النصر و تقول: لقد نجحت في الحصول على الموافقة، فهل حصلتن عليها أيضاً؟

«حنان»: بشق الأنفس.

«جميلة»: نعم بشيء من الجهد.

«سارة»: أما أنا فلم أجد مشقة في ذلك.

«ليلي»: وأنا استخدمت طريقة الإلحاح على الأذان أمر من السحر.

«حورية»: يعني كل شيء على ما يرام.

«جميلة»: كيف سنسافر؟

«حنان»: يبدو أنك لم تقرئي رسالة الدكتور حازم الأخيرة.

«جميلة»: بالفعل فقد نسيت هاتفني بالمنزل، ماذا كتب فيها؟

«سارة»: ذكر أن لديه سيارة ملحق بها مقطورة مجهزة بكل ما قد نحتاجه في الرحلة ما عدا الطعام و الشراب يمكننا استخدامها، و سيتناوب القيادة مع الدكتور «هانئ»، أما الطلاب فسيستقلون سيارة «ماجد» الجيب.

«ليلي»: هذا رائع. ستكون رحلة مريحة، كأننا سنسافر في غرفة من غرف المنزل.

«حنان»: صحيح. الطريق طويل و من الأفضل أن نكون في مكان مغلق لنكون على راحتنا.

«جميلة»: مسألة الطعام و الشراب هينة يمكنني تدبيرها.

«ليلي»: ما يشغلني هو كيف سيوظف الدكتور «لييب» هذه الرحلة في دراسة قضية الحرية؟

«سارة»: ربما من خلال مراقبة و مناقشة سلوك بعض الحيوانات في المواقف المختلفة، فهذه المنطقة مشهورة بالغزلان و الأرناب.

«حنان»: ستكون رحلة صيد إذن.

«حورية»: لا يوجد مثل الطيور في عشقها للحرية.

«جميلة»: ما يهمني الرحلة ذاتها لا ما فيها من التجارب، فأنا بحاجة لتغيير الجو.

«ليلي» مازحة: المهم أن يكتفي الدكتور العبقري بالتجارب على الحيوانات لا أن يحولنا نحن إلى حيوانات تجارب.

عادت «حورية» إلى منزلها بُعيد العصر و كان الجو دافئاً رغم الشتاء، فشعرتُ بأن القراءة تناديها، فلبت النداء و أخذت مذكرات جدها و جلست تطالعها في الشرفة مع كوب من الشاي الساخن:

(..مرت ستة أشهر على حادثة القارب، و عادت السيدة رحيمة إلى عاداتها و برنامجها، و عدت إلى مجلسي على الصخرة و مراقبتها، لم أتكلم معها طويلاً و لكنني تعلمت منها كثيراً، و كان الصيد من ضمن ما تعلمته منها أو بسببها لأكون أدق و أضبط،

لم تكن لدي رغبة في الأسماك بقدر رغبتني في رمي الشباك، و معالجة الصبر و الترقب، و كانت وسيلتي في التعلم المشاهدة عن بعد و لذلك ربما لم أحقق نتائجاً عظيمة، و لكنني تمكنت من خلال ممارسة الصيد أن ألحظ المفارقة بين رؤيتي و رؤية السيدة رحيمة للأمور، فمن وجهة نظري كان الصيد تجسيداً للوقوع في الأسر و فقدان الحرية، و من وجهة نظرها كان تكريساً للتحرر في أوضح صورته، أليس هو بالنسبة للسمك الخروج من ماء البحيرة المحدود إلى الفضاء اللامحدود؟ يعني حياة الكائنات في بيئتها، على أرضها و تحت سمائها، صورة من صور الحرية أم العبودية؟ إذا نظرنا إلى رحلتي من وجهة نظر السيدة رحيمة فهي أنا قد تحررت و هذا ما أدعيه، و إذا نظرنا لها من وجهة نظري فمعنى هذا أنني قد وقعت أسيراً في قرية الحرية و هذا ما أنفيه، لقد جعلتني السيدة رحيمة أشعر بما أنا فيه من التناقض، فأنا أرى أن مغادرة الأسماك لموطنها وقوع في الأسر بينما مغادرتي أنا لموطني انطلاق نحو الحرية!

سألتني مرة: لماذا غادرت؟

صحيح، لماذا غادرت؟ لماذا تركتُ ما تركتُ؟ لماذا جئتُ إلى هنا و ماذا أدركتُ؟ و هل وجدتُ ما طلبتُ؟ تذكرتُ قولها عن ابنها: (المأفون يبحث عن الحرية)، فاستحييت أن أجيبها إجابة مباشرة، فقلت لها: هناك شيء ينقصني، أبحث عنه و أطلبه.

قالت: ما تظن أنه ينقصك إنما ينقصك نقيضه، و ما تبحث عنه بالسفر إلى الخارج لن تجده إلا بالسفر إلى الداخل، و ما تطلبه أمامك .

يبدو أنها لم تكتفِ بإشعاري بالتناقض فأجبت أن تشعرني بالغيرة، فنظرت لها نظرة تجمع بين البلاهة والاستفسار وقلت: ماذا تقصدين؟

قالت: أتنتصت إذا حكيت لك حكاية؟

قلت: بالطبع.

قالت: كان هناك رجل من العابثين اللاهين غير الآبهين لشيء، وفي ليلة كان يلهو مع رفاقه يشربون ويمرحون، فمرَّ بهم رجل صالح، فدقَّ الباب، فخرجت إليه جارية، فقال لها: صاحب الدار حرٌّ أم عبد؟ قالت: بل حرٌّ، قال: صدقت، لو كان عبداً لاستعمل أدب العبودية، فسَمِعَ الرجل مُحاورتهما، فسارع إلى الباب حافياً حاسراً، وقد ولى الرَّجُل الصالح، فقال للجارية: ويحك! من كلمك وماذا قال لك؟ فأخبرته بما جرى، فقال: أي ناحية أخذَ هذا الرَّجُل؟ قالت: كذا، فتبعه حتى لحقه، فقال له: يا سيدي أنت الذي دققت الباب وخاطبت الجارية؟ قال: نعم، قال: أعد عليَّ الكلام، فأعاده عليه فمرَّغَ خديه على الأرض و قال: بل عبد! بل عبد! ثم هام على وجهه حافياً حاسراً، حتى عُرفَ بالحفاء ف قيل له: لم لا تلبسُ نعلًا، قال: لأنِّي ما صالحني مولاي إلا وأنا حافٍ فلا أزول عن هذه الحالة حتى الممات.

أدركتُ ما رميتُ إليه لكنني لم أوافقها عليه، نعم، ما قالته كان صحيحاً في جملته لكنه لا ينطبق على حالتي، مشكلة السائرين و السالكين و المسافرين و الراحلين تكمن في تداخلات و تشابكات و تقاطعات محطات السير و مقامات السلوك و مسافات السفر و اتجاهات الرحلات، فما يقع على يمين أحدهم قد يقع على شمال

الآخر، و ما يكون أمام بعضهم قد يكون وراء البعض الآخر،
و من يسلك طريق الحرية قد يتجاوز طريق الرضا، و من يسير
نحو الرحمة قد يصطدم بالعدل، و من يتجه نحو المحبة قد
يتعثر في الأدب.

مضت الأيام على نفس الوتيرة، تغيب يومين ثم تشرق في
الثالث السيدة رحيمة، لكن دوام الحال من المحال، ففي يوم
جاء الموعد و لم تأت هي، انتظرت و ترقبت و تمنيت لكن لم يأت
المنتظر و لم يظهر المرتقب و لم تتحقق الأمنية، و في اليوم التالي
عاودت الكرة فلم تعد، شعرت بالقلق و ضاعفه معرفتي أنها
تأكل رزقها يوماً بيوم، و تذكرت قولها: (يوم بلا طعام لا يتعب
بدناً و لا يقرب أجلاً)، و الآن مريومان مما يعني انتهاء صلاحية
مقولتها، و ضرورة الاطمئنان على حالتها.

كانت القرية مكونة من حيين كبيرين: الحي الشرقي و الحي
الغربي، توجهت إلى سوق الحي الشرقي أولاً و سألت عنها، و
بعد قليل من الجهد وصلت إلى مسكنها، فالناس في القرى يعرفون
بعضهم بعضاً و كان تقدمي في العمر و سمعتي الحسنة عندهم
بعد فترة طويلة من الإقامة بين ظهرا نهم طاردة للريبة عني،
لم استطع طرق الباب لأنني أعلم أنها لا عائلة لها، فتجولت
حول المنزل استفسر من الجيران فأخبروني أنها لم تظهر منذ ثلاثة
أيام و أغلب الظن أنها في بيتها الثاني في الحي الغربي، فهنا منزل
والدها رحمه الله و هناك بيت زوجها رحمه الله، و هي تقيم هنا
أحياناً و تستقر هناك أحياناً أخرى، فكررت المحاولة في سوق
الحي الغربي، فوصلت إلى نفس النتيجة، و جاءني نفس الجواب،

كل حي يزعم أنها في الحي الآخر، أهل الشرق يحسبونها قد غرّبت و أهل الغرب يظنونها قد شرّقت، أخبرتهم أنني جئت لتوي من الحي الشرقي و أنها ليست هناك و طلبت منهم التأكد من وجودها بيبتها، فانطلقت معي عائلة من جيرانها و بدأوا يطرقون بابها و ينادون اسمها لكن لا الباب فتح و لا النداء سمع، حاولت أن أفنعهم بالدخول فربما أصابها مكره، فرفضوا بشدة أن يقتحموا على السيدة رحيمة دارها في غيابها، وعندما جادلتهم سألوني: هل طرقت بابها في الحي الشرقي؟ هل تأكدت من عدم وجودها؟ فقلت: لا.

قالوا: إذن عد من حيث أتيت و تأكد من عدم وجودها قبل أن تطالبنا باقتحام دارها.

كان منطقهم محكماً ففعلت ما أمروني به، و تكرر الموقف على الجانب الشرقي، فلم تفتح الباب و لم تسمع النداء، تصاعد توتري و ازددت تعصباً كلما تعنتوا في إجابة مطلبي، فقد كانوا يرون أن دخول الدار عنوة كبيرة الكبائر، لكنني كنت متيقن من وجودها في أحد الدارين، فطالما لم تذهب للصيد و لم تظهر في السوق فأين يمكن أن تكون؟

تخطيت الجيران و توجهت نحو الباب الخشبي و انهلت عليه بقبضتي و قدمي، فسارع جارها ليمنعني خشية أن ينكسر الباب و جذبني إلى الخلف ليبعدني، تراجعت عدة خطوات فوقع نظري على حجر كبير نسبياً ملقى على الأرض، فالتقطته و رميت به نحو الباب بقوة فأحدث ضجة عالية، غضب الجار غضباً شديداً و تقدم نحوي مسرعاً حتى ظننت أنه سيفتك بي لولا

أننا سمعنا صوت وعاء أو إناء يكسر داخل البيت، عندها فقط اقتنع الجيران أنني على حق، وبدلاً من أن يهاجمني الرجل تجاوزني و انطلق إلى بيته المجاور للسيدة رحيمة و عاد مسرعاً معه معوله فضرب به الباب ضربة واحدة ففتحه، انتظرت أنا و الرجل و دخلت زوجته و ابنتها، لحظات و عادت المرأة بوجه يعلوه الفزع و طلبت منا إحضار الطبيب و أخبرتنا أنها ستقوم بعمل ما في وسعها بمساعدة ابنتها حين وصول الطبيب.

عدنا و معنا الطبيب، فرافقته الجارة إلى حجرة السيدة رحيمة، و بقيت أنا و زوجها في الصالة، كان بيت السيدة رحيمة عبارة عن غرفتين، الغرفة التي تقيم فيها، و غرفة مغلقة استتجت أنها تخص والديها رحمهما الله، و الصالة التي جلسنا ننتظر فيها الطبيب، كانت الصالة بلا أثاث تقريباً، مجرد سجادة أنيقة نظيفة و بعض الوسائد حولها للجلوس، و في زاويتها قطعة من الخشب المزخرف على شكل قوس ارتفاعه متر واحد يبدو أنه محراب للصلاة، و في الجانب الأيمن من المحراب طاولة صغيرة عليها صندوق خشبي بديع الصنع على شكل جزء من جذع شجرة طوله يزيد عن الشبر قليلاً و عرضه و ارتفاعه يقل كل منهما عن الشبر قليلاً.

خرج الطبيب و أخبرنا أنها تعاني من الحمى بسبب الالتهاب الرئوي و كونها لم تذق طعاماً منذ ثلاثة أيام قد زاد من وطأة المرض عليها، ثم أصدر لنا التعليمات و التوجيهات التي أخذنا في تنفيذها على الفور، فبدأت البتتان في نقل كل ما يمكن أن تحتاجه السيدة رحيمة من بيتهما إلى بيتها، و ذهبت أنا مع

الأب لشراء الأدوية و الأعشاب المطلوبة، و في الطريق اعتذرت لي الرجل و اعتذرت له، و صدقنا فتصادقنا، و كان يشعر بالذنب تجاه تفريطه في حق جارته و يؤكد لي أنهم كانوا يظنونها في بيتها في الحي الغربي، و أنها المرة الأولى التي يصيها فيها الممرض منذ سفر ابنها، و كنت أحاول أهون عليه لما شعرت به من صدقه، و تناوبنا على خدمة السيدة رحيمة طوال الأسبوعين التاليين، كنت في كل زيارة أحضر معي شيئاً من الأطعمة و الفواكه و كل ما من شأنه أن يساعد السيدة رحيمة في مرضها و أن يخفف المؤنة عن جيرانها، فهم لم يكونوا من الأغنياء و لكنهم كانوا من الأسخياء.

بعد مرور الأسبوعين تماثلت السيدة رحيمة للشفاء و أخذت تسترد عافيتها فأذنت لي في زيارتها، دخلت برفقة جارتها السيدة حليلة فوجدت حجرتها أيضاً خالية من الأثاث إلا بعض الوسائد و صندوق أحسب أنه للملابس و سجادة كبيرة على جزء منها قماش محشو بالقطن تستخدمه كسرير لها، و على يمينها طاولة خشبية صغيرة عليها جرة ماء، جلست السيدة رحيمة و عليها غطاء من الصوف على سريرها و جلست بجانبها جارتها السيدة حليلة، بينما جلست أنا على وسادة في الجهة المقابلة لها و قلت: حمداً لله على سلامتك.

قالت: شكراً لك للمرة الثانية.

قلت: في خدمتك يا سيدة رحيمة.

قالت جارتها السيدة حليلة: كانت تسمع ندائنا و طرقتنا على الباب لكن لم تكن تستطيع الحركة أو الصياح.

أضافت السيدة رحيمة: أجل. حتى قذفت بالحجر على الباب
و أحدث تلك الجلبة العالية، فانتبهت بعدما كاد أن يغمى علي،
و شعرت أنها فرصتي الأخيرة للنجاة فاستجمعت ما بقي من
قوتي و أطحت بجرة الماء القديمة من على الطاولة فانكسرت.

قلت: أما زلت تصرين أنك في غنى عن ابنك؟

قالت بإصرار: بلى. ما كان وجوده ليمنع موتي كما لم يمنع
غيابه نجاتي.

قلت: كعهدك تتكلمين بمنطق غير منطقي.

أطرقت برهة ثم رفعت رأسها ببطء و سألتني: هب أنني
أخبرتكم بحاجتي إليه، ماذا أنت صانع؟

قلت بأكبر قدر من الصدق شعرت به في حياتي: أسافر إليه
و أحضره إليك.

نظرت إلي نظرة لم ولن أنسها، ثم قالت: إذا احتجت إليه
سأبلغك...

طوت «حورية» مذكرات جدها و هي تقول: يالك من
فارس نبيل أيها الجد! يبدو أنك ستضيف لبحثك عن الحرية
البحث عن الابن الضال للسيدة رحيمة.

*** **

A decorative flourish consisting of a large, elegant, black scroll-like shape that curves around the text. It features intricate, swirling patterns and small leaf-like details, particularly on the left side.

الفصل الثاني

المصيدة

قبيل الرحلة المرتقبة بعدة أيام كانت هناك أشياء ما، تحدث في المكان بفعل شخص أو أشخاص ما، لتعد الموقع لأحداث ما، تماماً كما يقوم المخرج و معاونوه بإعداد المسرح للعرض المنتظر، فترى أجهزة يتم تركيبها في أماكن محددة بحيث لا تظهر للجمهور، و ترى أدوات تظهر و تختفي، و ترى أشياء تنتقل من هنا و هناك، و من ضمن ما ترى أيضاً صخرة كبيرة على رأس منحدر يبعد عشرة أمتار من فتحة أحد الكهوف بالجبل، بحيث لو انحدرت لسدت تلك الفتحة، و لا يمنعها من الانحدار سوى حجر كبير مثبت في قاعدتها، و إذا دقت النظر و كنت ذا بصيرة أدركت أن هذا الحجر مربوط بحبل غليظ مدفون تحت التراب و متصل بيد رافعة حديدية من الطرف الآخر مخفية أو قل مخفاة بين الأشجار، و لا يتطلب الأمر سوى جذبها ليزول الحجر و تنحدر الصخرة، و هكذا لم تعد «غابة الجبل» مكاناً طبيعياً خالصاً و إنما مزيج بعضه طبيعي خالص و بعضه اصطناعي بامتياز.

*** **

انطلقت السيارتان تنهبان الطريق إلى غابة الجبل، سيارة الدكتور «ليب» تجر المقطورة و بداخلها الطالبات، و سيارة «ماجد» و معه أصدقاؤه من الطلاب، و الجميع يتسامرون و يمرحون.

كان الدكتور «ليب» يقود السيارة و بجانبه الدكتور «هانئ» الذي بدأ الحديث قائلاً: ما خطتك للرحلة يا دكتور؟

«ليب»: حوارات سقراط. فالغرض إعطاء أكبر فرصة ممكنة للتفكير و النقاش ليصل الطلاب إلى قناعاتهم بأنفسهم دون ضغط الوقت و المنهج كما في قاعة المحاضرات.

«هانئ»: و هل هذا الغرض يستلزم قطع مئات الأميال إلى غابة الجبل لتحقيقه؟

«ليب»: دور غابة الجبل في الخطة مجرد توفير المناخ الملائم للانطلاق في التفكير و التحرر من البيئة الاجتماعية المغلقة و الحياة المدنية الجافة، فهي مجرد عامل محفز ليس إلا.

«هانئ»: فأين كلام حضرتك عن دراسة الحرية من خلال التجربة العملية؟

«ليب»: الرحلة في ذاتها تجربة على كل حال.

استعاد «هانئ» الحوار السابق بينه و بين «ليب» و حديث الأخير عن طرفي النقيض للحرية، فقال: و أين السجن أو الفوضى في تلك الرحلة؟

ضاقت عينا «ليب» و هو يجيب بقوله: المقصود من حديثي عن السجن أو الفوضى كان المعنى الفلسفي، أما إذا أردت المعنى المادي، فيمكننا عندما نصل إلى بقعة بعيدة مهجورة من الغابة الشاسعة أن نفرغ وقود السيارتين دون أن ينتبه الطلاب، عندها ستتحول الغابة إلى سجن لنا جميعاً، ووقتها يمكن لكل منا أن يعلم قيمة الحرية عنده و كم يمكنه أن يدفع لينالها؟ و هل تستحق بالفعل أن يدفع لها؟

اتسعت عينا «هانئ» و هو يقول: أهذا ما تنوي عمله فعلاً؟

اختلس «لييب» نظرة إلى وجه «هانئ» ثم عاد للنظر إلى الطريق و هو يقول: لو كان الرد بالإيجاب، أكنت توافقني؟ و بالمناسبة لا يوجد هنا خطر حقيقي وإنما خطر موهوم و مع ذلك محسوب.

«هانئ»: بالطبع! فيما أنك ستفرغ الوقود لا بد أنك ستحتفظ بوقود احتياطي في مكان ما لا يعلمه غيرك، لتصبح وحدك من يمتلك تحرير البشر، فأنت من يملك مفتاح سجن الغابة، إن شئت أغلقته و إن شئت فتحتة، لست أدري لماذا يصر بعض الناس على القيام بدور الإله و يجدون متعتهم في ذلك!

«لييب» دون أن يستفزه رد «هانئ»: ليس الأمر كما تقول، صحيح سيكون لدي حل للمعضلة و إلا لتعرضنا جميعاً للهلاك، و لكن ليس من باب القيام بدور الإله و إنما من باب أن كل تجربة لا بد لها من ضابط يحدد نقطة البداية و نقطة النهاية، و لذلك أخبرتك أن المخاطرة هنا محسوبة و لا يوجد خطر حقيقي على الطلبة.

«هانئ»: هذا ما تظنه، هل يمكنك أن تخبرني عند أي نقطة ستطلق صافرة نهاية التجربة؟ عندما تنهار أعصاب الطلاب؟ أم عندما تظهر أخلاق الأزمات و يبدأ بعضهم في قتال بعض على الماء أو الغذاء أو أي ضرورة من ضرورات الحياة؟

«لييب» بشيء من العناد: لن أدع الأمور تصل إلى هذه الدرجة.

«هانئ» بشيء من الحدة: بالطبع فأنت ترى أن مقاليد الأمور بيدك، وكل شيء تحت سيطرتك، هل تظن أن الطلاب سيسامحونك على شيء كهذا؟ هل تظن أنهم لن يقاضوك؟

«لييب» محاولاً تهدئة النقاش: أرجو أن تهدأ، لاحظ أننا نناقش مجرد فرضية، أنا لم أفعل شيئاً بعد، ولو كنت سأفعل لما أخبرتك. والآن دعني أجب عن سؤالك فأقول: الطلاب لن يسامحوني بل سيشكروني، ما سيتعلمونه في أيام معدودات في هذه الرحلة قد لا يتعلمون مثله في سنوات، والعلم لا يكون بلا ثمن، أما عن ملاحظتهم لي قضائياً فلا أظنهم يفعلون، وكيف يفعلون وأنا لم أجبرهم على شيء، وكلهم راشدون وقد أقروا في المحاضرة الأخيرة - وهي مسجلة كما تعلم - بأنهم موافقون على رحلة يتعرضون فيها لمواقف تدفعهم للتفكير والبحث في مسألة الحرية.

«هانئ»: عذرك الوحيد بالفعل إنها مجرد فرضية، لكن تأكد أنك إذا فكرت في تحويلها إلى واقع سأمنعك.

«لييب» بشيء من السخرية: لو أردتُ لما استطعتُ منعي، ثم عاد إلى الجد قائلاً: أليس لديك أي شغفٍ علمي؟ ألا تريد حتى من باب الفضول أن تتوقع كيف سيكون رد فعل الطلبة أمام هذا الموقف؟ وكيف سيفكر فيه كل منهم؟ وكيف سيعالجونه؟

«هانئ»: لدي من الفضول والشغف العلمي ما يكفي، لكن أيضاً لدي من القيم ما يحول دون معاملة البشر كحيوانات تجارب.

صاحت «ليلي»: هذه المقطورة رائعة.

«جميلة»: نعم أريكة مريحة تتحول إلى سرير عند الحاجة، و مقاعد وثيرة، و أدوات لصنع المشروبات الساخنة، ثلاجة مليئة بما لذ وطاب.

«حنان»: أهذا ما لفت نظرك، و لم يلفته وجود مكتبة صوتية بجانب مكتبة الكتب، بها محاضرات مسجلة للدكتور «لييب» و آخرين؟

«حورية»: كل يغني على ليله، هناك أيضاً أدوات للصيد لو لاحظتن.

«سارة»: و لكن من أين له هذا؟ هذه السيارة و المقطورة الملحقة بها قيمتها مرتفعة جداً.

«ليلي»: ما أعلمه أن عائلة الدكتور «لييب» عائلة ثرية تعمل في مجال المقاولات و تنفذ مشاريع عملاقة، و بالتالي امتلاكه لمثل هذه السيارة ليس بالأمر المستغرب.

«جميلة»: حقاً!

«حورية»: أجل. هذا ما أعرفه أيضاً.

«سارة»: و كيف سنمضي وقتنا حتى نصل إلى غابة الجبل، فالطريق طويل طويل.

«ليلي»: أنا سأستلقي على هذه الأريكة المريحة و أضع السماعات لاستمتع إلى الموسيقى.

«جميلة»: و أنا سأستخدم الحاسوب المحمول.

«حنان»: و انا سأجلس على هذا الكرسي الوثير أراقب جريان الأشجار على الطريق، هذه هوايتي.

«حورية»: أما أنا فأجدها فرصة رائعة لأكمل القراءة في مذكرات جدي.

«سارة»: أما زال جدك العزيز يطارد السراب؟

«حورية» باسمه: لا تحكمي بغير علم، لو قرأت ما كتب لتغير رأيك.

«سارة» و هي تمديدها للأوراق: هاتها إذن.

«حورية» و هي تبعتها عنها: كان غيرك أمهر منك، إن أعطيتك المذكرات فماذا أقرأ أنا؟

«سارة» بتهكم: حورية أيتها الذكية! أعطني ما قرأته منها.

«حورية»: نعم، هذا حل لا بأس به.

قسمت «حورية» الأوراق و أعطت ما قرأته لصديقتها و جلست هي في استرخاء لقراءة ما تبقى.

*** **

(... ها قد مضى عامان لي في قرية الحرية، و ثلاثة أعوام منذ غادرت بلدي و بدأت رحلتي، في البداية شعرت أنني حققت ما قصدت و أنجزت ما أردت، و لكن عندما استقرت الأمور و هدأت الأحوال و طال بي المقام في القرية أدركت أنني عدت إلى

ما كنت عليه، و أن حياتي هنا لا تختلف كثيراً عن حياتي هناك، و أن ما شعرت به في النصف الأول من رحلتي كان ناتجاً عن التغيير في الوجود لا عن تحقق المقصود، أو إن شئت قلت ناتجاً عن تغير مفردات الحياة اليومية لا عن تحقق الأمنيات و الأحلام الوردية، فلا أجد فارقاً ملحوظاً بين مقدار الحرية الذي أنعم به الآن في بلدة الحرية و بين كم الحرية الذي كنت أنعم به في بلدي الأصلية، و الواجبات و المسؤوليات التي تحررت منها بالأمس اكتشفت أنني استبدلتها بغيرها اليوم، يبدو أن الإنسان لا يستطيع أن يحيا بلا قيود، كل ما في الأمر أنه إذا قيد نفسه بإرادته لم يشعر أن ذلك ينتقص من حريته، أما إذا قيد نفسه مكرهاً أو قيده غيره رغماً عنه شعر بوحشة السجن و قسوة القيد و وطأة العبودية.

و هكذا أدركت أن السبيل هو الاستمرار في الرحيل، فالمزيد من الارتحال يعني المزيد من الحرية، وهذا هو الفارق بين النهر الجاري و الماء الراكد، و لهذا السبب تدور الأفلاك و تتعدد المشارق و المغارب و لا تتوقف الأنفاس إلا بموت النفوس، فمع السفر و الترحال تتجدد الأشخاص و الأنفاس و المشاعر و الأحداث و المقاصد و الغايات و التجارب و الخبرات و الموجودات و المفقودات، لكن إلى أين الرحيل؟ و في أي اتجاه يكون المسير؟ و كيف السبيل؟ و كيف سأترك السيدة «رحيمة» في غياب ولدها بلا سند و لا ظهير؟ تدفعني نفسي التواقة إلى المسير و يجذبني ضميري إلى البقاء في القرية حتى حين.

جلست كعادتي على الصخرة المطلة على البحيرة و لكن في غير الموعد الذي اعتدت الجلوس فيه، و الغريب أن السيدة «رحيمة»

أيضاً أتت في غير الموعد الذي اعتادت المجيء فيه، توجهت
نحوي مباشرة، فلما وصلت قالت:

- سلاماً أيها الشيخ الغريب.

- سلام يا سيدة رحيمة.

- ما الذي أخرجك من بيتك في هذه الساعة؟

- الحيرة و التفكير.

- وأنا أخرجني الذي أخرجك.

- وما يُحيرك يا سيدة رحيمة؟

- ولدي.

هززت رأسي متفهماً و قلت: نعم. كان الله في العون.

ثم لاحظت أنها تحمل الصندوق الخشبي البديع الصنع الذي
رأيت في بيتها يوم مرضها، فأشرت إليه و قلت:

- يبدو أن لهذا الصندوق شأنًا.

- هذا الصندوق هو أثمن ما أملك.

- من أين حصلت عليه؟

- صنعه جدي رحمه الله، نحته من جذع شجرة دون أن يغير
من صورته الأصلية، فقد كان نجاراً.

- يبدو أنه كان فناناً أيضاً، هل لي أن أسألك عن محتواه؟

فتحت السيدة «رحيمة» الصندوق فرأيت فيه ثلاث قطع من الجلد، صغيرة الحجم رقيقة السُمك، كل قطعة مكتوب عليها عبارة ما، ثم قالت:

- وصية جدي لأبي، ووصية أبي لي، ووصيتي لولدي.
- جميل أن يوصي كل جيل الجيل الذي بعده.
- و أجهل منه أن يعمل كل جيل بوصية الجيل الذي قبله.
- صدقت.
- هل يهملك أن تعرف مضمون الوصايا؟
- يهمني إلى المدى.

أخرجت السيدة «رحيمة» قطعة الجلد الأولى من الصندوق و قالت: وصية جدي لأبي كانت:

(لكي تجد الحرية يجب أن تركب سفينة النجاة)

ثم التقطت القطعة الثانية و قالت: و وصية أبي لي كانت:

(لكي تعيش حراً يجب أن تحطم جميع الأصنام)

ثم رفعت القطعة الثالثة أمام وجهي و قالت: ووصيتي لولدي هي:

(لكي تظل حراً يجب أن تلقي عصاك)

تأملت في الوصايا طويلاً، ثم قلت لها: و هل تظنين أن شاباً في العقد الثالث من عمره مثل ابنك سيفهم مثل هذه الوصايا.

قالت: إن لم يفهمها اليوم سيفهم غداً.

قلت: وهل تريدني أن أوصل تلك الوصايا إليه أم أن أحضره هو إليك؟

قالت: لا أريد أن أقطع عليه رحلته أو أفسد عليه تجربته، يكفيني أن أطمئن عليه و أن يصل الصندوق إليه.

تناولت منها الصندوق وأنا أسأها: منذ متى بدأ ابنك رحلته؟

أجابت: اليوم يمر ثلاثة أعوام على مغادرته هذه القرية و ربع قرن على مجيئه هذا العالم.

قلت متعجباً: إن ابنك بدأ رحلته في نفس الوقت الذي بدأت فيه رحلتي، يبدو أن ولدك يسبقني بأربعة عقود تقريباً.

ثم أضفت متسائلاً: ما الذي دفعه لهذه الخطوة؟

قالت: الخطوة التي قبلها.

قلت: و ما هي؟

قالت: المعرفة. لم يحب ولدي شيئاً منذ صباه مثلما أحب المعرفة، و لم يتعلق بالبحث عن شيء قدر تعلقه بالبحث عنها، كان يتنقل بين أهل القرية يتعلم من هذا علماً أو أدباً و من ذاك حرفة أو صنعة، و أهل القرية كما تعلم بسطاء و ما لديهم من المعرفة يمكن تحصيلها في فترة ليست بالطويلة، و لذلك انتهى به المطاف أخيراً إلى حكيم القرية، ذاك الرجل الطيب الذي أفنى عمره في جمع الكتب و الرسائل حتى تكونت لديه مكتبة

لا بأس بها كان يحتفظ بها في حجرة ملحقة بمنزله، فلما تحقق من صدق رغبة ابني في المعرفة أعطاه مفتاحاً لتلك الحجرة و أذن له في الحضور وقتما شاء ليقرأ ما شاء، فكان ابني يمضي في مكتبة الحكيم الساعات الطوال، بل ربما يبيت فيها لبضعة أيام، حتى انتهى من قراءة جميع ما فيها.

قلت معجباً: رائع. لا بد أن هذا كان أسعد يوم في حياته.

قالت: بل كان أشقى يوم فيها، فما عساه يفعل بعد ذلك؟ هذا السؤال هو ما أثار شجونه و أشعل حيرته.

قلت: لقد دخل مبكراً في معضلة: و ماذا بعد؟ لكن قدرة الشباب على إيجاد مخرج من تلك المعضلة أعلى من قدرة الشيوخ على ذلك.

قالت: لكي يخرج منها خرج من القرية بأسرها، فقد أراد أن يمتحن المعرفة التي حصل عليها، هل الحياة كما قرأ عنها؟ هل التاريخ كما درسه؟ هل المسطور في الكتب و المجالات منظور في القرى و البلاد؟ و ألف هل و هل..

قلت: و هل وافقته على قراره؟

قالت: و هل كنت قادرة على منعه؟

قلت: و لم لا؟

قالت: لأن رغبته في السفر أضحت كالشجرة المحرمة التي يعجز عن الصبر عنها البشر ، كل ما استطعته وقتئذ هو أنني أخبرته مقدماً بالنتيجة التي سيصل إليها، أخبرته أن الكتب

و الحياة يلتقيان ويفترقان، وأنه سيعرف منها وينكر، وأن ما يعرفه اليوم قد ينكره غداً، و ما ينكره اليوم قد يقره غداً.

قلت: فما كان جوابه؟

قالت: قال: ليس هذا يا أمي ما يشغلني، لقد حررتني المعرفة من ضيق القرية إلى سعة العالم، وأخرجتني من الشأن الخاص إلى الشأن العام، وجعلتني أدرك أن كثيراً من العقول و الشعوب و الأوطان ما زالت محتلة مضللة مستغلة، ما فائدة المعرفة إن لم نتحرر ونحرر بها؟ و ما فائدة النور إن لم نبصره و نُبصر به؟ و ما فائدة العلم إن لم نعمل به و نُعلمه؟ يا أمي أنا غادرت القرية بذهني و إن بقيت فيها ببدني، فلا تمنعي جسدي من اللحاق بعقلي.

قلت: حلم إصلاح العالم الذي لا ينفك عن مراودة عقول الشباب، ثم بعد عقود يدركون أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان. أطرقت برهة ثم سألتها: و إلى أين توجه؟

قالت: لست أدري تحديداً إلى أين توجه، و لا أحسبه هو نفسه يدري، لو انتفع بالمعرفة فعلاً لحررته من ضيق العالم إلى سعة قريته التي هي أصله و قلبه، و لأخرجته من الشأن العام و جعلته يقبل على خاصة نفسه، كما أخبرتك من قبل كان الأولى به أن يفر من هذه الحرية لا أن يفر إليها.

قلت: لا تقسي عليه، ما كان ليدرك ما تقولين بالقراءة وحدها دون التجربة، و حتى إذا أدرك فقد يتفق معك و قد يختلف عنك.

قالت: أنا لا أقسو عليه وإنما أرحمه، ولكن يأبى الإنسان أن يدرك خطر النار دون أن تحرقه.

قلت: لن تحرقه إن شاء الله بل ستنضجه.

قالت: هذا ما عزيت به نفسي فتركته يمضي.

قلت: وهل ما زال التواصل بينكما قائماً أم انقطعت عنك أخباره؟

قالت: كان يرسل لي الرسائل بين الحين والحين، ثم انقطعت رسائله منذ ثلاثة أشهر.

قلت: ومن أين وصلت رسالته الأخيرة؟

قالت: لم يكن يرسل الرسائل عن طريق البريد، فليس في قرينتنا بريد، وإنما عن طريق أشخاص وحينما كنت أسألهم عنه أدركت أنهم لا يعرفونه وأن الذي أعطاهم الرسالة ليس هو، و في كل مرة كان الشخص الذي يسلمني الرسالة يأتي من مكان غير الذي جاء منه من قبله.

قلت: ربما لبعده المكان واختلافه كانت رسالته تحتاج لأكثر من شخص ليوصلها، والأكد أن أولهم يعرفه لكن آخرهم ليس كذلك.

قالت: أجل يبدو ذلك.

هنا شعرت بمدى صعوبة المهمة المطلوبة، كنت أرجو أن أعرف محطته الأخيرة لأبدأ منها، وعندها كنت سأقتفي أثر ثلاثة أشهر فقط بيني وبينه، أما وهذا هو الحال فأنا مضطر

أن أبدأ من حيث بدأ وحينها سأقتفي أثر ثلاثة أعوام، طلبت من السيدة «رحيمة» رسائله القديمة، و سألتها عن أصدقائه في القرية و ما جاورها من القرى، ثم سألتها إن كان لديها صورة له؟ فأخرجت من جيبها صورة و أعطتني إياها و هي تقول: هذه هي الصورة الوحيدة له عندي.

أحسست بمدى تمسكها بالصورة و تعلقها بها، و تفهمت مشاعرها جراء انتقال الصورة منها إلي، فقلت مطمئناً لها لأخفف عنها: سأذهب إلى أقرب بلدة لأستنسخ منها عدة نسخ، فأحتفظ ببعضها معي و أترك لك البقية.

تبسمت السيدة «رحيمة» ابتسامة تجمع بين الشكر و الرضا و هزت رأسها موافقة، فقلت: ما اسم ولدك؟

قالت: صادق.

قلت: صادق من؟

قالت: صادق كريم حكيم.

رفعت صورته أمامي و تأملت ملامحه فوجدته شاباً و سياً فتياً، فخاطبته في نفسي قائلاً: أرجو أن يكون وصفك كاسمك فتكون صادقاً كريماً حكيماً فعلاً فتستحق ما سأبذله من جهد في هذه المهمة، و ألا يكون وصفك بالضد من اسمك فترهقني ووالدتك كذباً و لؤماً و حقاً...

*** **

وصلت القافلة إلى مقصدها بين العصر والمغرب، وترجل الرحالة لبدأوا الجزء الثاني من رحلتهم سيراً على الأقدام لعبور غابة الجبل، وتعالى الصيحات والتعليقات والاستفسارات من هنا وهناك:

- المكان رائع حقاً.

- المنظر بديع فعلاً.

- دعونا نتجول في الجوار أولاً.

- أين الخرائط؟

- هل أخذتم جميع أغراضكم من السيارة؟

- من أين نبدأ المسير؟

- من الأفضل أن نبدأ السير الآن لنتمكن من اختيار مكان مناسب لنصب الخيام قبل حلول الليل.

- سنبدأ السير ولكن قبل أن نبدأ عليكم أن تتركوا هواتفكم وساعاتكم اليدوية في السيارات.

- لا توجد شبكات هنا فلن نتمكن من استخدام الهواتف، ولكن ماذا عن الساعات؟

- تحرروا من أعباء الحياة الصناعية واستمتعوا بالحياة الطبيعية لفترة وجيزة.

- هذا ما نحتاجه بالفعل.

و هكذا استأنف الـركب المسير على طريق ممهدة بين ثنايا الجبل،
تحفهم النباتات والأشجار، و يعطر الأجواء من حولهم شذى
الورود والأزهار، و تطرب أذانهم تغايد الأطيـار، و تمتع أبصارهم
قفزات الطباء و الغزلان، كانوا كأنها يسـيرون على أنعام مقطوعة
موسيقية رائعة، و يزيد من روعتها طيب الريح و حسن المنظر.

و بعد دقائق ليست بالطويلة، قادتهم السبيل إلى واد فسيحة،
و كانت الشمس قد أوشكت على المغيب و قد تراكت حولها
بعض الغيوم، فاستقر رأيهم على نصب خيامهم و بدء برنامجهم
لتلك الليلة على أن يعاودوا السير فجر اليوم التالي، لكن ما أن
شرعوا في تنفيذ ما تقرر حتى أخذت السماء في صب دلوها عليهم.

- هل نستمر في نصب الخيام رغم الأمطار؟

- لا بأس فالأمطار خفيفة.

- و ما يدرينا قد تصير غزيرة.

- الأفضل أن ننتظر حتى يتوقف المطر.

- و لكن لابد لنا من مكان نحتمي به، أو نأوي إليه.

- ها هو ذا.

انطلقت العبارة الأخيرة من في أحدهم و هو يشير مع آخر
شعاع من ضوء النهار إلى فتحة كهف في الجهة اليمنى من سفح
الجبل.

- هل سيسعنا؟

- الفتحة تبدو ضيقة؟

- دعونا نعاين عن قرب.

- أضيئوا المصابيح.

- رائع.

- مناسب جداً.

- الفتحة ضيقة بالفعل لكنه متسع ورحب من الداخل.

- الأرضية أيضاً تكاد تكون مستوية.

- يمكننا أن نفرش عليها ما لدينا من البسط لتكون مريحة.

- فكرة جيدة.

انتهى الطلبة من نقل أغراضهم وبسط الفرش وإعداد المكان حتى صار أنيقاً مريحاً إلى حد ما، ثم همس «عاطف» لصديقه «عاصم»: لم أشعر بهذا القدر من الحرية والانطلاق من قبل، يبدو أن الدكتور «ليب» كان موفقاً في اختيار هذا المكان.

«عاصم»: لست متفائلاً مثلك.

«عاطف»: ولم؟

«عاصم»: أية حرية تلك التي تتحدث عنها، نحن هنا معزولون عن العالم، وإذا عرض لنا عارض، أو طراً علينا طارئ، فسنصبح عالقين.

«عاطف» مازحاً: أجل. عالقين في جنة الحرية.

قطع صوت «د. ليب» حوارهما الهامس وهو يقول: معذرة يا شباب، نسيت بعض الأغراض التي سنحتاج لها في برنامجنا في المقطورة، سأذهب لإحضارها وأعود إليكم عاجلاً.

«د. هانى» متوجساً: ولكن المطر بدأ يشتد.

«ليب»: نعم لكنه مازال محتملاً، والمسافة التي قطعناها ليست بالطويلة، لن يستغرق الذهاب والعودة زمناً طويلاً، أرجو أن تلتزموا جميعاً أماكنكم، وسأكون معكم خلال دقائق، اطمئنوا.

انطلق «ليب» بمجرد الانتهاء من جملته الأخيرة ولم ينتظر تعقيب «هانى» الذي بدوره بدأ القلق يتصاعد في ذهنه، فهو لم يكن يرغب أن يغيب «ليب» عن بصره، فانتظر دقيقة على الجمر حتى يبعد قليلاً ثم انطلق خلفه وهو يقول للطلاب: سألق بالدكتور «ليب»، ربما يحتاج للمعونة في نقل الأغراض.

جلس الطلبة في مجموعات ثنائية و ثلاثية يتناولون أطراف الحديث، ثم صاحت «ليلي»: أين الطعام يا رفاق؟

قامت «سارة» و «جميلة» تتفقدان الأغراض التي تم نقلها لداخل الكهف، ثم قالتا: لا يوجد هنا سوى المياه والعصائر. يبدو أننا تركنا صناديق الطعام بالخارج.

في تلك الأثناء كان «هانى» تحت الأمطار يحاول اقتفاء أثر «ليب» وهو يفكر هل اتجه فعلاً للمقطورة أم أنه يدبر أمراً ما؟ وماذا سأقول له إذا لقيته؟ إنني لا أثق بك؟ لا بد أنه يدرك ذلك بالفعل، لكن المواجهة لن تكون يسيرة، ربما الأفضل أن أراه من حيث لا يراني. وبينما هو في تساؤلاته وتأملاته شعر أنه مراقب،

و أن هناك من يراه من حيث لا يراه، و أنه يتحول من مطارِد إلى مطارِد، و من صياد إلى فريسة، و تزايد هذا الشعور داخله حتى تملكته الرغبة أن يطلق ساقيه للريح هرباً من الخطر الذي لا يعرف مصدره، فبدأ يكثر الالتفات و يسرع الخطى، و لكن من يسعى خلفه لم يتح له الفرصة للفرار فقد عاجله بضربة على عنقه قطعت وصول الدم إلى مخه، فسقط مغشياً عليه من فوره.

«ليلي»: يمكنني إحضار الطعام من الخارج، لكنني أحتاج من يعاونني.

«حنان»: لا بأس، يمكنني مرافقتك.

«ماجد» موجهاً الحديث لرفاقه: أظن من الواجب أن يصحبها أحداً.

«ماهر» ناهضاً: سأقوم أنا بهذه المهمة.

انطلق الركب، «ماهر» في المقدمة و خلفه مباشرة الفتاتان، تحمل كل منهما مظلة في يمنها و مصباحاً كهربياً في يسراها، و الأمطار قد اشتدت و السماء قد بدأت تبرق و ترعد، وصلوا سريعاً إلى صناديق الطعام التي تركوها في موضع لا يبعد سوى عشرات الأمتار عن مدخل الكهف، حملها «ماهر» و أخذوا يعودون أدراجهم، و ضوء البرق يلمع في السماء و يعقبه صوت الرعد بعد ثوانٍ معدودات، حتى إذا لم يبق بينهم و بين كهفهم سوى مسافة قصيرة، امتدت يد بشرية في الظلام بعد سطوع البرق و قبل سماع الرعد لتجذب يد الرافعة الحديدية ليتحرك الحجر المثبت في قاعدة الصخرة التي تحررت فجأة من أسرها،

و لم تعد تجد ما يكبح جموحها، فانطلقت مباشرة نحو هدفها،
اختلطت صوت الرعد بصوت تدحرج الصخرة فلم ينتبه من في
داخل الكهف، أما من خارجه فشعروا أن الأرض تهتز من تحتهم،
و التفت «ماهر» فلمح على ضوء المصباح الذي تحمله «حنان»
الصخرة الهائلة و هي تندفع نحو الكهف كحيوان أسطوري، لا
يفصله عن فريسته سوى ثلاثتهم، ألقى ماهر صناديق الطعام
من لحظته، و في اللحظة التي تليها كان يدفع زميلتيه بكل قوته
في جهة و يقفز هو إلى الجهة المقابلة، و مرت الصخرة من بينهم،
لكنها أصابت قدم «ماهر» و ساقه أثناء مرورها، و اختلط صوت
صراخ الفتاتين بصوت ارتطام الصخرة بمدخل كهفهم.

بعد برهة توقف الصراخ و سكن الغبار و هدأت الأمطار،
ثم ارتفع صوت «ماهر» في مزيج من الألم و القلق و هو يسأل
زميلتيه: هل أنتما بخير؟

«ليلي»: نعم. إلا من بعض الرضوض و الكدمات.

«حنان»: و الخدوش و السجحات.

ثم قالتا في نفس الوقت: و أنت؟

«ماهر»: لست على ما يرام، أحسب أن قدمي و ساقِي قد
أصيبتا إصابة بالغة.

تحاملت كلتا الفتاتين على نفسيهما، و توجهتا إلى زميلهما
تساعدانه على النهوض، و تضمدان جروحه في حدود الإمكانيات
المتاحة، ثم قالت «ليلي»: أكان هذا زلزالاً؟

«حنان»: نعم أظن ذلك، فقد شعرت أن الأرض تهتز تحت قدمي.

«ماهر»: لست متأكداً، هناك شيء مريب فيما مر بنا من الأحداث.

«ليلي»: وماذا عن رفاقنا؟

«حنان»: حبستهم الصخرة في الكهف.

«ليلي»: أعلم تلك المصيبة، وإنما قصدت ماذا في إمكاننا أن نصنع لهم؟

التقط «ماهر» غصن شجرة ليستخدمه كعصا يتوكأ عليها و توجه نحو الكهف ليتفقد موضع الصخرة، تبعته الفتاتان، و وقف الثلاثة في الظلام يحاولون على ضوء المصباح الذي تبقى معهم أن يجدوا و لو منفذاً ضئيلاً إلى مدخل الكهف و لكن هيهات فقد سدت الصخرة المدخل بالكامل حتى كأنها قد خلقت لهذا الغرض، فلما غشيهم العجز و حاطتهم الحيرة، أخذوا ينادون على أصدقائهم بأعلى أصواتهم على أمل أن يتمكنوا من التواصل معهم و لكن ذهبت جهودهم سدى و تلاشت أصواتهم مع الرياح. و في الوقت الذي كانوا يهتفون فيه بأسماء أصدقائهم كان أصدقاؤهم داخل الكهف يهتفون بأسمائهم، لكن لا هؤلاء كانوا يسمعون أولئك، و لا أولئك كانوا يسمعون هؤلاء.

«ليلي» بحنق: و أين «لييب» و «هانى»؟ لماذا لم يعودا؟

«حنان»: صحيح. لقد مر من الوقت ما يكفي لعودتهما، و ليس لنا من أسباب النجاة سواهما.

«ماهر»: أخشى أن يكونا من أسباب الهلاك لا النجاة.

«ليلي»: ماذا تقصد؟ هل تقصد أن لهما دور فيما حدث؟

«حنان»: هذا مستبعد جداً، كيف سيعرفان بوجود الصخرة ووقوع الزلزال؟ ولماذا يخططان لمثل هذا العمل الجنوني؟ ماذا سيجنيان؟

«ماهر»: فأين اختفيا إذا؟ ولماذا لا يعودان؟

«ليلي»: ربما أصابهما مكروه بدورهما.

«حنان»: ما العمل الآن؟

«ماهر»: ليس أمامنا سوى التوجه نحو موقع السيارتين و محاولة العثور على الرجلين، أو محاولة العثور على أي نوع من أنواع المساعدة.

*** **

أفاق «هانئ» ليجد نفسه مقيداً إلى كرسي داخل مقطورة «لييب»، الذي كان يجلس على الأريكة المقابلة له يتطلع إليه في صمت.

حرك «هانئ» رأسه في جميع الاتجاهات ليتأكد من سلامة عنقه وليزيل عن نفسه أثر الإغماء، ثم نظر إلى «لييب» وقال: توقعت أنك ستقدم على عمل أخطر.

«لييب»: و أنا توقعت أنك ستقتني أثري.

«هانئ»: أين الشباب؟

«ليب»: في الحفظ و الصون.

أعاد «هانئ» السؤال بحدة: أين هم؟

قام «ليب» و توجه نحو الشاشة المثبتة في المكتبة داخل المقطورة و ضغط زر التشغيل و هو يقول: ها هم.

نقلت الشاشة مشهد بعض الشباب و هم متجمعون أمام مخرج الكهف من الداخل يحاولون زحزحة الصخرة التي تسده، فحاول «هانئ» أن يقفز من مقعده لكن منعه قيوده التي نسيها من شدة الغضب، فصاح قائلاً: ما ظننت أن يبلغ بك الإجرام هذا المبلغ.

«ليب»: أتعد التجربة العلمية جريمة! لا تكن عاطفياً، الجميع سيستفيد، هم سيكتشفون اعماقاً جديدة في نفوسهم و سيدركون و سيتعلمون، و أنا سأنجز البحث و التجربة، و العلم سيضاف له باباً فريداً، يعني الكل رابح هنا. اطمئن لن يصاب أحد بسوء.

«هانئ»: إن كنت لا ترى السوء حتى الآن فأنت أعمى، هل تظن أنك ستنجو بفعلتك؟

«ليب»: لا أظن، أنا متأكد. كما تلاحظ يمكنني مراقبتهم، فإذا وجدت في نهاية التجربة أنهم سيتبعون عواطفهم و يسIRON نحو مقاضاتي و النيل مني سأغادر البلاد، أوراق سفري جاهزة و لدي فرصة عمل في إحدى الجامعات الأجنبية، و إن وجدت أنهم سيغلبون عقولهم و يسIRON على مقتضى الحكمة عندما يدركون قدر الفائدة التي تحصلت لديهم من جراء تلك التجربة، فسأبقى في وسطهم و سنكمل معا البحث و الدراسة.

«هانئ»: لا فائدة من مناقشتك، لكن تيقن أن خطتك لن تنجح.

قال «هانئ» عبارته الأخيرة ثم عاد إلى مراقبة الشباب على الشاشة بقلق بالغ، وفجأة اتسعت حدقتاه و صاح بلهفة: ويحك! أين بقيتهم؟

التفت «لييب» بسرعة إلى الشاشة و عقد حاجبيه بشدة و أخذ يعد الشباب بعينه، ثم قال: يا للمصيبة! هؤلاء سبعة فأين الثلاثة الآخرون؟

«هانئ» في قمة الانفعال: ماذا تعني؟ ألم يكن ذلك من ضمن خطتك القذرة؟
«لييب» شاردًا: لا.

«هانئ» و قد أصبح لديه بعض الأمل أن يتراجع «لييب» عن موقفه: و ماذا أنت صانع؟

توجه «لييب» نحو الشاشة و ضغط زر إعادة التشغيل و هو يقول: دعني أرى ما حدث من البداية لأفهم ثم أقرر.

*** **

انتفض الشباب مع اصطدام الصخرة بمدخل كهفهم، و أسرعوا يتفقدون الموقف فأدركوا ما حل بهم، حاولوا زحزحة الصخرة باستخدام كل نقاط الارتكاز الممكنة، و وسائل الدفع الثنائي باليدين، و الرباعي باليدين و القدمين، لكن لم تتحرك قيد أنملة، وقفوا برهة يلهثون ثم بدأوا يتحاورون.

«ماجد»: كيف حدث هذا؟

«عادل»: ربما زلزال أو صاعقة تسببت في ذلك.

«عاصم»: بهذه الدقة! الصخرة لم تترك منفذا لشعاع من الضوء و سدت المدخل تماماً! عجيب! بل مستحيل!

«عاطف»: كيف يكون مستحيلاً وقد وقع؟

«عاصم»: أقصد مستحيل أن يقع هكذا من غير يد بشرية.

«عادل»: بل المستحيل أن يقع بتدخل بشري، من ذا الذي يمكنه أن يحرك مثل هذه الصخرة بهذه الدقة؟

«سارة»: ها قد وقع المحال، وبدلاً من مناقشة كيف حدث هذا فلنناقش كيف سنخرج من هنا؟

«جميلة»: هذا هو السؤال.

«ماجد»: نعم ولكنه لا يلغي السؤال السابق بل يكمله، بمعنى أننا لكي نفكر في المخرج من هذه الورطة من المهم أن نعرف كيف دخلنا فيها؟

«حورية»: تقصد هل نحن في مأزق قدرتي طبيعي أم بشري مصطنع؟

«ماجد»: أجل.

«سارة»: وهل هناك فارق؟

«عاصم»: بالطبع.

«سارة»: وما هو هذا الفارق؟ إن كان قدرياً سنستسلم له و نجعل من الكهف قبراً و ننتظر الموت؟ و إن كان صناعياً سنقاوم من أجل الحرية؟ أم ماذا؟

«عاصم»: لا تخلطين الأمور كعادتك، القدر يطالبنا بالاستسلام له بقلوبنا و التفاعل معه بجوارحنا كما في أي نوع من الأمراض و المصائب، و إن كان أمراً مدبراً من شخص ما فهو أيضاً بقدر لكن في هذه الحالة علينا أن نفهم دوافع هذا الشخص و كيف يمكننا هزيمته؟

«سارة»: إذا في الحالين نحن مطالبون بالتحرك، يعني لا يوجد فارقٌ جوهريٌّ.

«ماجد»: أرجوكم كفا عن الجدال، و دعونا نبحث كافة الاحتمالات و المخارج.

«عادل»: هناك احتمال أن تكون كارثة طبيعية، و المخرج في هذه الحالة أن ننتظر الدكتورين، لاشك أنهما على وشك الوصول و فور اطلاعهما على الأمر سيأتون بالنجدة من أقرب قرية لنا.

«عاطف»: أقرب قرية تبعد حوالي مائة ميل، و أتوقع أن الوصول لها و البحث عن وسيلة لتحريك الصخرة و العودة قد يستغرق ثماني ساعات.

«عاصم»: ماذا لو كان الدكتوران العظيمان هما من دبرنا هذه المصيدة؟ ألم يختر «ليب» هذا المكان المهجور؟ ألم نخبرنا أننا سنعرض لموقف يجعلنا ندرس و نبحث موضوع الحرية بشكل أعمق؟ ألم يغادرنا قبل وقوع الكارثة بدقائق؟ ألم يلحق به «هانئ» مباشرة؟

«حورية»: إن كان هناك احتمال لتورط «د. ليب» فليس هناك احتمال لتورط «د. هانى»، فنحن نعرفه وأسرتة منذ زمن طويل، ولا يمكن أن يكون طرفاً في هذا العمل الدنيء.

«جميلة»: نعم. أذكر أنه لم يكن مرتاحاً لاختيار المكان، وأحسب أنه لحق بالدكتور «لييب» ليمنعه من تنفيذ خطته لا ليعاونه عليها. «سارة»: وطالما لم يمنعه فهذا يعني أن النصر كان حليفاً لليب وأنه نجح في التخلص من «هانى» بطريقة أو بأخرى.

بدا الانزعاج على وجه «حورية» لكنها لم تعلق، بينما قال «عادل»: نتحدثون وكأنكم تأكدتم من تورط «د. ليب»؟ الرجل كان يعلمنا، ومشهور بالكفاءة، وله مكاتبة العلمية والاجتماعية، فما الذي يدفعه لتلك الجريمة؟

«عاصم»: الجنون العلمي، الرغبة في تحقيق سبقٍ علميٍّ على حساب المخاطرة بحياتنا.

«ماجد»: الساعات التي ذكرها «عاطف» هي التي ستحسم الأمر، إذا جاءت فيها النجدة برأته وإذا لم تأت فهذا دليل إدانته.

«عاطف»: إن فقدنا الأمل في «هانى» و «لييب» فلن نفقده في «ماهر» و «ليلي» و «حنان»، من حسن حظنا أنهم بالخارج.

«سارة»: وماذا في أيديهم أن يصنعوا لنا وليس لديهم وسيلة مواصلات للبحث عن النجدة؟ فسيارة «ماجد» مغلقة بإحكام، وسيارة «لييب» إن كان متورطاً فلن يعثروا عليها، فهم مسجونون خارج الكهف كما نحن مسجونون بداخله، لنتظر ثم نقرر ماذا سنفعل إن لم تصل النجدة خلال ساعات.

«حورية»: وكيف سنعلم بانتهاء تلك المهلة وقد تم تجريدنا من ساعاتنا اليدوية؟

«ماجد»: صحيح. في هذه الحالة لن يمكننا حساب الوقت وعلينا أن نحاول أن نصنع شيئاً ولا نكتفي بالانتظار.

«عاصم»: أجل. فالوقت ليس في صالحنا، تذكروا أن أصدقاءنا خرجوا لطلب الطعام ولم يتمكنوا من العودة، يعني نحن لا نمتلك سوى كميات من الماء والعصائر تكفينا يومين أو ثلاثة أيام كحد أقصى.

«عاطف»: أعتقد أن هذه المدة أيضاً هي العمر الافتراضي للمصابيح الكهربائية التي في حوزتنا.

«جميلة»: هل يعني هذا أن أماننا يومين أو ثلاثة ثم نغرق في الجوع والظمأ والظلام!

ساد الصمت المصحوب بالقلق البالغ والتوتر العنيف داخل الكهف بعد عبارة «جميلة» الأخيرة، وأخذ كل واحد منهم في تخيل ما يمكن أن يحدث وإلى أي مدى سيتحملة؟ وكيف سيواجه مصيره؟

*** **

ابتعد «لييب» بجذعه قليلاً عن الشاشة التي تنقل ما يدور في الكهف، وأسند ظهره إلى الكرسي الذي يجلس عليه بجوار الكرسي المقيد إليه «هانئ» مع وجود طاولة صغيرة تفصل بينهما، ثم قال محدثاً نفسه بصوت مسموع: طالما لم يتمكن «ماهر» و الفتاتان من العودة إلى الكهف فمن المنطقي أن يتوجهوا إلى موقع

السيارات للبحث عنا لنجدتهم، وإذا فعلوا فالمفترض أن يكونوا قد وصلوا إلى هنا بالفعل منذ فترة، ولكنهم لم يصلوا حتى الآن! وهذا من حسن الطالع، فلو وجدونا لفسدت التجربة و فشلت الخطوة، يجب أن نغادر هذا المكان فوراً.

بمجرد أن أنهى «لييب» كلمته نزل من المقطورة وصعد إلى مكان القيادة و أدار المحرك و انطلق غير عابئ بصياح «هانئ» لمنعه من تلك الخطوة، و أخذ يبحث عن موقع جديد مناسب للمقطورة، و بعد عدة دقائق استقر على موضع مرتفع عن الموضع الأول و محاط ببعض الأشجار، فكان مناسباً تماماً للاختفاء عن الموقع الأول و مراقبته في ذات الوقت، فأخرج النظارات المكبرة المزودة بخاصية الرؤية الليلية من صندوق أسفل عجلة القيادة، و عاد مرة أخرى لداخل المقطورة، و بدأ ينقل نظره بين الشاشة و النظارات بين الفترة و الأخرى ليتمكن من مراقبة من بداخل الكهف و من خارجه في نفس الوقت.

و بعد فترة وجيزة شاهد الأصدقاء الثلاثة و هم في طريقهم إلى سيارة «ماجد»، و لاحظ أن «ماهر» يمشي بصعوبة بالغة على ساق واحدة بمساعدة «ليلي» و «حنان» و قد بدا على هيئتهم جميعاً الارهاق و التعب، فقال: الآن فهمت لماذا تأخروا، «ماهر» مصاب إصابة بالغة، و الفتاتان في حالة بائسة.

كان «هانئ» قد يؤس من السباب و الصياح، فاستعاد الهدوء و قد شغله ما حل بالشباب و أحرقه عجزه عن نجدتهم، فقال: و رغم ذلك ستستمر في تجربتك المشؤومة؟

«ليب»: نعم لكن مع معالجة الآثار الجانبية التي لم تكن في الحسبان، هؤلاء الشباب بحاجة للمساعدة، ولن أبخل عليهم بها.

«هانئ»: وماذا تنتظر؟

«ليب»: اللحظة المناسبة.

عاد «ليب» إلى مراقبة الشباب من خلال النظارات المكبرة، وكان المطر قد خف لكنه لم يتوقف، وشاهد محاولاتهم البائسة اليائسة لفتح السيارة باستخدام ما يتوفر لهم من الأدوات وما تطاله أيدهم من هنا وهناك.

استمر الشباب في محاولاتهم، وفي النهاية التقط «ماهر» حجراً كبيراً وهشم به الزجاج الجانبي للسيارة وهو يصيح: أنا متأكد أن ماجداً سيساخنني.

«حنان» بانزعاج: ويحك! ماذا صنعت!

«ماهر»: لا بد مما ليس منه بد.

«ليلي»: نعم نحن في احتياج شديد إلى مكان آمن نمضي فيه ما تبقى من هذه الليلة الرهيبة.

فتح «ماهر» الباب الخلفي للسيارة وأدخل الفتاتين وجلس هو على المقعد الأمامي، وأخذ يزيل أثار الزجاج المكسور، ثم أخذ يبحث عما يصلح أن يكون بديلاً له لمنع الرذاذ المتطاير والهواء البارد من الدخول، حتى عثر على بعض الصحف والمجلات فثبتها مكان الجزء المكسور من الزجاج، وهو يقول:

الآن يمكننا الحصول على بعض الراحة، وفي الصباح نحاول إنقاذ أنفسنا وأصدقائنا.

ورغم الألم والقلق، ما أن أراحوا رؤوسهم على المقاعد حتى راحوا في سبات عميق بعد دقائق.

أزاح «ليب» النظارات المكبرة عن وجهه وهو يقول: الآن حانت اللحظة المناسبة.

*** **

شرع أصحاب الكهف في مناقشة كيفية الحفاظ على ما لديهم من مصادر الماء والغذاء والضيء المحدودة لأطول فترة ممكنة، ودار بينهم الحوار التالي:

«عادل»: أرى أن نقسم ما لدينا بالسوية، ثم يقوم كل فرد بتدبير نصيبه ليكفيه أطول مدة ممكنة.

«ماجد»: وماذا لو لم يحسن التدبير وأفنى ما لديه قبل الآخرين؟ هل سنتركه يموت عطشاً أم نتحمل عاقبة سوء تدبيره من أنصبتنا التي نحن في أشد الحاجة إليها؟

«عاصم»: بل يتحمل هو سوء تدبيره، فما ذنب الآخرين؟

«جميلة»: وماذا لو لم يتحمل؟ أنقاتله؟

«حورية»: ربما من الأفضل أن نختار من بيننا من يقوم بتلك المهمة بالعدل والحزم والقسطاس.

«سارة»: وماذا لو خان الأمانة وأثر نفسه على إخوانه؟

«جميلة»: كيف هذا و كلنا أصدقاء منذ زمن و يعرف بعضنا بعضاً معرفة جيدة؟

«سارة»: لا يمكننا الاعتماد على حسن الظن في هذه الظروف، فنحن لا ندري ماذا يمكن أن يفعل أحدنا تحت شدة الحاجة و ضغط الضرورة.

«عاصم»: في هذه الحالة لا بد من وجود رقابة على من سيقع عليه الاختيار.

«ماجد»: أجل. يمكننا أن نقوم بحصر ما لدينا الآن و أن يتم التوزيع أمام الجميع في كل مرة ثم نعيد الحصر قبل كل نوبة للتأكد أنه لم ينقص شيء من المخزون فيما بين النوبتين.

«عادل»: و إذا اكتشفنا أن هناك نقص، فهل يعني هذا أن الذي يقوم بدور الخازن هو المذنب؟ ربما يستغل أحد فترة نومه أو انشغاله ليقتنص منه ما ليس من حقه.

«جميلة»: هل تريدون أيضاً عمل نوبات حراسة على بضع زجاجات من المياه و العصائر؟

«سارة»: نعم، فتلك الزجاجات هي ما يضمن لنا الحياة.

«ماجد»: لا حاجة لذلك، فالصندوق الذي أحضرته للتخزين من النوع الذي يحافظ على درجة حرارة ما بداخله، و له قفل يعمل بالأرقام مثل حقائب السفر، و بالتالي ستقع المسؤولية فقط على من سيقوم بدور الخازن لأنه وحده من يملك اختيار الأرقام.

«جميلة»: ما ظننت أنه سيأتي اليوم الذي نعامل فيه بعضنا البعض بهذا القدر من الشك و التخوين!

«عاصم»: ليس الأمر كما تظنين، ولكن الاحتياط واجب، و ما نفعله في الحقيقة يبعد عن نفوسنا هواجس الشك و التخوين لأننا نحاول ألا نترك مجالاً للارتجال أو التخمين.

«عادل»: نعم. يجب أن تكون الأمور كلها متفق عليها و واضحة و معلومة للجميع.

«عاطف»: و كيف سيقوم هذا الخازن بالتقسيم؟

«عادل»: ما هذا السؤال الغريب يا «عاطف»؟ بالطبع سيقسم القدر المتاح في كل نوبة بالتساوي.

«عاطف»: هذا ليس عدلاً يا «عادل».

«عادل» مندهشاً: ولم؟

«عاطف» منفِعلاً و هو يشير إلى نفسه: هل ترى أنه من العدل أن ينال من وزنه مائة كيلوجراماً نفس القدر من الطعام الذي يناله من وزنه خمسون كيلوجراماً. و أشار إلى زميلتيه.

«سارة» محتدة: ويحك! ما ذنبنا نحن في زيادة وزنك؟

«عاطف» و هو يكاد يبكي: إذن أنتم تريدون تعذيبني و قتلي.

«عاصم»: أرجوكم حاولوا أن تهدأوا، إذا انفعلنا و تنازعنا فكلنا خاسرون.

«ماجد»: لا بأس من مناقشة أعدل الطرق في توزيع الثروة التي لدينا، هل حسب مدى الاحتياج؟ أم بحسب القدرة على التحمل؟ أم بالمساواة المطلقة دون النظر إلى الوزن أو القوة أو الجنس؟ «عادل»: ما لدينا ليس ثروة وإنما المقومات الضرورية للحياة.

«سارة»: إذا نظرنا للاحتياج فلا شك أن الاحتياج الأكبر سيكون لمن ليس لديه مخزون من الدهون، وإذا أخذنا في الاعتبار القدرة على التحمل فمعلوم أن الرجال أقوى على التحمل من النساء، فإذا لم تتم القسمة بالتساوي فالواجب أن يكون للنساء النصيب الأكبر لضعف قدرتهن على التحمل.

«عاطف»: من قال إن النساء أقل تحملاً من الرجال؟ النساء يتحملن الولادة ونحن لا نتحملها قطعاً.

انفجرت الضحكات من أفواه الحاضرين رغم خطورة الموقف ثم بدأوا يستعيدون الهدوء كرة أخرى، فقال «عاصم»: حتى لو حاولنا توزيع ما لدينا توزيعاً نسبياً وليس كمياً فهذا يكاد أن يكون مستحيلاً لتعدد المعايير من الوزن والقدرة على التحمل ومدى الاحتياج من جهة وعدم وجود ضوابط محكمة لحساب النسب من جهة أخرى.

«عادل»: نعم. القسمة بالتساوي أقرب إلى العدل من وجهة نظري.

«سارة»: فلنجري تصويتاً إذن.

«ماجد» رافعاً يميناه: حسناً. من يوافق على التقسيم بالتساوي فليرفع يده.

أخذت الأيدي ترتفع الواحدة تلو الأخرى حتى تحقق الإجماع، فنظرت «سارة» باستنكار إلى «عاطف» قائلة: ما دمت موافقاً فلم صدعت رؤوسنا من البداية؟

«عاطف»: كانت لحظة ضعف. و أضاف و هو يشير إلى بطنه: ثم أدركت أنها لا يمكنها أن تهضم شيئاً لم تحظ بطونكم بمثله.

ابتسم «عاصم» و هو يربت على كتف صديقه مشجعاً و هو يقول: أرجو أن نجد مخرجاً قريباً و ألا نصل إلى حالة الاضطرار.

«ماجد»: هذا ما أخشاه فنحن إلى الآن نقيم الأمور بعقولنا و نتصرف بما تمليه علينا أخلاقنا، و لكننا لا ندري مدى تأثير الاضطرار على قوانا العقلية و قيمنا الأخلاقية.

«جميلة» في محاولة لتغيير دفة الحديث حتى لا يغوصون في الاحتمالات المخيفة: و من تحتارون ليكون خازن بيت المال؟ «حورية»: أنا أرشح «عادلاً» تفاؤلاً باسمه.

ارتفعت الأيدي مرة أخرى بالإجماع.

ثم قالت «سارة» موجهة الحديث إلى «عادل»: أول مشكلة ستواجهك أيها الخازن هي كيفية حساب الوقت بين نوبات التوزيع لضمان الحفاظ على المخزون لأطول فترة ممكنة، فنحن لا نملك ساعات يدوية كما تعلمون.

أطرق «عادل» برهة ثم رفع رأسه و قال: لا أجد سوى الاعتماد على أنفاسنا.

«عاطف»: بالطبع سنعتمد على أنفسنا، لكن كيف؟

«عادل»: لم أقل على أنفسنا وإنما على أنفاسنا.

«عاصم»: ماذا تقصد؟

«عادل»: ما أعلمه أن الإنسان يتنفس بمعدل عشرين مرة في الدقيقة تقريباً أي ألف ومائتين مرة في الساعة، فإذا قام كل واحد منا بعد أنفاسه لمدة ساعة فيمكننا حساب الوقت بشكل تقريبي.

«ماجد»: فكرة رائعة.

«سارة»: لكنها غير مضمونة بالمرة، ماذا لو أخطأ أحدها أو شرد ذهنه و غفل عن العد؟

«عاصم»: على كل واحد منا أن يبذل أقصى قدر من التركيز حين يحين دوره، وحتى إن شرد أو أخطأ فليكمل، فأن تصبح الساعة سبعين أو ثمانين دقيقة أفضل من فقدان عنصر الزمان بأسره. «حورية»: وبذلك كلما أنهينا ثلاث دورات من العد، انقضت أربع وعشرون ساعة تقريباً و وصلنا إلى الغد.

«عادل»: لقد دخلنا الكهف مع غروب الشمس تقريباً، و في تقديري أن الساعة الآن حوالي العاشرة مساءً، فإذا بدأنا عد الأنفاس من الآن، فيمكنني القول أن أول وجبة لنا ستكون بعد اثنتي عشرة ساعة من الآن أي حوالي الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي.

«عاطف»: اعتقد أنها فترة كافية لوصول الدكتور «لييب» و الدكتور «هانئ» بالنجدة، أليس كذلك؟

«عاصم»: أما زال لديك أمل فيهما.

«ماجد»: لن نفقد الأمل فيهما أو في أحدهما إلا بعد مرور تلك الساعات على الأقل، فليس هناك دليل مؤكد حتى الآن على تورطهما في الكارثة التي نحن فيها.

«جميلة»: أرجو أن تصل النجدة خلال تلك الساعات وينتهي هذا الأمر على خير.

«سارة»: وماذا لو لم تصل؟

تبادل الأصدقاء النظرات ولم ينبس أحدهم ببنت شفة للجواب على سؤال «سارة» فكل منهم كان يريد التفكير منفرداً قبل أن يعلن رأيه على الملأ.

أتم «عادل» توزيع الساعات لعد الأنفاس على المجموعة، ثم انزوى كل واحد منهم في زاوية من زوايا الكهف يفكر في ماذا لو؟ وماذا بعد؟

وخيم الصمت على الكهف إلا من شهيق وزفير من يقوم بعد أنفاسه.

*** **

أشرقت الشمس على أصحاب السيارة فاقتلعت النوم من العيون، وكان أولهم استيقاظاً «ماهر» الذي بمجرد أن ردت إليه روحه شعر بألم قدمه وساقه، فأخذ يتأوه تأوها مكتوماً خجلاً من رفيقته، استيقظت الفتاتان بعده مباشرة، فقالت ليلي: لقد كنا في أشد الحاجة إلى الراحة.

«ماهر»: ونحن الآن في أشد الحاجة إلى الدواء والغذاء.

«حنان»: فلنفتش في السيارة ربما ترك فيها ما جد بعض الأطعمة و الأدوية.

أخذوا ينظرون فيما حولهم و تحت المقاعد و خلفها حتى وجدوا في المكان المخصص للأمتعة صندوقين مغلقين، فالتقطت «ليلي» احدهما و التقتت «حنان» الآخر، و عندما فتحت الأولى صندوقها قالت بنبرة انتصار: الحمد لله، ها قد وجدنا الماء و الغذاء.

فأردفت الأخرى بنفس النبرة: و حصلنا أيضا على الدواء، فلدي هنا حقيبة اسعافات أولية بها بعض المضادات الحيوية و المسكنات و المطهرات و الضمادات و غيرها.

«ماهر» بفرح و دهشة: رائع.

«ليلي»: ألم تكن معهم في السيارة؟ ألم تر هذين الصندوقين من قبل ؟

«ماهر»: بلى كنت معهم لكني لم أتفقد مكان الأمتعة.

«حنان»: إذا كان هذان الصندوقان لما جد، فلم لم يحضرهما معه حين بدأنا رحلة السير؟

«ليلي»: ربما نسي، و ربما أخذ زملاؤنا ما فيه الكفاية و لم تكن هناك حاجة لهذين الصندوقين.

«حنان»: نعم. اذكر أنني قبل مغادرة الكهف لمحت حقيبة اسعافات أولية مشابهة وسط الأمتعة التي قمنا بنقلها.

أخذ «ماهر» يستعيد بذاكرته لحظات تعاونه مع زملائه في نقل الأمتعة من السيارة، ثم قال: أحسب أن هذين الصندوقين لم يكونا في السيارة من قبل.

«ليلي»: وماذا يعني هذا؟

«حنان» بنبرة شك: يعني أن هناك من وضعهما في السيارة أثناء نومنا.

«ماهر»: أجل. هذا ما أظنه.

«ليلي»: إن كان ظنكما في محله فلن يكون هذا الشخص سوى «لييب» أو «هانى».

«حنان»: وهذا معناه أنهما متورطان فيما نحن فيه، وأن لديهما خطة ما، ولذلك لا يريدان مواجهةتنا حتى لا تفسد تلك الخطة.

التقط «ماهر» صندوق الإسعافات الأولية و تناول قرصين من المسكن أتبعهما بالمضاد الحيوي ثم بدأ يطهر جروح قدمه وساقه و يضع عليها الضمادات و يربطها بإحكام ليمنع التلوث و يخفف من الألم، ثم قال: لا بد أن نجدهما ونواجههما حتى نجبرهما على إخراجنا وأصدقائنا من تلك الورطة.

«ليلي»: كيف سيمكنهما تحريك تلك الصخرة؟ ماذا لديهما من الآلات لإنجاز مثل هذه المهمة؟

«حنان»: ماذا تقصدين؟

«ليلي»: أقصد أن اتهامهما بتدبير تلك الكارثة مستبعد و لا دليل عليه.

«ماهر»: فلمَ غادرا الكهف الواحد تلو الآخر قبل وقوع الصخرة؟ و أين اختفت سيارتهما؟ ولمَ تسللا إلى سيارتنا ولم يوقظانا؟

«ليلي»: إن كانا يدبران شرّاً فلمَ يقدمان لنا المساعدة ونحن نيام؟

«حنان»: الأمر محير بالفعل، وعلى كل حال إن كانا هما الجانيان فلن نستطيع أن نجبرهما بسهولة على تحرير أصدقائنا فضلاً عن أن نجدهما أصلاً.

«ماهر»: والعمل؟

«ليلي»: أن نجتهد في نجدة أصدقائنا أولى من الاجتهاد في البحث عنهما.

«حنان»: كيف؟

«ماهر»: سنسلك كافة الطرق الممكنة، سنحاول تشغيل سيارة «ماجد»، و سنحاول الوصول إلى منفذ آخر للكهف، و سنحاول اقتفاء أثار سيارة «لييب»، و سنحاول العثور على النجدة من أقرب بلدة إلينا.

*** **

جلس «عاصم» على البساط و أسند ظهره و رأسه إلى جدار الكهف و أخذ يفكر في ماذا لو؟ و ماذا بعد؟ ماذا لو لم تصل النجدة بعد ساعات؟ و ماذا بعد أن ينفد ما لديهم من المشروبات؟ و أدرك أنهم اليوم يكافحون من أجل الحرية لكن

غداً سيكون كفاحهم فقط من أجل البقاء على قيد الحياة، و تساءل بينه وبين نفسه: أيهما أثمن الحرية أم الحياة؟ طالما أن البشر يضحون بحيواتهم من أجل حرياتهم فالحرية أثمن من الحياة، لكن التاريخ في مجمله يكذب هذه الفرضية لأن عدد من ماتوا تحت نير العبودية يفوق بكثير عدد من قتلوا من أجل الحرية، و بالتالي سيظل «سبارتكوس» استثناءً وليس أصلاً، ربما لم تسنح الفرصة لأغلبية العبيد أن يقاتلوا لينالوا حرياتهم، ربما كانوا ينتظرون اللحظة المناسبة ثم انقضت أعمارهم قبل أن تأتي تلك اللحظة، ربما كان صبرهم على العبودية سنيئاً بسبب أملهم في الحرية يوماً، و ربما كان تحملهم بسبب عجزهم، لكن إن فرضنا عجزهم عن القتال فهل كانوا عاجزين أيضاً عن الموت؟ لماذا قبلوا بالحياة في الأسر؟ لماذا لم يقضوا على أنفسهم بأنفسهم؟ لماذا لم يتحروا؟ يبدو أن الانتحار أصعب من القتال، و أن يقتل الإنسان نفسه أشق من أن يقتل غيره، فقد يقتل الإنسان غيره حسداً أو طمعاً أو كراهيةً أو قصاصاً أو لغيرها من الدوافع التي كثيراً ما يجدها تجاه غيره و قلما يجدها تجاه نفسه، بل حتى إن كره حياته و اشتد ألمه و كربه لا يقدم على هذه الخطوة إلا أصابه القنوط من غده، ليس القريب فحسب بل البعيد أيضاً، إذن فالحياة أقوى من الألم و من الأسر و لكنها أضعف من اليأس.

إياك أن تيأس يا «عاصم»، فإنك إن آيست فقدت حياتك و حريتك و بالتالي يومك و غدك، هذا ما دار بذهنه حينما التقت رأسه بالصخر على جدار الكهف.

*** **

في زاوية أخرى من زوايا الكهف جلس «عادل» القرفصاء بجوار الصندوق الذي يحتوي مادة الحياة بالنسبة لهم، كان يفكر في المهمة التي أسندت إليه، لقد أصبح «خازن الكهف» و عليه أن يبقى على محتوى هذا الصندوق لأطول فترة ممكنة، فتح الصندوق و أخذ ينظر إلى محتواه و يقسم في ذهنه الكميات على الأفراد و الساعات و يتوقع ما يمكن أن يواجهه من المشكلات، هذا المحتوى الذي يعدل اليوم دراهم معدودة سيعدل غداً مُلك «هارون الرشيد»، ما أعجب تصارييف الأقدار و ما يأتي به الليل و ما يذهب به النهار، فإذا كانت قيمة شربة الماء يمكن أن تتفاوت هذا التفاوت الشاسع بين اليوم و الغد، فهل قيمة نسمة الحرية ثابتة؟

محال في كل الأحوال! محال أن تستوي حرية الأخذ مع حرية العطاء، محال أن تستوي حرية الهدم مع حرية البناء، محال أن تستوي حرية القبح مع حرية الجمال، محال أن تستوي حرية الظلمات مع حرية الأنوار، محال أن تستوي حرية الأبدان مع حرية الأرواح، و لكن رغم كل ما سبق تستوي حرية الكفر مع حرية الإيمان!

ما قيمة حريتك في الكلام إن كان من تحدّثه أصم؟ ما قيمة حريتك في السماع إن كانت من تشدو لك قد وقعت أسيرة الهم؟ ما قيمة حريتك في الحركة إن كانت حبيبتك تن في القيد؟ و على الصعيد المقابل، كم تعدل حريتك في نهار تزيل فيه السد؟ كم تعدل حريتك في مساء تبني فيه المجد؟ كم تعدل حريتك في ليل تصنع فيه الغد؟

لا شك أن هناك أوقات تصبح فيها الحرية كالماء والهواء،
وهناك أوقات تصير فيها الحرية و عدمها سواء، والسؤال يا
«عادل» بينما نحن في سجن الكهف: في أي الأوقات نحن الآن؟
هـب أننا لا نواجه مشكلة في الماء والغذاء، ما القيمة الحقيقية
لتحررنا من أسر الكهف؟ هل إذا بقينا فيه حتى ينقطع الرجاء،
ستفتقدنا الأرض أو ستبكي علينا السماء؟

إياك يا «عادل» إن قدر لك النجاة، واستعدت حريتك
المفقودة، أن تجعل قيمتها بعد عودتها كما كانت قبل فقدها، هذا
ما وجدته في خلده أثناء جلسته القرفصاء.

*** **

جلس «ماجد» محتباً قرب مدخل الكهف كأنها يريد أن يكون
أول من يرى الصخرة إذا ترحلت بقوة من الأرض أو بمعجزة
من السماء، ثم لم يلبث أن عقد ساعديه فوق ركبتيه وأسند
جبهته إليهما وأخذ يعيد ترتيب مفردات الموقف في عقله ليستعد
لمواجهة المعركة القادمة، و بعدما أطال النظر في العاقبة والمآل و
قلب الاحتمالات ذات اليمين وذات الشمال، رسخ في قناعته أن
المعركة القادمة ليست النضال في سبيل الحرية وليست الكفاح
من أجل البقاء وإنما الجهاد للحفاظ على الإنسانية، عندما تشتد
الحاجة ويصلوا إلى درجة الاضطرار ستختل العقول وتضطرب
الأخلاق و يزول البرزخ بين الإنسان والحيوان، و عندها
سيصبح هذا الكهف هو الدنيا وما فيها، و ستصبح الحرية
داخله مطلقة خاصة مع فقدان الأمل في النجاة وفقدان الخوف
من الحساب، عندها يمكن للواحد منا أن ينهب قوت صديقه

و يسفك دم أخاه و يغتصب عرض زميلته، بدون الاستمساك
بالإنسانية سيصبح الكفاح من أجل البقاء محكوماً بشريعة
الغاب حيث البقاء للأقوى، و سيصير النضال من أجل الحرية
في جوهره استعباداً للآخرين ليس إلا، لكن إذا كان الحفاظ على
الإنسانية يتطلب ضمانات من الأحكام المنطقية و القيم الأخلاقية
و الجوع يذهل العقول و القنوط يغتال الأخلاق، فأين المفر؟ و
كيف السبيل؟ و متى النجاة؟

لا بد من ضمانات أخرى تساعدنا على الاستمرار داخل الدائرة
الإنسانية و تمنع تسلط الغرائز الحيوانية على سلوكنا حين تشح
مقومات الحياة، فنحن لا نريد في معركتنا القادمة الحرية الممزوجة
بالدماء، و لا نبتغي مجرد البقاء أحياء و إنما أن نحيا أسوياء، فما
هي تلك الضمانات؟ ربما هي الإرادة، ربما هو الإيمان!

إياك يا «ماجد» أن تنكسر إرادتك أو أن يلتوي إيمانك، و إن
أدمت القيود التي تكبل حريتك الآن بنيتك فياكنك إياك أن تجعلها
تُدمي آدميتك، هذا ما جاس في نفسه بعدما طرق على ساعديه
برأسه.



استلقى «عاطف» على ظهره في ركن من أركان الكهف فوق
البساط المفروش، عاقداً كفيه تحت رأسه ناظراً إلى السقف
الصخري، يفكر كيف انتقل حلم الحرية بين الأمس و اليوم من
مرتبة الحاجات إلى مرتبة الضرورات، فما كان بالأمس حاجة من
الحاجات الإنسانية أصبح اليوم ضرورة حياتية، كان بالأمس يظن
أن الحياة ممتدة أمامه أعواماً طويلة ليحقق فيها حلمه بالحرية

حتى ينتقل إلى الحياة الأخرى و قد استعداد لحظة البراءة الأصلية لحظة الميلاد، و اليوم يدرك أنه إن لم يحقق حلمه خلال أيام قليلة ضاعت فرصته و فقد عمره، حينئذ شعر بشعور الطالب الذي استغرق في حل السؤال الأول من الامتحان و لم يفق من استغراقه إلا على صوت المراقب و هو يعلن أنه لم يبق من الوقت سوى خمس دقائق و يتم سحب الأوراق، مزيج من الحسرة و الحيرة و اليأس و الفزع و الاضطراب و الغضب، و عندئذ تتراوح ردود أفعال الطلاب من تمزيق ورقة الإجابة، إلى الانهيار و البكاء، إلى استجداء المراقب، إلى ترك القلم و دفن الوجه في الكفين، إلى الخروج من اللجنة، إلى ما شابه ذلك أو قاربه، أما هو فلن يقدم على شيء مما سبق، و إن كان امتحانه قد أوشك على الانتهاء، و حياته قد أوشكت على الفناء، فليكن ذلك بشرف، كل ما سيفعله أنه سيقسم ما تبقى من الدقائق على ما تبقى من الأسئلة، و سيكتب في كل إجابة جملة واحدة يفهم منها المصحح أنه يدرك مغزى السؤال و لديه مفاتيح الإجابة و لكن الزمن لم يسعفه، ثم إذا جاء المراقب لسحب الأوراق فلن ينازعه و لن يستجديه و إنما سيسلم ورقته شريفاً عزيزاً.

إياك يا «عاطف» أن تفقد شرفك أمام نفسك، و إياك أن تفقد عطفك على من حولك، و امض حين تمضي واقفاً على قدمك رافعاً رأسك لا مكباً على وجهك، هذا ما تحرك في وجدانه و هو شاخص ببصره مستلقياً على ظهره.

*** **

لم تتمكن «سارة» من الجلوس لشدة توترها، فظلت تسير في الكهف على غير هدى، تخطو خطوات إلى الأمام ثم تعود أدراجها، تنعطف يمنة أحيانا وتنحرف يسرة أحيانا أخرى، لم تكن تبحث عن «ماذا» وإنما عن «لماذا»، لم يكن يشغلها التفكير في ماذا لو؟ وماذا بعد؟ بقدر ما كان يؤرقها لماذا كان ما كان، ولماذا يكون ما يكون؟ لماذا يعطي بعض البشر أنفسهم الحق في تقرير مصير غيرهم؟ أخبرتك بالأمس يا «حورية» إنها القوة ليس إلا، ولكنك لم تُصدقي، واليوم وجد أحدهم لديه القدرة على حبسنا فحبسنا.. لماذا..؟ لماذا..؟ ربما ليهلكنا، ربما ليراقبنا، ربما لينتقم منا لشيء لا نعلم عنه شيئا، أو لأي سبب أحق تفتق عنه ذهن هذا الأخرق.

أعلم ما ستقولين يا «حورية»، ستقولين: ليس للبشر أن يقرروا مصير البشر، إنما هو القدر. لكن «لماذا» لا يكفيها هذا، فما زلت أراها قائمة شاخصة، ناظرة حاضرة، تعيد السؤال و تنتظر الجواب، لماذا لا بد من وجود قوة ما أو جهة ما تتحكم في مصائر البشر؟ لماذا لا نقرر مصائرنا بأنفسنا و نأخذ أزمتهنا بأيدينا؟

أهل الدول المتقدمة يزعمون أنهم يفعلون، ويدعون أنهم في مصيرهم و مصير غيرهم يتحكمون، و أنهم على أرضهم قادرون، لكن هل هم صادقون؟ بالأمس كنت على اليقين من ذلك، فكل الشواهد تخبر أنهم يفعلون ما يقولون، و ينفذون ما يخططون، و يُقسمون و لا يستثنون و مع ذلك ينجحون و ينجزون، لكن اليوم و بعدما قرأت ما قرأت مما كتب جدك يا «حورية»

أدركت أن هناك من يلعب في حيواتنا أدواراً لا يمكن تجاهلها أو إنكارها، ولا يستقيم أن ندعي أننا أصحابها، فصالحُ الشك و خاصمتُ اليقين.

لكن الشك مرير، والنفس تميل، تميل إلى اليقين وإن كان كاذباً وتفضله على الشك وإن كان صادقاً، لأن الأول يدفعها أن تستريح وتستكين والثاني يحثها أن تكمل البحث والمسير، والأول يبشر بالاستقرار والثاني ينذر بالانفطار، ولذلك أريد العودة لليقين، أريد أن أعرف أيهما السبب وأيها النتيجة؟ هل أقدارنا نتيجة أفعالنا أم أفعالنا ناتجة عن أقدارنا؟

والآن في موقفنا هذا العصيب أجد الفرصة سانحة للتجريب، سأقرر ثم أنظر، سأقرر الخروج من المأزق والتحرر من الأسر وسأسير نحو هذا المصير، ثم سأنظر هل سيستجيب القدر أم سيأبى الليل أن ينجلي ويأبى القيد أن ينكسر؟

هذا ما صال و جال في سرها وهي تتردد ذهاباً وإياباً في أسرها.



انتهت «جميلة» من نوبتها في عد الأنفاس، فتنفست الصعداء، وشعرت بعظم الفارق بين من يتنفس ليحيا ومن يتنفس ليحسب الوقت الذي مضى من عمره، وبين من يتنفس تكلفاً ومن يتنفس سجية، وأحست بخطورة عد الأنفاس والنظرات والخطرات والسكنات والحركات ثم المحاسبة على كل ما فات، وتذوقت نعمة حرية التنفس، نعمة أن تتنفس ولا تدرك أنها

تتنفس، جميل أن تفعل الصواب و تأتي الخيرات و لا تدرك أنك فعلت هذا و لا أتيت تلك، فأسرعت جذلة إلى صديقتها «سارة» لتسلمها نوبتها التي تحررت منها منذ لحظات، ثم جلست تستمتع بالاسترخاء.

الجميل في شخصية «جميلة» أنها بسيطة، تفر من التركيب و تنفر من التعقيد، و لذلك لم تقف طويلاً أمام «ماذا» و «لماذا» و كيف حدث هذا؟ فقد كان المشهد أمامها واضحاً بسيطاً فلم تستغرق كثير وقت لتدرك أنه لا رجاء في الخروج من مأزق الكهف دون تدخل من السماء، هذه النتيجة يمكن الوصول إليها ببساطة سواء أكان هذا المأزق بفعل البشر أم بحكم القدر، صحيح أن هناك خمسة أشخاص خارج الكهف يعلمون علم اليقين أنها و من معها أضحووا سجناء داخله، لكن هؤلاء الأفراد إما متورطون في ضرهم و إما عاجزون عن نفعهم، لا شك عندها في ذلك، و هذا يؤكد رؤيتها بشدة حاجتهم إلى تدخل السماء عسى أن يرعوى المتورطون و يقدر العاجزون و يتحرر المأسورون.

هذا ما تردد في ضميرها فأدركت أن الأسئلة الفلسفية و التأملات المنطقية بل و حتى الأمانى القلبية و الآمال النفسية لن تغني عنهم شيئاً، كما أنها لن تجدي نفعاً مع موجة البلاء القادمة، هذه الموجة لن تبعدها السباحة و لن تصدها المقاومة، و ليس لها إلا الدعاء و التضرع، و عندما وصلت إلى هذه النقطة من التفكير اختصرت السبيل فتحولت من جلستها إلى جلسة التشهد و رفعت يديها إلى السماء و شرعت في التضرع و الدعاء.

*** **

بين الفنية و الفنية كانت «حورية» تتأمل فيما يواجهها و فيمن يرافقها، و تمكنت من التعرف على بعض أحوالهم من مشاهدة صورهم و أعمالهم، فهذه ثائرة حائرة متوترة، و تلك ساكنة ضارعة مستسلمة، و هذا يتأمل تأملات منطقية و يجري في ذهنه مقابلات فلسفية، و ذاك يعزي نفسه و يصبرها و يشحذ قواه العاطفية، و الثالث مهموم بما حمل من المسؤولية، و الأخير يحاول ألا يفقد القيم الأخلاقية و الإرادة الإنسانية.

عجيب أمرنا، فنحن في نفس المكان و ذات الزمان، أعمارنا متقاربة، دراستنا متماثلة، و نخوض الآن نفس الامتحان، و مع ذلك كل منا في شأن، و كل مناله حال.

نعم كل مناله حال، و هذه أحوال من حولك يا «حورية»، فما حالك أنت؟ هل الحرية حقيقة أم خيال؟ و هل نحن أحرار حقاً أم نتوهم أننا أحرار؟ هل دورنا في الحياة أن ننفذ ما نريد أم أن ننفذ ما أريد لنا؟ تذكرت بعض الأبيات، جمع الشاعر فيها بين المتناقضات، فقالت في نفسها: يبدو أننا نتردد بين هذا و ذاك، فصاحب الأبيات في أولها يدعو إلى الحرية و هجر الأرض و ترك الديار، و في آخرها يؤكد أنك إن استجبت فما ذاك إلا لأنه لا خيار، فكأنما يريد أن يقول: عليك أن تخطو خارج دائرة الذل و خطواتك هذه مكتوبة عليك، أي أن الإجبار إنما هو على الاختيار، فأنت مجبور على أن تختار، و الاختيار اختيار، فأنت مقهور على أن تختار.

عجبت لمن يقيم بدار ذل .. و أرض الله واسعة فضاها

فذاك من الرجال قليل عقل .. بليد ليس يدري ما طحاها

فنفسك فز بها إن خفت ضيماً .. و خلّ الدار تنعى من بناها
فإنك واجد أرضاً بأرض .. ونفسك لا تجد نفساً سواها
مشيناها خطى كتبت علينا .. ومن كتبت عليه خطى مشاها
ومن كانت منيته بأرض .. فليس يموت في أرض سواها
و أرزاق لنا متفرقات .. فمن لم تأته منا أتاها

إذا كانت الحرية حقيقة فلن تختلف باختلاف الزمان و المكان،
و لن تختلف داخل الكهف عنها خارجه، و لن تتغير ماهيتها بين
الدنيا و ، فمن يعيش حرّاً في الأولى يعيش مَلِكاً في الثانية، و من
يكن في هذه مقيداً فهو في الآخرة الآخرة أشدّ تكبيلاً.

كان هذا ما تعتقده قبل أن يحل الكهف عقائدها الموهومة، و
يسلب حريتها المزعومة، فكثير من الدعاوى التي يدعيها البشر و
المزاعم التي يزعمونها لا تصمد أمام الكهوف المظلمة المغلقة، تلك
الكهوف مهمتها هدم المعتقدات و سحق الحريات، و عادة ما تنجح
في مهمتها خاصة مع الذين يدخلونها على غير هدى و يسиров
فيها بلا زاد ولا بصيرة، أما مع الذين يساقون إليها بيد الرعاية و
عين العناية فلا تزداد عقيدتهم إلا رسوخاً و لا حريتهم إلا شموخاً.

من أي الفريقين أنتِ يا «حورية»؟ أحسب أنكِ من كليهما،
فللهولة الأولى تلاعبت بك الأمواج في كهف الظلمات، حتى
شعرتِ أن ما عقدته ينحل، و ما جمعتّه يتفرق، و ما شيدته
ينهار، ثم امتدت إليك يد الرعاية، و أضاء لك مصباح الهداية،
فإذا ما انحل قد انعقد بإصرار، و ما تفرق قد اجتمع بإحكام،
و ما انهار قد قام و علا عما كان، فعلمتِ أن الرحلة ما زالت في

البداية، و تذكرت الوصايا، و أدركت أنك لابد أن تركبي سفينة النجاة، و عليك أن تحطمي أصنامك و تلقي عصاك، و لكن متى؟ و كيف؟ هذان هما السؤالان.

*** **

فتح «ماهر» مقدمة السيارة و أخذ ينظر إلى المحرك و الأسلاك بحيرة، و لم يكن لديه معرفة بميكانيكا السيارات البتة إلا أن العديد من أفلام الحركة التي شاهدها تؤكد أنه يمكن تشغيل السيارات بتوصيل سلكين ما في مكان ما بطريقة ما، حاول أن يجد هذين السلكين لكن هيهات، فالأمور في الحقيقة لا تجري على هوى مخرجي الأفلام، حاول أن يعث ببعض الأسلاك و هو يخطب خطب عشواء عسى أن تحدث المعجزة و يعزف المحرك أعذب الألحان لكن دون جدوى، فأغلق غطاء المحرك بعنف و هو يصيح: لا فائدة.

حاولت الفتاتان أيضا إدخال بعض أدوات تقليم الأظافر أو تثبيت الشعر مكان مفتاح السيارة لتدوير المحرك لكن بلا طائل، و بعد أن يؤس ثلاثتهم ثلاثاً قالت ليلي: فلننتقل إلى الخطوة باء.

«ماهر»: بل سننتقل إلى الخطتين باء و جيم في نفس الوقت.

«حنان»: ماذا تقصد؟

«ماهر»: ننقسم إلى فريقين، فتذهب إحداكن لتفقد موقع الكهف ربما في ضوء النهار يمكنها أن تكتشف منفذا آخر له أو وسيلة تواصل مع أصدقائنا داخله أو نقطة ضعف في الصخرة الجبارة، أو على الأقل تجمع ما تناثر حوله من الطعام أو الأدوات

التي قد نحتاجها، ثم سكت برهة وأضاف: ولتبقى الأخرى
معي لتساعدني في اقتفاء أثار سيارة الدكتور، فلن يمكنني القيام
بهذه المهمة وحدي مع إصابة ساقي وقدمي.

«ليلي»: فكرة جيدة. سأذهب أنا لتفقد موقع الكهف و ما
حوله.

«حنان»: لا بأس. و أنا سأرافق «ماهر».

افترق الفريقان، فانطلقت «ليلي» نحو الكهف، و بقي «ماهر»
و «حنان» في موقع السيارتين يحاولان اقتفاء أثر المقطورة، كانت
أثار السيارتين واضحة إلى حد ما ويمكن التمييز بينهما بسهولة
فهناك فارق واضح في حجم و عدد الإطارات و نظراً لأن المنطقة
مهجورة منذ فترة فلم توجد أثار أخرى تتداخل مع أثار سيارتي
«ماجد» و «د. ليب»، كما ساعدت الأمطار التي هطلت البارحة
على تحويل الرمال إلى طين فأصبحت الأثار أكثر بروزاً، لكن
واجهتهما مشكلتان: الأولى تحديد الاتجاه، فقد كانت هناك عدة
اتجاهات لأثار الإطارات مما يوحي أنها تحركت في أكثر من
اتجاه و أن قائدها كان يبحث عن موقع ما أو أنه انتقل بها أكثر
من مرة في الليلة السابقة، و الثانية تحديد المسافة، فهما يريان
الآثار لكن لا يعلمان أين ستنتهي.

تغلبا على المشكلة الأولى بطول النظر و تصفية الاحتمالات إلى
أقل ما يمكن ثم بالتجربة و الخطأ، و تغلبا على المشكلة الثانية
بالصبر على السير و تحمل المشقة ثم بالأمل في قصر المسافة،
و بعد ساعتين من المثابرة على ما سبق، وصلا في النهاية إلى
طريق متدرجة الارتفاع تنتهي بهضبة عليها بعض الشجيرات

و في وسطها يمكن تمييز المقطورة بشيء من الصعوبة، فصاحت «حنان»: ها قد نجحنا.

تنفس «ماهر» نفساً عميقاً وأجابها وهو يخرج زفيره: نعم.. أخيراً.

كانت المسافة التي تفصلهما عن المقطورة حوالي المائتي متر، وكان الجهد قد بلغ منهما كل مبلغ، لكن رؤية المطلوب وتحقيق الأمل، بعثا العزيمة في روحيهما، وجددا القوة في جسديهما، فانطلقا بأقصى سرعة تسمح بها إصابة «ماهر»، حتى لم يبق سوى مائة من الأمتار على بلوغ المرام، اشتعلت الحماسة في صدر الفتاة فأنستها الحيلة والحذر ونادت بأعلى صوتها: يا دكتور «لييب».. يا دكتور «هانئ» أدركانا.

بقدر ما اشتعلت الحماسة في صدر الفتاة بقدر ما اشتعل الغضب في فؤاد الفتى، كانت «حنان» تسبقه بعدة خطوات نظراً لحماستها وإصابته لكنه تحامل على نفسه وقفز على ساقه السليمة قفزة طوى بها المسافة بينه وبين رفيقته، وفي اللحظة التالية كان يجذبها من يدها بيد ويغلق فمها بالأخرى وهو يقول بصوت منخفض لكن ممتلئ بمزيج من الغيظ والحسرة: أتريدين أن يهربا نزلة أخرى!

في اللحظة التي وصلت فيها صيحة «حنان» إلى المقطورة كان «لييب» يراقب ما يدور في الكهف والقرب منه «هانئ» مقيد في مقعده، استطاع الثاني أن يميز الصيحة وانتعش أمله في النجاة، لكنه أدرك أن صاحبه يمكنه أن يقضي على هذا الأمل في دقائق، فاصطنع العطاس على الفور ليغطي على صيحة الفتاة من ناحية

وليشئت رفيقه من ناحية أخرى، ثم صاح بعدها مباشرة: ألم
يأن لك أن توقف هذا العبث؟ ألا تشعر بخطورة الموقف و ما
يعانيه الشباب؟

كان انشغال «لييب» بمتابعة ما تنقله الكاميرا من داخل
الكهف مانعاً له من تمييز الصيحة بوضوح، لكنه مع ذلك
سمع جلبلة ما، وشعر أن شيئاً ما يجري، فنظر إلى «هانئ» و
تجاهل التعليق على كلامه وقال: ما هذا الصوت؟

«هانئ»: لا يوجد هنا من يصدر الأصوات سواي، وقد
عطست آنفاً.

نظر «لييب» إليه بعينين تملؤهما الريبة وقال: هناك صوت ما
خارج المقطورة.

«هانئ»: ربما أحدى الغزلان أو أحد الأرانب.

لم يعره «لييب» اهتماماً وقام مباشرة و أزاح الستائر لينظر
من شبك المقطورة في الاتجاه الذي جاء منه الصوت مستخدماً
النظارات المكبرة، وفي تلك اللحظة كان «ماهر» يشير لرفيقته أن
تخفض رأسها وتنبطح أرضاً مثله، فمرت عينا «لييب» فوقهما
و لم ترهما لأنهما كانا قد خرجا من مجال رؤيته، ورغم أنه لم
يلحظ شيئاً إلا أنه لم يطمئن، فقام متجهاً نحو باب المقطورة و
هو يقول: الاحتياط واجب، لا بد أن ننتقل إلى موقع آخر.

أدرك «هانئ» أن الفرصة في طريقها إلى الفوات، و قرر أن
يمنعه بأي وسيلة، فمد رجليه المقيدتين فجأة ليحول بينه و
بين الوصول للباب، ولأن الحركة كانت سريعة و مباغته فقد

فَقَدْ «لييب» توازنه و انكفأ على وجهه أمام «هانئ» الذي لم يرد أن يفقد زمام المبادرة فحاول أن يعالجه بركلة أخرى من قدميه المقيدتين، لكن «لييب» تدرج بسرعة ليتفادى تلك الركلة و نهض قائماً و هو ينظر بحنق إلى مهاجمه ثم صفعه قائلاً: لا تجعل الأمور تزداد سوءاً.

و في اللحظة التالية غادر المقطورة و قفز إلى غرفة القيادة و انطلق سريعاً لبحث عن موقع بديل للمرة الثالثة.

سمع «ماهر» و «حنان» صوت السيارة و هي تنطلق فرفعا رأسيهما، و بينما هي تتبعد ضرب «ماهر» الأرض بقبضتيه و هو يصيح: لا. ليس ثانية. في حين أطرقت «حنان» برأسها خجلاً و هي تنظر إلى الأرض في أسى.



انقضت الليلة الأولى في الكهف و مرت الساعات الأولى من نهار اليوم التالي، و قام «عادل» بتوزيع الوجبة المقررة على أصحابه، و استمرت مناورات حساب الزمان بعد الأنفاس في المكان، كان الدور قد وصل إلى «حورية» فاعتزلت في زاوية من زوايا الكهف لتقوم بمهمتها، بينما تحلق البقية لتناول غذائهم و مناقشة شئونهم. تجرع «ماجد» جرعة من الماء ثم قال: أحسب أنه قد غدا واضحاً أن النجدة لن تأتي من الخارج.

«عاطف»: إن كان قد تأكد لديك تورط «لييب» و «هانئ»، فالمؤكد لدينا جميعاً أن «ماهر» و «ليلي» و «حنان» ليسوا متورطين، و لن يدخروا وسعاً لعوننا، و لا يزال الأمل معقود عليهم.

«عادل»: لو صحت نظرية الجنون العلمي التي اقترحها «عاصم»، فالأمل كبير لأن الأمر في هذه الحالة لن يعدو كونه تجربة من بدأها سينهئها بعدما يحقق غرضه ثم يطلق سراحنا، فما علينا سوى الانتظار.

«عاصم»: لا يمكننا الاطمئنان إلى هذا الاحتمال، فهي تجربة من ناحية و من ناحية أخرى جريمة تضعه تحت طائلة القانون، وفرصته في الافلات تزيد إذا اختفى هو من على ظهر الأرض و اختفينا نحن في بطنها.

«عاطف»: هذا التصور يقتضي أن يكون الدكتور «لييب» على استعداد لقتل تلاميذه و التضحية بمكانته العلمية و مستقبله الأكاديمي في سبيل تجربة أو دراسة ما، و هذا احتمال أقرب إلى المحال، لماذا نلجأ إلى أعقد التصورات و أبعد الاحتمالات؟ هناك العديد من الاحتمالات الأكثر واقعية، فإزاحة تلك الصخرة يحتاج رافعة عملاقة أو حفار غاية في الكفاءة، و كلاهما لن يتوفرا قطعاً إلا في العاصمة أو المدن الكبيرة، و أقربها منا على مسافة شاسعة، ربما الأستاذان و الأصدقاء لا يزالون في الطريق، ربما واجهتهم بعض العوائق، ألف ربما و ربما.

«سارة»: مهما يكن من أمر الخارج، فلن يمكننا التيقن منه أو التحكم فيه، فعلياً أن نوجه أفكارنا و جهودنا إلى الداخل، و لنجعل نقطة البداية من داخل الكهف لا من خارجه.

«جميلة»: دعكم من الانشغال بالخارج أو الركون إلى الداخل، انفضوا أيديكم من الأرض و وجهوا قلوبكم إلى السماء.

«سارة»: ها قد بدأنا نعيد تاريخ أسلافنا، هكذا البشر كلما شعروا بالعجز أحالوا الأمر إلى ما وراء الطبيعة، كما فعل أجدادنا في بغداد عندما اقتربت جحافل التتار من عاصمتهم، فشرعوا في قراءة صحيح البخاري ظناً منهم أنها عاصمتهم. ثم أضافت: كان الأولى بهم سل الصفائح لا فتح المصاحف.

«عاصم»: رائعة كعادتك في الخلط و التلبيس، يا عزيزتي: كل ميسر لما خلق له، و كل فئة لها دورها، سل السيوف و الحمل على الأعداء و وظيفة الأمراء و الجنود و المتطوعين الأقوياء، أما الضعفاء الذين لا يملكون حيلة و لا يجدون سبيلاً فماذا تريدون منهم أفضل من التضرع و الدعاء. و إن كان السوس قد نخر في بلاط الدولة العباسية و تكالبت عليها عوامل الهدم من الداخل و الخارج، و لم يقم الوزراء و الأمراء بدورهم، فليس هذا مبرراً للاستخفاف بمن قام بدوره، و إن لم يكن هذا الدور كافياً وحده في وقف الانهيار و منع السقوط.

«ماجد»: و على كل حال فقد وعى أجدادنا درس بغداد في عين جالوت، و جمعوا بين الحسينين، فكان العلماء يدورون على الجنود في جبهات القتال يعلمونهم سورتي التوبة و الأنفال.

«سارة» في ضجر: يعني ما المطلوب الآن؟

«جميلة»: اقترح أن نتوسل إلى الله بصالح الأعمال كما فعل أصحاب الغار.

«عادل»: أو تظنين أن ذلك ينجح؟

«عاطف»: ولما لا؟

«عاصم»: و ما المانع من التجربة؟

«ماجد»: ليس لنا أن نختبر السماء، إما أن نقدم على هذا الأمر ونحن موقنون بصوابه وإما أن نحجم فلا نخوض فيما لا نحسن.

«عاطف»: الدعاء ليس اختباراً للسماء، إنما هو توجه و رجاء.

«عادل»: لا أظن أن الأمور تسير على هذا النحو، و لا أعتقد أن ما حدث مع أصحاب الغار بالأمس يتكرر معنا اليوم، فلسنا في زمان المعجزات.

«عاصم»: نحن لا نبحث عن المعجزات الخارقة بل عن السنن الجارية، التي إن توافرت أسبابها لم تتخلف نتائجها.

«ماجد»: هذا هو بيت القصيد، كيف لنا أن نقرر أن حالنا كحالهم و أن ما لدينا من الأسباب هو عين ما كان لديهم، بل أظن أنهم لم يكن لديهم من الأسباب شيئاً.

«عاطف»: و ماذا لدينا نحن منها؟

«عادل»: صدقت.

«ماجد»: بل لدينا بعضها داخل الكهف - و أشار إلى صندوق الأغذية - و بعضها خارجه - و أشار يقصد أصدقاءهم - لكن في النهاية نحن بحاجة ماسة إلى السماء و من أسباب الوصول إليها الدعاء.

«سارة»: و هل لديكم أيضاً الأعمال الصالحة التي ستتوسلون

بها؟

عسبت الوجوه، وأطرقت الرؤوس، وخيم الوجوم على
الحضور، ثم همس «عاطف» قائلاً: أما تلك فلا.

«جميلة»: لعلكم تفكرون في عظام الأمور ومعالي الدرجات،
يا إخواني الله كريم، والكريم يقبل الكبير والصغير، ويكافئ
على العظيم والحقير، فلا تحقرن من المعروف شيئاً.

«سارة»: أنا لن أشارك في هذه اللعبة.

«جميلة»: أنت وشأنك.

«عاطف» بشيء من السخرية: كما ترين يا عزيزتي، نحن هنا
نتمتع بأعلى قدر من الحرية، فالحرية في الكهف مطلقة، فلن
يرغمك أحد على المشاركة.

نظرت «سارة» إليهما ولم تعقب، فساد الصمت من جديد و
استمر وامتد حتى قطعه «عاصم» بقوله: لقد مررت على ما
مري من السنين فما وجدت حتى هذا الشيء الصغير اليسير
من المعروف والعمل الصالح، إلا إنني كنت في زيارة لقريب لي
في المستشفى التعليمي الشهير في مدينتنا، فتفاجأت وأنا في طريقي
للمغادرة بسيدة عجوز ملقاة بجوار الدرج المؤدي للمستشفى،
فأسرعت إليها وأنا أشحذ عضلاتي وأستنفرها لحملها، فلما
رفعتها من الأرض هالني خفة وزنها حتى ظننت أنني إنما أحمل
شبحاً أو خيلاً، نظرت إلى وجهها نظرة خاطفة فوجدته نحيلاً
ذابلاً وكانت لا تستطيع الكلام لكنني قرأت في عينيها نظرة
امتنان، فهرعت بها إلى داخل المستشفى لأستغيث بأطبائها، لكن
ما أن تقدمت خطوات قليلة حتى لقيت قريباً لها آتياً من داخل

المشفى يسوق أمامه كرسيّاً متحركاً، ففهمت أنه تركها عند الدرج ليحضر ما ينقلها عليه، فلما أبصرني أحملها بين ذراعي تهلل وجهه وأقبل علي يشكرني ويلتقطها من بين ذراعي ليضعها على الكرسي ويمضي، سلمتها له واتبعتها بصري وأنا أفكر هل انتهى دوري عند هذا الحد أم أن علي أن ألحق بهما، فلم وصلاً إلى غرفة الكشف وأقبل الأطباء عليهما، غلب على ظني أنه لا حاجة في وجودي معهما، فانصرفت وأنا أشعر بنعمة الله علي أن أذن لي في حمل تلك العجوز النحيفة المريضة الطيبة للحظات قليلة.

التفتت الوجوه إلى مدخل الكهف، و تعلقت الأبصار بالصخرة، وانحبست الأنفاس لترى هل ستترجح قيد أنملة؟ هل سيرون شعاعاً من الضوء أو بصيصاً من الأمل؟ إلا أن شيئاً من هذين لم يحدث، وبقي الحال على ما كان.

رغم أن «سارة» كانت متأكدة أن شيئاً ما لم يحدث، إلا أنها لم تستطع أن تمنع نفسها من الالتفات لمدخل الكهف والنظر إلى الصخرة، مما جعلها تشك في يقينها للمرة الثانية، لكن لما مرت دقائق ولم يتغير من الواقع شيء عاد إليها يقينها، فاستجمعت عنادها وقالت: يبدو أن السماء لم تقبل قربانك يا «عاصم».

أعرض «عاصم» عن جوابها، فلم يكن يريد جدالها، فأناج عنه «ماجد» وأجاب: لا يمكن لأحد أن يدعي العلم بما قبلت السماء وبما لم تقبل إلا إذا كان على صلة بها، فهل جاءك الوحي منها؟

«سارة»: لا. لكن الكتاب يعرف من عنوانه.

«عادل»: ليس دائماً، هناك ما لا يعرف ولا يدرك إلا مع النهاية.

«جميلة»: إذن فلنكمل ولنأمل في الفرج.

تنحنح «عاطف» ثم قال: كنا في إحدى المدن الساحلية الصغيرة التي اعتدنا الاصطياف فيها، وكنت أتناول العشاء في الشرفة عندما سمعنا صوت بكاء طفل صغير، وبعد الصوت بلحظات رأينا صبيّاً لا يتجاوز الخمسة أعوام يسير على غير هدى وله نسيج وشهيق، نادينه فلم يستجب بل حاول أن يبتعد، أغلب الظن أنه أخذه الخوف منا رغم حاجته إلينا، أدركنا أنه ضل الطريق وتاه عن أهله، فأرسلت أخي الأصغر في أثره خشية أن يصاب بأذى أو يقع في يد شرير، لحق به أخي وهدأ من روعه ووعده بالمساعدة حتى اطمأن له وعاد معه، لحسن الحظ كان الصبي ذكياً وكان يحفظ رقم الشارع الذي يقطن فيه أهله، فوعده أني سأعيده إليهم، فلما هممت بالقيام، قالت لي شقيقتي: أكمل عشاءك أولاً ثم انزل معه، لن يستغرق ذلك دقائق. وقع مني قولها موقِعاً حسناً فقد كنت جائعاً، فعدت إلى الجلوس، لكن نظرة الحسرة والعتاب واللهفة على الانطلاق في عيني الولد أذهلتني عن الطعام وجعلتني انطلق معه من فوري، وصلنا إلى الشارع وبدأنا في تفقد المنازل، ولم تمض دقائق حتى لمحته الأم الملهوفة من الشرفة في الطابق الأول وكانت المنازل مصممة في تلك المدينة بحيث أن الدرج ينتهي إلى الشرفة مباشرة فدعته فترك يدي وانطلق يصعد إليها وثبت هي تنزل إليها فالتقيا على الدرج فالتقطته وضمته إلى صدرها وهي تصعد

به كرة أخرى، ثم انتبعت إلي فشكرتني، فأشرت للصبي بيدي مودعاً، ورجعت قرير العين بما أنعم الله علي وعليه.

تكرر مشهد الالتفات للمدخل و التطلع إلى الصخرة بنفس الكيفية و نفس النتيجة، ثم عاد السكون إلى الحضور حتى بدأ «ماجد» في سرد قصته، فقال: سافر أبي للعمل في إحدى الدول العربية، و التحقت بإحدى المدارس الثانوية فيها، و كان مدرس الموسيقى له العديد من الأنشطة الفنية و الثقافية خارج المدرسة فدعا الطلاب لحضور حفل في أحد الأندية الثقافية سيقوم فيه بإنشاد قصيدة مشهورة من قصائد شعر المدرسة الرومانسية قام بتلحينها، فاتفقت مع زميلين لي على الذهاب، و بعدما انتهى الحفل و في طريق عودتنا، طلب منا أحد الزميلين الانتظار ريثما يشتري شيئاً ما، و اشترط علينا أن نحافظ على السر متى اطلعنا عليه، ظننته يمزح و لم أشك في شيء، و لكن بعد دقائق عاد و معه زجاجة جعة، فاضطرب زميلي الآخر و بدا عليه القلق، فأخذ الأول يسخر منه و من ضعفه و جنبه، تعجبت من اطلاعه لي على سره و العلاقة بيننا لم تتوثق بعد و أنا مجرد زميل جديد من بلد بعيد، و مع ذلك لم يكن في نيتي هتك ستره و فضح سره، و لكنني شعرت أن هذا الفعل يتحدى مبادئني، و أنني إن بقيت مكتوف اليدين فقدت شيئاً من احترامي لنفسني و من احترامي للقيم التي أعتنقها، فلاطفته حتى يسمح لي برؤيتها عن قرب و أوهمته أنني قد أصنع صنيعه، فتحمس لذلك و ناولنيها، فأرقتها كاملة و هو ينظر و لكن لم يقدم علي منعي ربما لأنه لم يرد أن يلفت الأنظار إلينا و نحن في الطريق العام، ثم افترقنا، و حين انصرفت لم أكن أشعر بالانتصار عليه بل بالانتصار على نفسي

لأنني لم أفرط في ما اعتنقت و لم أجبن عن المواجهة، فحمدت من أعانني على ذلك و وفقني إليه.

تكرر الالتفات إلى الصخرة و النظر، لكن بحماس أقل و أمل ضعيف، ثم أخذ الصمت يسود من جديد، حتى أخذ «عادل» دوره و شرع يحكي حكايته قائلاً: كنا في زيارة للمدينة المنورة، و ذهبت لصلاة الجمعة في الحرم النبوي الشريف، و كان المسجد مزدحماً كالعادة، و كلما مر الوقت زاد الازدحام، فلما أقيمت الصلاة و انتظمت الصفوف، لمحت رجلاً يسير بين الصفوف و هو يلتفت في جميع الاتجاهات باحثاً عن فرجة بين المصلين ليقف فيها و يؤدي الفريضة، لكن هيهات فلم يكن هناك موضع لقدم، و لم يحاول المصلون أن يفسحوا له مكاناً بينهم، نظرت معه أبحت له عن فرجة، فما وجدت غير صفوف لا نهاية لها من البشر، فأدركت أنه مهما مشى بين الصفوف فلن يجد موضعاً، و ستفوته الفريضة، و عند ركوع المصلين خلف الإمام لن يجد حتى موضعاً يقف فيه، عند هذه اللحظة من التفكير كان يمشي أمام الصف الذي أصلي فيه، و كان يبعد عني أمتاراً قليلة، فانتظرت حتى مر من أمامي فجذبتة من ذراعه و أقمته في الصف بجانبني رغم الزحام، فشعر المصلون حوالينا بما نعانیه فأخذوا يفسحون لنا يقدر ما يسمح المكان، حتى تمكنا جميعاً من الصلاة، و كانت من أجمل الصلوات التي صليتها رغم ضغط الزحام، و شعرت بالراحة و الامتنان.

هذه المرة لم تلتفت الوجوه و لم تتطلع الأبصار، فقد أدركوا أن لو حدث ما يأملون فسيشعرون و يعرفون.

عندما أنهت «حورية» حصتها من عد الأنفاس نهض «عادل» ليحل محلها، و عادت هي لتلحق بالحلقة التي يجلس فيها رفاقها، فقصوا عليها ما فاتها، فقالت: إذن فقد أفرغ الزملاء ما في جعبتهم و بقينا نحن صاحبات نون النسوة، و «سارة» ممتعة عن المشاركة، فادلي بدلوك يا «جميلة».

كانت «جميلة» هي صاحبة الاقتراح لكنها الآن تشعر بالفارق الكبير بين طرح الأفكار و تنفيذها، فاستغرقت برهة من الوقت لتستجمع شجاعته بشيء من الجهد، و حسمت أمرها بعد شيء من التردد، ثم قالت: أنهيت يوماً حافلاً من أيام الدراسة بالجامعة، و توجهت إلى موقف الحافلات للعودة إلى منزلي، و عندما صعدت إلى الحافلة وجدت مقعدين متجاورين خاليين، فتوجهت نحوهما و جلست على أحدهما سعيدة بأنني سأنعم بالهدوء و الراحة و الاسترخاء دون أن يكون بجانبني من يقتنص من مساحة حريتي أو يقترب من فناء خصوصيتي، على الأقل لبضع دقائق تفصلنا عن المحطة القادمة، و عندما مرت تلك الدقائق و أوشكت الحافلة على التوقف للمرة الثانية، نظرت من النافذة على من ينتظر الركوب، فلمحت فتاتين كانتا تتبادلان حواراً ممتعاً، استنتجت ذلك مما قرأته على وجهيهما من علامات المودة الممزوجة بالحماسة، و عندما صعدتا إلى الحافلة لم يكن هناك سوى مقعدين خاليين، أحدهما الذي بجانبني و الثاني بعد صفين من الصف الذي أجلس فيه، فتوقفتا عن الحوار و جلست إحداهما بجانبني بينما تقدمت صديقتها نحو المقعد الآخر، شعرت أن سعادتي منقوصة و أنني افتقد عطر الأنس و المودة الذي كان يفوح من حوارهما الذي رأيت جانباً منه لكن لم أسمع منه

شيئاً، فتخلّيت عن مكاني و أشرت للصديقة لتجلس بجانب صديقتها، فكافأَتني الأولى بابتسامة تشرق بالرضا، و الثانية بنظرة مفعمة بالشكر، و جلست مكان الثانية أنعم باجتماع الشمل و تواصل الود و عودة الأُنس.

«سارة» بتعجب: أهذا كل شيء!

«جميلة» ببساطتها المعهودة: أجل.

«سارة»: يعني أين المشكلة؟ كانتا ستكملان الحوار بعد النزول من الحافلة، يعني ما صنعتِ شيئاً، أنتِ حتى لم تقفي ليجلس غيرك.

تدخلت «حورية» قائلة: دقائق بل لحظات من الصداقة الصادقة و المودة الخالصة أراها ثمينة غالية، و أذكر مما قرأت في تاريخ أجدادنا أن صديقين في سالف الزمان فرقهما الموت، فغادر أحدهما الحياة و عاش الآخر حيناً من الدهر، و في إحدى المجالس بعد سنوات أخذ ندماءه يتمنون ما تشاق إليه قلوبهم و تطمح إليه نفوسهم، فلما جاء دوره، قال و هو يكاد يبكي: أتمنى ساعة مع فلان، يقصد الصديق الذي رحل قبله.

«عاصم»: صدقت.

«عاطف»: الآن فهمت لماذا كان جدي يوصني و ينصحنني إذا ذهبت إلى جمع من الجامع أو حفل من المحافل بعدم التفريق بين اثنين متآلفين و لا حتى بمجرد المرور بينهما.

«جميلة»: نعم فإن هذا قد يثير الاستياء و يشعرهما بعدم الارتياح.

«سارة»: ربما تكونوا محقين. ولنستمع الآن إلى الحلقة الأخيرة من «حورية» ما دام في العمر بقية.

«جميلة»: نعم احكي يا «حورية».. احكي يا «شهرزاد».

أطرقت «حورية» لحظات، ثم التفت إلى رفاقها وقالت: أهداني أبي طائراً بديعاً في يوم ميلادي العاشر، فأعجبني وأخذ جماله بزمam قلبي، فأحبته و عندما أحبته لم يعد لي مطلب سوى سعادته، و لا مقصد سوى صداقته، و أردته أن يشاركني جدي و لعبي، و لكنني أدركت رغم صغر سني أنه لن يتجاوب معي ما دام أسيراً، و لن يرفرف في سماء قلبي، و لن يعيش في جنة روعي إلا إذا حررته، فأطلقته، و عندما أطلقته فقدته، لكن قبل أن أفقده علمني درساً بليغاً و حكمة عميقة، علمني أن آفاق الحرية أوسع كثيراً مما نتخيل، و أن السماء أعلى كثيراً مما نعتقد، و أن ما تظن فيه نجاتك قد يكون فيه حتفك.

«عاصم»: ما هذه الألغاز؟

«سارة»: مرحى. يبدو أن هناك معترض غيري هذه المرة.

«عاطف»: أين العمل الصالح في تلك الواقعة؟

«ماجد»: ربما هو في التعلم من مخلوق ضعيف.

«جميلة»: بل أحسب أنه في الرغبة في إسعاد هذا الطائر المسكين حتى و إن لم تتحقق.

«عاصم»: أليس من الأفضل أن تجيب «حورية» على هذا

السؤال؟

«حورية»: صدقوني يا رفاق إن قلت لكم إن الحياة في طلب الحرية وقصد تحرير الآخرين من أجل الأعمال الصالحة في نظري.

«سارة»: ومع ما توصلتم به من أجل وأقل الأعمال، ورغم التضرع والدعاء في الصباح والمساء، لم ينصت لكم الكهف ولم تستجب لكم السماء.

«عاصم»: نتحدثين و كأننا وحدنا العالقون، و أنك قد تجاوزت الأزمة بهمتك العالية، أخبرينا بما أفادك تمردك؟ وكيف كانت مشاغباتك سبباً في نجاتك؟

«سارة»: على الأقل منعني من اللهث وراء السراب.

«ماجد»: عجيب أمركِ جداً! أي سراب هذا الذي تتحدثين عنه؟ نحن لا نفعل شيئاً للمرة الأولى و نتظر النتيجة، و إنما نفعل شيئاً مجرباً منذ الأزل، و أما على المستوى الشخصي فلا أحصي كم من مرة لجأت إلى السماء في الأزمات فأنكشفت.

«سارة»: أتعني أن قصة أصحاب الغار معهودة مألوفة مكرورة في كل زمان و مكان! إن كان حقاً ذاك فلما لم تستجب السماء هذه المرة؟

«عاصم»: ربما لأن حالنا لا ينطبق على حالهم.

«عاطف»: ربما لأننا لم نكون صادقين، أو لأن هناك نقصاً في إخلاصنا، أو لعلّة تقدر في قبول أعمالنا.

«جميلة»: ربما لم نلح و نتضرع بالقدر الكافي، أو لعلنا لم نصل بعد إلى حال الاضطرار.

«حورية»: و من أخبركم أنها لم تستجب؟

«سارة»: إن كانت قد استجابت فلما لم تتحرك الصخرة أيتها القديسة؟

«حورية»: لأن الإجابة تكون على النحو الذي تريد لا على النحو الذي نريد، وفي الوقت الذي تشاء لا في الوقت الذي نشاء، وليس الأمر بتلك السذاجة، أن كل من يسجن أو يجس أو يحصر يرفع يديه ويتفوه بكلمتين فينفك الحصار وينكسر القيد ويفتح باب السجن على مصراعيه، أخبرتك أن السماء أعلى بكثير مما تظنين أيتها البرنسيسة.

«سارة»: وماذا سنفعل الآن على كل حال؟

«ماجد»: سندبر أمرنا من جديد، ونفكر من جديد.

«عاطف»: ونحلم من جديد، ونحاول من جديد.

«جميلة»: ونراجع أنفسنا من جديد، وندعو ونتضرع من جديد.

«عاصم»: ما زال في جعبتنا قدراً لا بأس به من المثابرة والمصابرة.

حل المساء وانفض اجتماع الرفاق، و تفرقوا في أرجاء الكهف مثنى وفردى، يتفكرون أو يتسامرون، في انتظار ما يكون، و وجدت «حورية» الفرصة سانحة لتكمل القراءة في مذكرات جدها، فجلست بجانب المصباح وأخرجت الأوراق لترى ما كان من شأن الجد والغلّام.

*** **

بينما كانت «ليلي» في طريق عودتها بعد انجاز مهمتها في تفقد موقع الكهف و ما حوله، التقطت أذناها صوت هدير سيارة تقترب، و ما هي إلا لحظات حتى ظهرت المقطورة تسير في مسار متعرج على طريق غير معبدة، همت أن تعترض مسارها و تلوح لقائدها طلباً للمساعدة لولا أن لاحظت أنه يحاول السير بسرعة و كأنها يفر من مطارد، و تذكرت شكوكهم في تورط أستاذيها فيما أصابهم فاستنتجت أنه على الأرجح يفر من زميلها، فبدلاً من الإشارة بيديها نكصت على عقبيها و اختبأت خلف شجرة حتى مرت السيارة ثم شرعت في مراقبتها و محاولة مطاردتها.

كان «لييب» يحاول الإسراع بالمقطورة لكن نظراً لكبر حجمها من ناحية و وعورة الطريق و ضيقها من ناحية أخرى و رغبته في عدم الابتعاد عن الكهف لتتمكن الأجهزة التي أعدها من التقاط و تسجيل ما يدور داخله من ناحية ثالثة، كل ذلك أجبره على خفض سرعته و جعله يتوقف ليغير من اتجاهه أكثر من مرة حتى لا يقع في حفرة و لا يصطدم بشجرة، و كان هذا من حسن طالع «ليلي» التي اشتعلت حماسها لمطاردة فريستها، فأسقطت حقيبتها كي لا تعوق حركتها و أخذت تقفز بين الصخور و الأشجار في خط مواز للمقطورة و على مسافة لا تسمح لقائدها بأن يري من يتعقبه في المرأة، كانت تقفز في سرعة و رشاقة فأضحت كغزال يطارد فيلاً من الأفيال، و استمرت المطاردة لدقائق شعرت أنها طويلة خاصة مع تصاعد دقات قلبها التي أصبحت تنافس صوت محرك المقطورة في سمعها، بلغ الإجهاد و الإصرار منها المدى، فكانت كلما زاد تعبها زاد تصميمها، إنما للصبر حدود يتوقف عندها، و بالفعل توقفت و وضعت كفيها

على ركبتيها وأخذت تلتهم الهواء وهي تتابع السيارة بنظرها لترى هل سيتحقق أملها وتقف المقطورة في مرمى بصرها أم ستتبخر من أمامها، أخذت السيارة تتعد شيئاً فشيئاً حتى كادت أن تغيب عن عينيها ثم هدأت سرعتها وانحرفت إلى الجهة اليمنى لتقف خلف إحدى الهضاب بحيث لم يعد يظهر منها سوى أنوارها الخلفية التي أضاءت باللون الأحمر برهة ثم أطفأ قائدها المحرك فساد الصمت في الخارج، أما داخل صاحبتنا فقد استمر هدير قلبها.

سكنت حتى ارتاحت وهدأت، وانتظرت حتى غلب على ظنها أن المقطورة لن تتحرك من مكانها، على الأقل في الساعات القادمة، ثم عادت أدراجها تقتفي أثارها حتى وصلت إلى الشجرة التي أسقطت عندها حقيبتها، فالتقطتها وانطلقت لتلحق برفيقيها، وما أن رأتهما وشاهداها حتى أسرعت إليها «حنان» وبادرتها قائلة بنبرة تجمع بين الفرح والمعاناة: لما تأخرتِ؟ قللنا عليك.

«ليلي»: أنا بخير. كيف سارت الأمور معكما؟

«حنان»: عدنا بخفي حنين. وجدنا المقطورة ثم فرت كرة أخرى.

«ليلي» وهي تصعد إلى سيارة «ماجد» مع زميلتها حيث كان «ماهر» جالساً خلف عجلة القيادة: أما أنا فقد عدت بالجمال وما حمل.

عقد «ماهر» حاجبيه و هو ينظر إليها من خلال المرآة الأمامية وقال باهتمام: هل صادفتِ المقطورة؟

قصت «ليلي» عليهما ما جرى، وهما يستمعان بشغف، فلما انتهت صفق «ماهر» بيديه جذلاً وقال: لم يذهب تعبنا سدى، لكن سنحتاج لوضع خطة جديدة للهجوم على الأستاذين المبجلين والاستيلاء على المقطورة، فهي سفينة النجاة لنا ولأصدقائنا.

«ليلي»: كيف يمكن لفتاتين وشاب مصاب التغلب على رجلين اتحذا المقطورة حصناً ومعهما وسيلة انتقال؟

«ماهر»: سنتحصن بظلام الليل و نسلح بعنصر المفاجأة.

«حنان»: لا بد من خطة محكمة و دراسة كافة الاحتمالات.

«ماهر»: هذا ما سنقوم به من الآن و حتى منتصف الليل.

«ليلي»: و هل سيحتمل أصحابنا ليلة ثانية في الكهف.

«ماهر»: لا بد من الحيلة و الحذر و التضحية، و لتأخرنا لإعداد العدة أفضل من تعجلنا و ضياع الفرصة.

«حنان»: أصبت، ثم التفتت مخاطبة «ليلي»: لم تخبرينا عن مهمتك الأصلية في تفقد الكهف، هل وجدت شيئاً ذا أهمية؟

«ليلي» و هي تفتح حقيبتها و تفرغ محتوياتها: نعم. وجدت بعض الأطعمة الصالحة، و وجدت خريطة لمنطقة غابة الجبل يبدو أنها إحدى الخرائط التي كانت معنا و فقدناها أحدنا، ثم أضافت بنبرة حازمة: و الأهم من هذا و ذاك أنني وجدت ما لم أتمكن من حمله معي لكنه جداً مثير للاهتمام.

اتسعت الأحداق وارتفعت الحواجب و قال الزميلان في صوت واحد: أي شيء هذا؟

«ليلي»: ذراع حديدية أشبه بالرافعة متصلة بحبل متين ينتهي بحجر ثقيل.

ضاقت الأحداق بعد الاتساع، و انعقدت الحواجب بعد الارتفاع، و انطلقت من الأفواه بدلاً من الكلمات علامات التعجب و الاستفهام مصحوبة بتمتمات و همهمات.

*** **

اقتربت «سارة» من «حورية» و قالت في تعجب: أيمكنك القراءة في تلك الظروف؟

«حورية»: ربما هو أفضل ما يمكنني الآن، على الأقل لأصرف تفكيري عما نحن فيه.

«سارة»: أليس من الأفضل التفكير في مخرج مما نحن فيه؟

«حورية»: من يدري لعلني أجِد المخرج عند جدي.

«سارة»: لا أظن. صحيح أن مذكرات جدي أثارت اهتمامي لكنني لا أجِد التركيز الكافي لقراءتها في أجواء الكهف الشعاعية.

«حورية» باسمه: إذن أتركك مع كهفك و اتركيني مع جدي.

«سارة»: نعم مؤقتاً، و لكنني قد أغير رأيي فيما بعد و استعير منك بعضاً مما قرأت من الأوراق.

«حورية»: لا بأس.

انطلقت «سارة» مبتعدة، فنادتها «حورية»: إلى أين؟ يمكنكِ البقاء بجانبى، فوجودك لن يزعجني أثناء القراءة.

«سارة» هامة: لا استطيع فلدي موعد رومانسي مع الكهف.

ابتسمت «حورية» وفتحت ما في يديها من الأوراق المطوية، و عادت إلى الإصغاء لحكاية جدها، فوجدته يقول:

(... كنت أظن أنه على الأبناء اقتفاء آثار الآباء والأجداد، و ها أنا اليوم أقتفي أثر الأبناء والأحفاد، ترى إلى أين سيقودني هذا الغلام؟، جمعت الرسائل التي أرسلها لوالدته و عكفت على دراستها، و حصلت من السيدة «رحيمة» على ما لديها من المعلومات عن أصدقائه، و عن موصلي الرسائل، و عن كل ما يمكن أن يساعدي في رسم خريطة البحث، و تحديد نقطة بداية للإبحار، و تتبعت كل ما توفر لدي من الخيوط، و انتقلت من صديق لصديق، و من قرية لقرية، حتى رسمت للغلام و رحلته الصورة الآتية:

بدأت رحلة الغلام من بيت حكيم القرية، فعندما انتهى من قراءة ما في المكتبة و قرر الرحيل، ذهب لوداع الحكيم، و في آخر لقاء جمعهما دار هذا الحوار بينهما:

«الغلام»: هل قرأت جميع ما جمعت من الكتب يا سيدي؟

«الحكيم»: بل قرأت أكثر منها، و ما تجده بالمكتبة هو فقط ما تمكنت من امتلاكه منها.

«الغلام»: و ما صنعتَ بما قرأت؟

لم يبدُ على وجه الرجل علامات الاستنكار أو التعجب من
جراءة الغلام، و أجاب بقوله: صنعتُ ما رأيتُ؟

«الغلام»: ماذا تقصد؟

«الحكيم»: جمعت ما أمكنني و وضعتَه في حجرة ملحقة ببיתי،
و سمحت لمن يرغب في القراءة بالاطلاع عليها و الإفادة منها.

«الغلام»: يعني ما صنعت شيئاً.

«الحكيم»: ها أنت قد قرأتَ ما قرأتُ، فماذا أنت صانع؟

«الغلام»: سأعمل و أتحرّك و أصلح و أغير.

«الحكيم»: و طبعاً لن تكتفي بتغيير القرية بل ستغير وجه
البسيطة، أليس كذلك؟

«الغلام»: بلى.

«الحكيم»: و ماذا تنتظر؟ هيا انطلق.

«الغلام»: سأفعل. أنا فقط جئت لأشكرك و أودعك، و
لأعرف لماذا عزفت أنتَ عن الحركة بتلك الكنوز التي تحبسها
في بيتك؟

«الحكيم»: تلك الكنوز التي تتحدث عنها، هل تدري كم
نسبتها من كنوز المعرفة الموجودة في عالمنا؟

«الغلام» مأخوذٌ من السؤال: لست أدري.

«الحكيم»: قطرة من المحيط. فهل يمكنك بقطرة من المحيط أن
تسقي مشارق الأرض و مغاربها، و أن تروي من عليها كلهم جميعاً؟

«الغلام»: لو انتظرت جمع المحيط لفنيت قبل أن أبدأ، و
لهرمت قبل أن أنطق، و لهلكت قبل أن أخط خطوة واحدة.
«الحكيم»: و لماذا تريد أن تنطق و أن تخط؟

«الغلام»: و لماذا تريد أنت أن تنتظر المستحيل، ما من بشر
يمكنه جمع المحيط، و لو فكر جميع الناس بطريقتك لظللنا نسير
في أماكننا إلى أن نموت.

«الحكيم»: لا بأس. خض تجربتك و بعد عودتك نكمل
حديثنا، و كل ما أطلبه منك في رحلتك أن تذكرني بين الحين و
الحين، متى ستعود؟
«الغلام»: لست أدري.

انطلق الغلام، و أخذ في الانتقال من قرية إلى قرية، و سلك
في رحلته طريقة الخدمة، فكان يخدم الناس فأحبوه، يساعد هذا
و يعاون ذاك، و يقضى حاجة ثالث، فحقق نجاحاً نوعاً ما فبدأ
الناس يستمعون له و يأخذون منه، لكن ما كان لهذا النوع من
النجاح ليستمر طويلاً و لا ليرضيه كثيراً، فقد وجد أن الحال
لم يتغير كثيراً، و وجد أن طبائع الناس عجبية غريبة، فلديهم
القدرة على الأخذ بالشيء و ضده، و الإنصات له و لنقيضه، و ما
يتعلمونه بالأمس ينسونه اليوم، و ما يؤمنون به اليوم يكفرون به
غداً إذا جاءت الرياح بما لا تشتهي السفن، و من كانوا يمدحونه
نهاراً جهاراً يذمونهم ليلاً إسراراً، و كان كلما انقطعت به السبل
في قرية أو أغلقت الأبواب في وجهه في أخرى، كان ينتقل إلى
قرية أكبر أو بلدة أوسع، يعني بدلاً من العودة إلى الأيسر كان

يصر على الأعسر، فقد كان يظن أن المدن الكبرى الأكثر تقدماً ستكون أكثر تفهماً لضرورة التغيير وأهمية الوصول إلى الحقيقة المطلوبة والحرية المأمولة لبني البشر لأنها صعدت درجات كثيرة في سلم الحضارة، لكن مع الوقت بدأ يلاحظ أنه كلما بعدت المدينة التي يقصدها، كلما بعدت المسافة بين الحلم الذي يريده والواقع الذي يعيشه، وكلما كانت أكثر تقدماً، كلما كانت أكثر نفوراً، فقرر في النهاية أن يتوجه إلى المدينة التي تمثل مركز العالم من وجهة نظره، حيث توجد القوة اللازمة والقدرة الكافية للتغيير، فهنا قلب الكرة الأرضية فإذا تغير هذا القلب لتغيرت الحياة على وجه البسيطة بلا شك.

وصل فعلاً إلى هذا القلب بعد عامين ونصف من فراقه لقريته، ومنه أرسل رسالته الأخيرة لوالدته السيدة «رحيمة»، كان رغم كل العثرات التي عانت منها أقدامه متفائلاً مفعماً بالأمل، راجياً أن يجد بغيته وأن يحقق حلمه، فإن لم يجدها هنا في أكبر المدن وأوسعها، وإن لم يحقق حلمه هنا في أرقى البلاد وأعظمها، فأين إذاً؟ لا بد أن هذه هي محطته الأخيرة.

بعدما حط الرحال في قلب العالم، لم يلبث إلا قليلاً ليدرك كم كان هذا القلب قاسياً عاتياً، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، لم يرحم غربته ولم يؤنس وحشته، كان بالأمس بيت مستنكرًا طبائع البشر في القرى والمدن الصغيرة وأصبح اليوم يترحم عليها، فالناس في القرى التي مر عليها كانوا يتوددون للغريب أما هنا فكلهم غرباء، لا يأبهون إلا بما يحقق لهم نفعاً، والناس في القرى أملهم أن يعيشوا في سعادة بينما هنا أملهم السيطرة على

السعادة، بل امتلاك السعادة، بل احتكار السعادة، و قل مثل ذلك عن القوة و الطبيعة و العلم و الرفاهية و هلم جرا.

و لأن الغريب أعمى و لو كان مبصراً لم يدرك ما سبق من الوهلة الأولى، و إنما استغرق بعض الوقت و إن لم يكن طويلاً، ثم اصطدم الحلم بالواقع، و اعترك المسطور في كتب حكيم القرية مع المنظور على الأرض هناك، البداية كانت لا بأس بها، فالأرض أرض الله و الخلق خلق الله، و لا تخلو الأرض من الخير و لا يخلو الخلق من البر، و في قلب العالم يمكن لمن شاء أن يقول ما يشاء كيفما شاء و وقتها شاء و لكن إلى حين، و السؤال هو متى يحين هذا الحين؟

الجواب هو أن هناك صنفين من البشر يعيشون في قلب العالم، صنف يختارون بين الأمور و هم الأكثر، و صنف يصنعون الأمور التي تقدم للصنف الأول ليختار من بينها و هم الأقل، و إذا دقت النظر عرفت أن هذه الأمور المصنعة متشابهة بل تكاد تكون متماثلة، و لكنها تقدم في صورة براقة جاذبة محفزة، تماماً مثل مسابقات المجالات المصورة للأطفال حين يطلبون الوصول إلى الاختلافات السبعة بين الرسمين، فيشحن المتسابقون أذهانهم و أبصارهم لإثبات وجود بضعة تفاصيل مختلفة و يغفلون عن مئات التفاصيل المتطابقة، بل و ينسون أن الرسام الذي رسم الصورة الأولى - و هي بلا شك معبرة عن ذوقه و رؤيته - هو نفسه الذي رسم الصورة الثانية و تعتمد تغيير عدة تفاصيل لا تزيد عن أصابع اليدين، و هكذا يعيش الأكثر حياتهم بمتتهى الحرية في الاختيارات الزائفة، و هكذا نكون قد وصلنا لجواب

السؤال، فعندما تسعى للخروج من الاختيار الزائف إلى الاختيار الحقيقي يحين هذا الحين.

و عندئذٍ يثبتوك أو يخرجوك أو يقتلوك، و لا مانع عندهم بعد موتك أن يقدسوك، و يصنعون منك الأساطير، و يصورون لك التماثيل، فأنت يمكنك أن تكون قديساً ميتاً عندهم لكن لا يمكنك أن تكون قديساً حياً بينهم، و يمكنك أن تكون فكرة عظيمة في كتاب يحقق أعلى المبيعات، أو مشهداً في فيلم يحوز أعظم الجوائز و يحقق أعلى الإيرادات، أو لحناً في سيمفونية من السيمفونيات الخالدات، لكن إياك إياك أن تكون حقيقة من الحقائق.

خرج كعادته لنقل كنوز المعرفة التي اطلع عليها في مكتبة الحكيم، و كان في طريقه يعاون هذا و يلاطف هذا و يحاور هذا و يحنو على هذا و يبتسم في وجه هذا، لكن هذه المرة شعر أن شيئاً ما ليس على ما يرام، شعر كأن سحابة من الكراهية فوق رأسه، و موجة من الغضب خلف ظهره، في الفترة السابقة كان يسمع بعض عبارات السخرية و يتعرض لبعض محاولات الاستفزاز، لكنه كان يعرض عن الأولى و يتجنب الاستجابة للثانية، هذه المرة لم تغن المراوغة عن المواجهة، فالسحابة قد ازدادت كثافة و الموجة قد ازدادت ارتفاعاً، حاول المقاومة فقد كان فتياً ألباً لكن الكثرة تغلب الشجاعة، فتوالى اللكمات و تابعت الركلات، و مع كل لكمة و ركلة كانت تصله رسالة و إساءة، رسالة يسمعها في عقله و إساءة يحسها في قلبه، مع الركلة الأولى شعر بالإساءة إلى أمه، و مع الركلة الثانية شعر بالإساءة إلى جده، و مع الركلة الثالثة شعر بالإساءة إلى قريته، و مع اللكمات التي طالت وجهه

نفذت الرسائل التالية إلى عقله و لكنه كان مشوشاً و جزعاً فلم يدركها:

إن أردت أن تعيش في قلب العالم فعليك أن تكون تابعاً لا متبوعاً.

إن أردت أن تنجح في قلب العالم فعليك أن تقبل بالتاريخ المزور.

إن أردت أن تستمر في قلب العالم فعليك أن ترضى بالاختيار الزائف.

انتهت المعركة و وجد نفسه صريعاً مضرجاً بالدماء مكسور الضلوع و الوجدان، يمر المارة بجانبه و لا يلتفت إليه أحد و لا تمتد إليه يد، فسوء الظن هنا هو القاعدة، فربما كان من متعاطي المخدرات، و ربما كان مجرمًا تورط في شجار بين العصابات، و ربما كان مخادعاً سيقوم بالاحتيال على من يقدم له المساعدات، أو على أحسن تقدير هو شخص يحتاج للعون فعلاً لكن من سيقدمه له سيورط نفسه في المشكلات، هذا ما يدور عادة في أذهان الناس في المدن الكبرى، فيمنعون الماعون و يحجمون عن الخير و لا يقدمون، و هكذا أمسى مضطراً أن يتحامل على نفسه حتى النفس الأخير، فلو بقي على حاله لهلك لا محالة، مديده ليلتقط قبعته و وضعها فوق رأسه بحيث تخفي شيئاً من وجهه فلا ينفر منه الناس و لا يفرون، و قام بصعوبة بالغة و أشار إلى إحدى سيارات الأجرة و طلب من السائق أن يقله إلى أقرب مشفى، و عندما وضع قدمه داخله كان قد استنفذ كل طاقته و صبره و جهده فسقط مغشياً عليه.

أفاق في اليوم التالي، وأخذ يتعافى ببطء خلال بضعة أسابيع، وكلما استعاد صحته كان يفقد همته، وكلما تحسنت جروح بدنه ساءت جراح نفسه، لم يعد يريد العيش ولا النجاح ولا الاستمرار في قلب العالم، ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يقرر العودة إلى دياره، ففي البقاء لن يتحقق حلمه وفي العودة لن يزول فشله، فأصبح عالقاً بين فشلين، فشل الاستمرار وفشل العودة إلى الديار.

كثيرون يقعون في تلك المصيدة، يختارون طريقاً يسلكونها ثم يدركون بعدما يقطعون شوطاً أو عدة أشواط أن تلك الطريقة لا جدوى منها، فبعضهم يؤثرون السير على التوقف أو الرجوع، لأن السير إلى الأمام وإن كان سراباً أهون على النفس من العودة إلى البداية أو الرجوع إلى الوراء، وبعضهم يتوقفون فلا يتقدمون ولا يرجعون، وكان صاحبنا من النوع الثاني.

هذه هي خلاصة تجربة صاحبنا الشاب في قلب العالم، ولكنه وقتها لم يدرك أبعادها، لم ينتبه أنه كان ينبه الناس إلى ضرورة ترك الخيار الزائف إلى الاختيار الحقيقي، كان يظن فقط أنه ينقل كنوزاً جميلةً ظلت مدفونةً حيناً من الدهر، فلم يفهم ما سر العداء؟ ولما انقلب الود إلى جفاء؟ ولما التربص به والكيد له في الخفاء؟

هذه الخلاصة التي قصصتها في كلمتين استغرقت من عمري قرابة العامين منذ خرجت من القرية بحثاً عن الفتى، وانتقلت من صديق لصديق ومن وسيط لوسيط ومن قرية لقرية ومن مدينة لأخرى حتى وصلت أنا أيضاً إلى قلب العالم ووجدت الغلام بعد لأي وهكذا أنجزت نصف المهمة التي كلفتنى بها

السيدة «رحيمة»، و بقي أن أصل إلى قلب الفتى و أبلغه الرسالة حتى أتم النصف الآخر منها.

كان الغلام يجيد عدة أشغال و حرف يدوية تعلمها في قريته تجمع بين البساطة و القناعة و الذوق العلوي، لكنه لم يجد لها سوقاً، فالإقبال هنا على التعقيد و الطمع و الذوق السفلي، فأخذ يمتهن بعض المهن الخالية من الفن و لا تحتاج إلا إلى مهارات يتقنها كل من يمشي على رجلين، فكانت مهنته حين التقيته تعبئة الوقود للسيارات في إحدى محطات النفط.

وقفت أرقبه عن بعد في الدقائق الأخيرة من مناوبته في العمل، كان يقوم بتعبئة الوقود لإحدى سيارات الأجرة، و عندما انتهى من التعبئة توجهت إليه و ناديته باسمه، توقعت أن يندهش شيئاً ما ثم يقبل علي ليرى ما شأني و ماذا أريد منه، أصبت في الجزء الأول من توقعي و أخطأت في الجزء الأخير منه، فبدلاً من أن يتوجه إلي قفز مباشرة في السيارة التي انتهى لتوه من تعبئتها بالوقود و سمعته يقول للسائق: انطلق.. انطلق.

كانت لا تزال تفصلني عنه عدة أمتار، أسرعت الخطى نحوه و أنا ألوح وأصيح: توقف.. انتظر. لكن هيهات، وقفت برهة داخل دائرة الحنق، و قلت لنفسني بصوت مسموع: هذا عبث صبية.

تريثت بضعة أيام قبل تكرار المحاولة فقد توقعت أن يكون مستعداً لي في اليومين القادمين، فكرت في خطة مغايرة لإجباره على محاورتي، لكنني تراجعت لأنني أردت أن ألقنه درساً فكرررت خطتي الأولى بحذافيرها، و كرر هو ردة فعله أيضاً بحذافيرها،

وبذا وقع في الفخ، فبعد لحظات من أمره للسائق بالانطلاق، توقفت السيارة أمامي مباشرة ففتحت الباب الخلفي وجلست بجانب الفتى وهو مذهول، حاول مغادرة السيارة ولكن السائق ضغط زر الإغلاق المركزي فمنعه، نظر إلي وإلى السائق نظرة ذات مغزى، فابتسمت وقلت له بلغة قريته: فقط أردت أن أعلمك أنه لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين.

التقت عيوننا كرة أخرى بنظرات تجمع بين الترقب والتحدي، وفي ذات اللحظة انطلق سؤالان، سؤال من فيه وسؤال من في:

- لماذا تطاردني؟

- لماذا تفر مني؟

سكت كل منا في انتظار إجابة الآخر، ثم قررنا الجواب في ذات اللحظة كما سبق و فعلنا في السؤال:

- أنا لا أطلب مطاردتك ولكن أطلب محاورتك.

- أنا لا أفر منك ولكن أفر من المشاكل.

ميزت كلامه بصعوبة شديدة، فأنت تتكلم وتنصت في نفس الوقت من أشباه المستحيلات، أردت أن أكسر تلك الدائرة فأخرجت صورته التي أخذتها من السيدة «رحيمة» وناولتها إياه، فاخطفها مني و ظل ينقل بصره بينها وبينني، ثم قال: معك صورتي، و تتحدث بلغة قريتي، لكن ملامحك وهيئتك لا يتيمان إليها، فما قصتك أيها المسن؟

- قصتي هي قصتك أيها الشاب.

- و هل تعرف قصتي؟

- نعم.

- لا.

- بلى.

- لا.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنك تظن أنك تعرفها لكنك لا تعرفها.

منذ قرابة العامين و لا يشغلني شاغل سوى قصته ثم يأتي هذا الصبي ليخبرني بأنني لا أعرف شيئاً! كدت أن انفجر في وجهه لكنني أثرت التحلي بالصبر فقلت: فقصها علي إذن.

- لا.

- ولم لا؟

- ولم تريد أن تتدخل في حياتي؟ تعرف قصتي ثم تصدع رأسي بنصائحك و تتيه علي بخبراتك، ثم تزعم أنك لا تطاردني! ما شأنك بي أيها الشيخ؟

- ماذا تريد أيها الشاب؟ أن تسد أذنيك عن كل من حولك و لا تسمع إلا نفسك؟ رفضك السمع علامة ضعفك، ماذا عليك لو سمعت ثم نظرت فإن وجدت خيراً حملته فوق رأسك و إن وجدت شراً ألقيته خلف ظهرك، و مع ذلك أنا لا أنوي أن أسمعك شيئاً لم تطلبه، فما وراء ذلك من طائل.

هز رأسه موافقاً و بدا عليه الاقتناع ثم قال: لا بأس يمكننا أن نتحاور كما تريد، ما رأيك أن نجلس في مكان مناسب بدلاً من المحادثة وسط علامات المرور.

- أنت أعلم مني بهذه البلدة، فهل لديك اقتراح؟

- أجل. يوجد مقهى هادئ خلف تلك البناية.

أمرت السائق بالتوقف و أعطيته أجرته، و ترجلت من السيارة من الجانب المقابل للرصيف، بينما ترجل هو من الجانب المقابل للشارع، و ما أن وطئت قدماه الأرض حتى أطلق ساقيه للريح و عبر الشارع و هو يقول: فقط أردت أن أعلمك ألا تبيع فراء الدب قبل صيده.

هذا المأفون اضطرني للركض بعد سن الستين، عبرت الشارع خلفه و سمعت صوت كابح سيارة و سباب ينطلق من فم صاحبها لكنني لم ألتفت، حاولت عبور الشارع المقابل لكن منعني سرعة السيارات القادمة، أدركت أنني سأفقدته للمرة الثانية فقررت استخدام ورقتي الأخيرة، فأخرجت الصندوق الخشبي من الحقيبة التي كنت أعلقها على كتفي و رفعته بكلتي يدي فوق رأسي و أنا أصيح بأعلى صوتي: مهلاً يا فتى، لا تنصرف حتى ترى هذا.

التفت الفتى بدافع الفضول فلمح الصندوق معلقاً بين رأسي و السماء فتوقف من فوره و عاد أدراجه و بصره مثبت على الصندوق لا يتحول عنه حتى وقف أمامي مباشرة على الرصيف بين الشارعين، رفع يديه و التقطه مني و ضمه إلى صدره ثم قال

بنبرة فيها شفقة: هذا أخي، نشأت معه وأحببته، أحببت ما فيه من الجمال والذوق والدقة والأصالة، كنت أَلعب معه وأتحدث إليه وأتمنى أن يحدثني، سألت أمي: لماذا لا يكلمني؟ فقالت: لا يمكنه أن يكلمك وهو مغلق، لكنه سيفعل حتما عندما يفتح. سألتها: ومتى سيفتح؟ فأجابتنى: يوماً ما، لا بد أن يفتح يوماً ما وسيكلمك لا محالة فاطمئن.

شعرتُ بعاطفة جياشة نحوه، وتذكرت معاناته في رحلاته رغم حداثة سنه وفرحمته، نظرت إليه نظرة حنان، ونظر هو إلي لأول مرة نظرة اطمئنان فالتقت عيوننا برهة من الزمان ثم تعانقنا.

ظللنا فترة متعانقين، ربما دقيقة، ربما دقيقتين، لست أدري فيما كان يفكر وقتها الفتى، لكنني كنت أفكر كيف سأخرجه من المصيدة؟ مصيدة قلب العالم.



انتصف ليل الليلة الثانية من ليالي الكهف، وانطلق «ماهر» وزميلناه إلى موضع المقطورة الذي حددته «ليلي»، فاتخذوا موقعاً يتيح لهم مراقبتها، كانت خطتهم تهدف إلى تحقيق أمرين: التغلب على الأستاذين، والاستيلاء على المقطورة لاستخدامها لنجدة الأصدقاء العالقين في الكهف، وكانت تعتمد على أن يغادر أحد الأستاذين المقطورة لسبب ما ربما ليذهب إلى غرفة القيادة أو لأي سبب آخر، وعندها تقوم «ليلي» بإلقاء الرمال في عينيه، ويقوم «ماجد» بتقييده بالحبال، في حين تقوم «حنان» بتثبيت قضيب من الحديد خلف باب المقطورة لمنع من بقي بداخلها من إغاثة من خرج منها، فلما طال انتظارهم ولم يخرج أحد من المقطورة،

قال «ماهر»: سأذهب لمحاولة استطلاع ما يدور داخل المقطورة،
ابقيا هنا.

«ليلي»: المسافة التي تفصلنا عن المقطورة مازالت كبيرة، لن
نتمكن من الوصول في الوقت المناسب إذا خرج أحدهم الآن،
و سيكون عليك مواجهته وحدك و أنت مصاب، الأفضل أن
نذهب سوياً.

«حنان»: دعونا نتقل إلى أقرب نقطة ممكنة من المقطورة، ثم
تقوم أنت بالاستطلاع.

«ماهر»: لا بأس.

اقرب الثلاثة حتى لم يعد يفصلهم عن هدفهم سوى الهضبة
التي استقرت خلفها المقطورة، فبقيت الفتاتان في الجهة الثانية من
الهضبة، و دار «ماهر» حولها ليصل إلى المقطورة مباشرة في محاولة
للنظر داخلها من إحدى النوافذ ليستطلع الموقف داخلها، فشرع
يدور حول المقطورة متفقداً نوافذها، كانت جميع النوافذ مغلقة
بإحكام و عليها ستائر من الداخل تمنع النظر، فلم يجد سوى
أن يلصق أذنه بإحدى النوافذ في محاولة للتنصت على ما يدور
بالداخل، و عندها سمع صوت الدكتور «لييب» و هو يقول:
أليس من الأفضل أن تسأل عما تريد معرفته بدلاً من التجسس؟

لم يأت الصوت من داخل المقطورة بل من خارجها، فالتفت
«ماهر» بسرعة، و نظر إلى الدكتور نظرة من ينوي الهجوم، فهم
«لييب» مغزى النظرة، فأشار بيده مهدداً، و قال: لا داعي، يمكننا
أن نتفاهم، و لا تنس أنك مصاب و لن تفلح محاولتك.

قال «ماهر» بغضب: إصابتي لن تمنعني من الفتك بك وإن كان ذلك آخر شيء أفعله في حياتي.

«لييب» بهدوءه المستفز المعتاد: مهلاً، لا تندفع وراء انفعالك وفكر قليلًا، ثم أشار إلى قدم «ماهر» المصابة وأضاف: أنا من وضع الضمادات والأدوية في متناول يدك، ولو كنت أريد إيذاءك لما فعلت ذلك، فأنت مدين لي على كل حال.

«ماهر»: لماذا فعلت كل ذلك؟ ماذا تريد منا بالضبط؟ وما هي خطتك القذرة؟

«لييب»: تعال نتكلم بالداخل، ويمكنك استدعاء «حنان» و«ليلي» أيضاً، أعلم أنهما خلف الهضبة المقابلة للجانب الآخر من المقطورة.

أدرك «ماهر» أن الخطة قد فشلت، وأن المعركة انتهت قبل أن تبدأ، وعليه الانتقال لمائدة المفاوضات، فنادى زميلتيه بالفعل ووجهوا جميعاً مع الدكتور «لييب» إلى داخل المقطورة، أشار لهم «لييب» بالصعود، فتقدم «ماهر» وخلفه «ليلي» ولحقت بهما «حنان» مباشرة، وعندما حان دور «لييب» فبدلاً من الانضمام إليهم قام بإحكام غلق الباب عليهم، التفت ثلاثتهم إلى الخلف وصاح «ماهر»: خدعنا الوغد.

بعد لحظات جاءهم صوت «لييب» عبر مكبر الصوت من غرفة القيادة وهو يقول: لا تقلقوا، أنا ما زلت عند كلمتي، سأشرح لكم الأمر كما وعدتكم، ولكنكم حالياً في حاجة لقسط من الراحة حتى نتفاهم في هدوء،

فلست أضمن ردود أفعالكم إذا تحاورنا الآن مع انفعالكم.
قالت «ليلي» بشيء من المرح وهي تشم الهواء بأنفها: يبدو
أن طُسَّت الراحة له رائحة طعنها حلو.

اغتاظ «ماهر» من مزاحها في هذا الوقت لكنه وجه كلامه
لليب قائلاً: ومن قال لك أننا نريد الراحة؟

«ليب»: غاز أكسيد النيتروز المخلوط بالأكسجين سيقدمها
لك بطريقة إجبارية.

«ماهر» هاتفاً وقد انتقل له الشعور بالمرح: إجبارية إجبارية
ويقول لك رحلة عن الحرية.

«حنان» ضاحكة: بصراحة بصراحة بصراحة، ما لقيت في هذه
الرحلة راحة.

بعد فترة أفاق الشباب ليجدوا أنفسهم مقيدين إلى المقاعد،
«حنان» و «ليلي» في جهة، وفي الجهة المقابلة «ماهر» و «هانئ»،
فكانت المفاجأة مذهلة.

كان «ماهر» أول من تغلب على ذهوله، فقال موجهاً حديثه إلى
«هانئ»: وأنت أيضاً يا دكتور.

أطرق «هانئ» بخجل ثم قال: أؤكد لكم أنني بذلت كل ما
بوسعي لمنعه، لكنه باغتني فتغلب علي.

«حنان»: معذرة يا دكتور «هانئ»، أسأنا الظن فيك، واعتقدنا
أنك متورط معه فيما أصابنا.

«ليلي»: نحن الآن أربعة ضد واحد، وهذا بلا شك أفضل من ثلاثة ضد اثنين، لكن كيف ستتصرف؟

«ماهر»: أردنا أن نحرر أصدقاءنا من مصيدة الكهف فوقعنا في مصيدة المقطورة.

«هانئ»: هذا هو بيت القصيد، كيف سنخرج من المصيدة؟

*** **

أعلنت ساعة الأنفاس شروق شمس اليوم الثالث من أيام الكهف، وقام «عادل» بتوزيع الوجبة الأخيرة مما تبقى من الماء والعصائر، وخلق الأصدقاء واجمين، وقد أدركوا أنهم بدأوا مرحلة الخطر الشديد.

«عاطف»: بالأمس بدأنا عصر الجوع، و اليوم سنبدأ عصر الظمأ.

«عاصم» و هو يشير إلى المصباح: و غداً سيبدأ عصر الظلام.

«سارة»: لا يجب أن نظل مكتوفي الأيدي حتى تحين هذه اللحظة.

«عادل»: نعم فاليوم هو فرصتنا الأخيرة للخروج من هذا المأزق.

«جميلة» بتوتر: و ماذا في أيدينا أن نصنع؟

«حورية»: نبحث عن منفذ أو مخرج.

«عاطف»: أو لم نفعل؟

«ماجد»: بلى، ولكن كان نظرنا متوجهاً إلى الخارج، فلما لا نجرب البحث في الداخل؟

«عاصم»: وماذا تتوقع أن تجد داخل الكهف، ها هو أمامك.

«عادل»: لاحظوا أننا لم نتفقد جميع جوانب الكهف وزواياه، فنحن منذ ولجنا نجلس في حدود هذا البساط، وفي المساحة التي يصل إليها ضوء المصباح.

«حورية»: أجل. ربما لو توجهنا نحو الباطن، باطن الكهف، قد نجد حلاً أو عوناً.

«سارة»: ربما نستطيع أيضاً أن نجد ما يحسم لنا هل هذا المأزق الذي نحن فيه من صنع البشر أم من صنع القدر؟

«عاطف»: ماذا تعنين؟

«عاصم»: تعني أنه لو كان هناك من دبر لنا هذه الورطة، فمن المحتمل أنه قد جاء إلى هذا الكهف قبلنا، وقام بإعداد ما يساعده على إنفاذ خطته، وقد نجد نحن أثراً يدل عليه و نتمكن من إفساد خطته عليه.

«ماجد»: إذن فلنفتش الكهف شبراً شبراً.

«عادل»: المهم أن نبذل قصارى جهدنا حتى لا نبيت ليلة ثالثة في مصيدة الكهف.

A decorative flourish consisting of a large, elegant, black circular swirl. Inside the swirl, there are smaller, intricate scrollwork patterns and leaf-like motifs, creating a sense of movement and grace.

الفصل الثالث

الغابة

- سنبدأ المناقشة بعدما تشاهدون تلك المقاطع المسجلة من داخل الكهف.

قالها «ليب» بأسلوبه المعتاد في محاضراته الجامعية عبر السماعات المتصلة بمكبر الصوت الموجود في غرفة القيادة ليصل صوته لمن بالمقطورة ، و فور انتهاء عبارته بدأت الشاشة المثبتة داخل المقطورة في عرض أهم الأحداث و الحوارات التي دارت بين أصحاب الكهف خلال اليومين السابقين، أي منذ الدخول إلى الكهف و حتى فجر اليوم، التفت الجميع باهتمام بالغ وظلت عيونهم مثبتة على الشاشة طوال فترة العرض، فقد كان الشباب متلهفين للاطمئنان على أصدقائهم و معرفة ما مر بهم، و حتى «هانئ» رغم مشاهدته لعدة أجزاء منها من قبل فقد كان يتابع بشغف لربط الأحداث ببعضها و الإحاطة بما استجد منها و محاولة اكتشاف ثغرة تمكنهم من الخروج من الأزمة.

بعد انتهاء العرض مباشرة انتقل «ليب» إلى داخل المقطورة، و جلس على كرسي في الجزء الخلفي منها، بحيث يكون «هانئ» و «ماهر» على يمينه، و «ليلي» و «حنان» على يساره، و الشاشة أمامه مباشرة، و بدأ الحديث دون مقدمات قائلاً: أحسب أنه أصبح واضحاً لديكم أن المشاكل و الأضرار التي وقعت لم تكن مقصودة، و لم تكن من ضمن الخطة، لم يكن من المفترض أن يكون هناك نقصاً في الطعام و الشراب، لم يكن من المفترض أن تكونوا خارج الكهف و أن يتعرض «ماهر» للإصابة، كل ما في الأمر أنني أعددت لكم مسرحاً فائقاً للتعلم.

«ليلي»: لا أستطيع أن أنكر أن المغامرة كانت شائقة، وأن الحوارات التي دارت في الكهف كانت رائعة.

نظر «لييب» إلى «هانى» نظرة انتصار، وقال: ألم أقل لك أن الشباب أكثر تفتحاً وتفهماً منك.

«حنان» موجهة الحديث لـ «ليلي»: ماذا تقولين؟ هل يسعدك أنه أعد لنا مسرحاً للعرائس، وجعل منادمي يراقبها والرجال تحركها؟ «ماهر»: الحقيقة أنني لا أستطيع أن أخفي رغبتى في وجودي داخل الكهف وخوض تلك التجربة مع أصحابنا.

«هانى» بانزعاج: أفق يا «ماهر» ولا تجعل الانبهار والرغبة في المغامرة يجذباك إلى النزق، وتذكر أنك لو تأخرت في القفز لحظات للقيت حتفك تحت الصخرة.

«لييب»: كف عن القيام بدور حامل لواء الأخلاق، وحمى الفضيلة، إنما لذة الحياة في المغامرة، ولا توجد خبرة بلا ثمن، ولا معرفة بلا تضحية، لاحظوا أن أحداً لم يصب إصابة خطيرة، وأن الجميع حتى الآن بخير.

«حنان»: حولتنا إلى فئران تجارب، وتعرض فريقاً منا للهلاك بالموت البطيء، وتقول إن الجميع بخير! لست أدري أحماقة هذه أم وقاحة!

رمقها «لييب» بنظرة نارية ولم يفلح هذه المرة في الحفاظ على أسلوبه الهادئ المستفز، فقال بعصية: على كل حال أنت لا تمثلين إلا نفسك، بينما «ليلي» و «ماهر» يوافقان على التجربة، يعني الشباب في صفى بنسبة الثلثين إلى الثلث.

«ماهر»: رغبتى فى خوض التجربة لا تعنى أنك على حق، وهذا التصويت الزائف الذى أجرته لا قيمة له، فمتى كان للأمرى حق التصويت؟ إن كنت متأكداً من صواب موقفك فلما أفقدتنا الوعي؟ ولما تكبلنا فى المقاعد؟

نظر «هانئ» إلى «لييب» بشيء من السخرية، وقال: يبدو فعلاً أن الشباب أكثر تفتحاً وتفهماً منك.

لم يعقب «لييب» على كلام «هانئ»، و التفت إلى «ماهر» قائلاً: أعتذر لكم بالفعل، لكنها كانت الطريقة الوحيدة لكى أشرح لكم الموقف و أوضح لكم الملابس، و أمنعكم من التصرف باندفاع يفسد الأمر برمته.

«ماهر»: وها أنت قد شرحت و أوضحت، فلما لا تحل وثائقنا؟

«لييب»: سأفعل لكن فى الوقت المناسب.

«هانئ»: لن يفعل يا شباب، إنما يتلاعب بكم لكسب الوقت لإتمام تجربته الفاشلة.

أصابت كلمة «هانئ» هدفها، فقد كان «لييب» يدرك أن التجربة لم تؤت ثمارها، و أنها لا تصلح أن تبنى عليها نظرية علمية، و لكنه كان يريد الاستمرار فيها حتى الرmq الأخير فقال بعناد لا يخلو من اضطراب: لا تتعجل الحكم، لم تفشل التجربة بعد.

«هانئ»: بل فشلت، و انحرفت عن مسارها، و عليك أن تتحلّى بالشجاعة العلمية و تعلن انتهاء التجربة قبل أن تحدث الكارثة، فأنت لا يمكنك التحكم الآن فى عناصر الموقف خاصة

بعد أن أوشك الزاد على النفاد، و لا تستطيع التكهّن بتصرفاتهم
في الساعات القليلة القادمة، فإياك و المقامرة بحياة الأولاد.

«ليب»: الشباب أقوياء و مثابرون، و يمكنهم الاحتمال ليوم
أو يومين آخرين.

«ليلي» و كأنها تحررت من السحر: صحيح العناد يورث
الكفر.

«حنان»: أي يوم أو يومين تتحدث عنهما؟ آخر ما شاهدناه
كان يدور في الساعات الأخيرة من ليلة أمس، دعنا نرى أولاً ما
حدث في الساعات الأولى من هذا اليوم، و أرجو ألا يكون قد
وقع المحذور.

انتبه «ليب» أن النقاش قد شغله عن مراقبة ما يدور في
الكهف، فقام مسرعاً إلى الشاشة لتعرض ما سجلته الكاميرا في
اليوم الثالث، و للمرة الثانية التفت الجميع بجميع حواسهم و
انتقلوا عبر الشاشة إلى داخل الكهف.

*** **

تفرق الرفاق في أرجاء الكهف، يحملون بعض المصابيح
اليديوية بالإضافة إلى المصباحين الكبيرين من النوع المخزن
للطاقة، يبحثون عما لا يعلمون، و يفتشون عن أمل مجهول،
الأرضية و الجدران و التتوءات الصخرية، شبراً بشبر، و ذراعاً
بذراع، و زاوية بزاوية، و تأكد لهم بالفعل أن الكهف أوسع مما
يظنون، و أعمق مما يحسبون، و بعد ساعة من الزمان مرت
عليهم كعام، انطلقت صيحة من حنجرة «جميلة»، تردد صداها

في أرجاء المكان و التقطتها جميع الأذان: هلمَّ يا رفاق، إليَّ إليَّ يا صحاب.

أسرعوا إليها و أحاطوا بها كزهرة تغلق أوراقها، ثم سلطوا الأضواء على البقعة التي أشارت إليها، و وقفوا مشدوهين برهة لا يحركون ساكناً، فما شاهدوه كان مذهلاً، فعند هذه النقطة يصبح جدار الكهف له مستويان أحدهما أعمق من الآخر، و المسافة بينهما مترٌ، إذا نظرت من أية زاوية حسبت أنها مجرد تعرجات أو نتوءات في الجدران، خاصة مع وجود الظلام، لكن إذا وقفت أمامها مباشرة و استخدمت الإضاءة، تبين لك ممر بين المستويين يتسع لمروء شخص واحد.

انطلقت صيحات الفرحة و قفزات السعادة، و تبادلوا العناق و عبارات التهئة، ثم ماذا؟ كالعادة ذهبت السكره و جاءت الفكرة، و كان أول المتحدثين «عادل»، فقال: ماذا يعني هذا؟

«عاطف»: ربما يكون منفذاً للسلامة.

«عاصم»: و قد يكون طريقاً للندامة.

«ماجد»: لعله ممر مسدود في النهاية.

«سارة»: و ربما تكون المتاهة.

«حورية»: إذا ظللنا في أماكننا فلن نصل إلى إجابة.

«عادل»: صدقت، لا بد من سبر غور هذا الممر.

«ماجد»: أنا سأطوع.

قالها و عبر إلى داخل الممر مباشرة، معه المصباح اليدوي، و رفاقه يساعدونه بالمصباحين الكبيرين عند مدخل الممر، مشى عدة أمتار ثم اختفى عن الأنظار، فناداه «عاطف»: لا تتعد كثيراً، هل وجدت شيئاً؟

جاءهم صوت ماجد من بعيد: لا شيء حتى الآن، لكن يبدو أنه شديد العمق، يضيق أحياناً و يتسع أحياناً أخرى.

«عاصم» صائحاً: يكفي هذا، ارجع و لنفكر في وسيلة أخرى.

شعر «ماجد» أن الصوت يأتي من بعيد جداً، و أدرك أنه لو استمر عدة أمتار أخرى سيفقد التواصل مع رفاقه، فشرع بالرهبة و هم بالعودة، لكن قبل أن يدور للخلف وجه ضوء المصباح لأبعد مسافة ممكن لينظر النظرة الأخيرة قبل المغادرة، فلاحظ شيئاً جعله يستمر و يتقدم، و في تلك الأثناء علت أصوات أصحابه بالنداء لكنه لم يعد يسمعهم فلم يجبههم، فازداد قلقهم، و اشتد ندمهم أن تركوه يدخل وحده دون أية إجراءات احترازية.

«عاطف» في جزع: هل فقدناه؟

«جميلة» و قد كادت تبكي: ما كان ينبغي أن نسمح له بالمحاولة.

«عاصم»: و ما كان يدرينا أنه سيتهور، المفترض أنه كان سيتفقد الممر لبضعة أمتار ثم يرجع.

«عادل»: سأذهب للبحث عنه.

«سارة» بحزم: لا نريد أن نفقد واحداً آخراً منا.

«عادل»: لا يمكننا أن نتركه.

«حورية»: أجل. ولكن دعونا نأخذ الاحتياطات الممكنة،
يوجد معنا جبال، يمكننا الاستعانة بها.

لف «عادل» الجبل حول قبضته اليمنى، وأمسك المصباح
اليدوي بيده اليسرى، وتقدم نحو الممر، وقال: إن احتجت
للمساعدة سأجذب الجبل مرتين.

قبل أن يدلف إلى الممر، سمعوا صوت «ماجد» يصيح من
الداخل: أنا قادم، معذرة يا رفاق، أعلم أنني أثرت قلقكم.

وبعد لحظات كان بين ظهرانيهم، فتنفسوا الصعداء وحمدوا
الله، ثم سألوه عن الخبر، فقال: وصلت إلى أبعد مسافة يمكن
أن تصلني فيها أصواتكم ثم هممت بالرجوع، لكنني لاحظت أن
الممر يتفرع إلى فرعين بعد عشرة أمتار تقريباً من نقطة فقدان
الصوت، فتقدمت وألقيت نظرة فاحصة، فوجدت أن كلا الفرعين
يتمدد بعمق إلى الداخل، وكأنهما لا نهاية لهما، فتقدمت بضعة أمتار
في الفرع الأول فإذا به يتفرع أيضاً في النهاية إلى فرعين، وكررت
المحاولة مع الفرع الثاني فوصلت إلى نفس النتيجة إلا أنه يتفرع
إلى ثلاثة أفرع، يعني أصبح لدينا خمسة طرق فرعية حتى الآن،
يبدو أنها متاهة بالفعل.

«عادل»: إذاً ما يتناقله الناس حول حوادث الاختفاء في هذه
المنطقة حقيقة وليس إشاعات.

«عاطف»: معنى هذا أننا عدنا إلى نقطة الصفر مرة أخرى، و
ليس في مقدورنا سوى الانتظار: النجاة أو الوفاة.

عاد الأصدقاء إلى وسط الكهف، وسط شعور بالإحباط و الحيرة، والقلق الشديد من الساعات القادمة، استلقى «ماجد» على ظهره، عاقداً كفيه تحت رأسه، شاخصاً إلى السقف ببصره، يفكر في لا شيء، وقد أحاط الصمت بالمكان، وأصبح الحديث ثقيلاً على اللسان، حتى قطع «عادل» هذا الصمت وقاوم ثقل الكلام على صدره، فقال ناصحاً لرفاقه: حاولوا الاقتصاد في الإضاءة قدر الإمكان.

أغلق «عاطف» ضوء المصباح بعصبية وقال: دعونا نتعود من الآن على الظلام.

«عادل»: أنا لم أقصد هذا، فقط أردت خفض الإضاءة لتستمر معنا أطول فترة ممكنة.

«عاطف» بيأس: لم يعد هناك فارق، فالظلام قادم لا محالة.

«عاصم» بغیظ: وإذا كان قادم بنفسه فلما تتعجله؟ افتح المصباح ولا تأتِ بالبلاء قبل وقوعه.

صاح «ماجد» فجأة: لا. انتظر لا تفتح المصباح، أظن أنني لمحت ومضة من الضوء في سقف الكهف.

رفع الجميع رؤوسهم، وظلوا يحملقون بأبصارهم، ثم قالت «حورية»: نعم يبدو بالفعل أن هناك شيء ما يومض ومضات خافتة متقطعة.

قالت «سارة» بمزاح لا يخلو من المرارة: ربما نسي أحدكم هاتفه المحمول على الشاحن.

«جميلة» بجديّة: هل يمكن أن يكون هناك أحد الأجهزة الكهربائية هنا؟

صاح «عادل»: نحن فتشنا كل شبر في الجدران و الأرضية لكن لم ننتبه إلى السقف، أضيئوا كل ما معكم من المصابيح حتى اليدوية منها، و دعونا نلقي نظرة على السقف.

أضاء «عاطف» المصباح الذي بجانبه قائلاً: أغلق المصباح، افتح المصباح، أغلق المصباح، افتح المصباح، استقروا على رأي. أضاء الجميع ما لديهم من المصابيح تباعاً، و أخذوا يقربوها من السقف و يتفحصون الجهة التي انبعثت منها الومضة، و فجأة صرخت «جميلة»: ها هي. إنها كاميرا.

نظر «ماجد» إلى العدسة و قال: أيها الوجد. أنت معنا من البداية إذن.

«عادل»: أي شيطان هذا الذي يراقب هلاكنا و لا يتدخل لإنقاذنا. «عاصم»: لا بد أن ينتهي هذا الأمر.

قالها و التقط حجراً من الأرض و قذفه نحو الكاميرا لكنه لم يصبها، انتقلت العدوى للشباب و سرت فيهم سريان النار في الهشيم، فأخذوا يلتقطون كل ما تقع عليه أيديهم من الحجارة و علب العصير الفارغة بل و حتى الأحذية، و يصوبونها إلى الكاميرا و كأنها يرجمون صاحبها، و لكنها كانت مثبتة في مكان يصعب الوصول إليه، و مخفية بمهارة فائقة بين التواءات الصخرية فلم تفلح محاولاتهم، و هنا تقدم «عاطف» بغتةً و حمل «ماجد» فوق كتفيه و هو يقول: لا بد من التصوير عن قرب.

التقط «عاصم» حجراً من الأرض و قذفه إلى «ماجد» الذي التقطه بيده اليسرى ثم قذفه إلى اليمنى ليحكم التصويب، ثم سدد رميةً وضع فيها كل حنقه و حنكته، فانطلقت القذيفة نحوها هدفها و فجرته.

*** **

أغمض «لييب» عينيه كأنه يتفادى الحجر الذي أصاب الكاميرا، و توقفت الشاشة عن البث، و تبادل «هانئ» و الشباب النظرات ثم قال: أما زلت تكابر في انتهاء التجربة؟ أحسب أنها فرصتك الأخيرة للتراجع.

نكس «لييب» رأسه لحظات تذكر فيها تفاعله مع طلابه في محاضراته ثم قال بحسرة: نعم. لقد انتهت التجربة، و علينا إنقاذ الشباب قبل أن يضيعوا.

نظر الشباب إلى «لييب» ثم إلى القيود التي تكبل أيديهم و أرجلهم، ففهم مغزى نظراتهم و قام يحل وثاقهم، بدأ بالفتاتين ثم «ماهر» و أخيراً «هانئ» الذي قال فور تحرره: هل كنت تعلم بأمر المتاهة.

«لييب»: لا. و هذا أشد ما يقلقني، فقد يدفعهم اليأس إلى محاولة اجتيازها.

«ماهر»: هل لديك وسيلة لإزاحة الصخرة؟

«لييب»: أفضل وسيلة هي الحفار المفترض أن يصل مع رجاله بعد غد.

صرخت «ليلي» و «حنان» في صوت واحد: بعد غد!

«هانئ»: في وجود المتاهة و عدم وجود الماء فالكارثة محققة، لا بد من إيجاد وسيلة أخرى.

«ماهر»: نجتمع كلنا على زحزحتها و لو شبراً واحداً نمدهم من خلاله بالضوء و الأمل و الماء.

«لييب»: لو اجتمع عليها عشرة رجال أشداء لما أفلحت محاولتهم.

«ليلي»: لا مفر من طلب النجدة من أقرب قرية.

«لييب»: أقرب قرية تبعد أكثر من مائة ميل، و لن تجدوا فيها حفاراً بالمواصفات المطلوبة، و إذا أخبرتم أهلها البسطاء عن مقصدكم فلن يأتوا معكم، فسمعة هذا المكان لديهم غاية في السوء.

«حنان»: و الحل؟

«ماهر»: الحل أن نذهب إلى أقرب مكان يمكننا منه الاتصال بالشرطة.

رمقه «لييب» بغضب، و قال بحزم: لن نفعل. سنخرج من الأزمة دون اللجوء للشرطة، سأذهب إلى أقرب مكان فيه تغطية من شبكات الهواتف المحمولة، و أتصل بالرجال لجلب الحفار الآن، نحن ما زلنا في الساعات الأولى من النهار، و إذا تحركوا فور اتصالي بهم فسيصلون في الثلث الأول من الليل.

«ماهر»: لم تعد أنت صاحب القرار، و لن نسمح أن يستمر أصحابنا في هذا الخطر حتى الثلث الأول من الليل، يمكننا

الحصول على مفتاح المقطورة عنوة، و استخدامها في الوصول إلى الشرطة رغماً عنك.

«ليب» ولم يبد عليه الاكتراث بالتهديد: لا. لا يمكنكم.

«ماهر» بتحدي: ماذا يمنعنا؟

اقترب «ليب» من «ماهر» و وقف في مواجهته مباشرة، و فتح سترته و أشار إلى المسدس المعلق في الحزام، و قال كلمة واحدة: هذا.

اشتد الفزع بالفتاتين، و تدخل «هانئ» مسرعاً ل تهدئة الموقف، فقال: لا داعي يا دكتور، نحن نريد حل الأزمة لا أن نزيدها تعقيداً، دعنا نحاول زحزحة الصخرة باستخدام المقطورة أولاً، ثم افعل ما بدا لك بعد ذلك.

«ليب»: لا بأس، و إن كنت أظن أن هذه المحاولة لن تنجح.

«هانئ»: لديك وصلة حديدية أليس كذلك؟

«ليب»: بلى لدي وصلة طويلة تنتهي بخطافين في الطرفين.

«ماهر»: الطريق إلى الكهف ضيقة و لا يمكن للمقطورة أن تمر خلالها.

«هانئ»: سنصل إلى أقرب نقطة ممكنة و نجري المحاولة.

ثبت «ليب» الخطاف في الحلقة المخصصة له في العمود الأفقي الخلفي للمقطورة، بينما تعاون «هانئ» و «ماهر» على إحاطة الصخرة بحبل متين ثم أدخل «هانئ» الحبل داخل الخطاف الثاني، و أعطى «ماهر» إشارة البدء ليتحرك «ليب» بالمقطورة، في حين أحاط الأربعة الآخرون بالصخرة يحاولون دفعها في نفس

اتجاه حركة المقطورة، تحركت المقطورة ببطء، ووصلت الوصلة لأقصى امتداد لها، وبدأت تجذب الجبل المحيط بالصخرة، وفي نفس الوقت بدأ الرفاق في الدفع بأقصى طاقتهم، ولكن الصخرة لم تتزحج قيد أنملة، فزاد «لييب» من الضغط على دواسة الوقود ليزيد من قوة الجذب، فلم تتحرك الصخرة أيضاً إلا أن الجبل انقطع.

كرروا المحاولة للمرة الثانية لكن هذه المرة قاموا بتثبيت الخطاف الثاني في نتوء بارز من الصخرة، فانتهت المحاولة بكسر النتوء، وفي المرة الثالثة تمكنوا من تثبيت الخطاف بطريقة أكثر إحكاماً في نتوء أكثر عمقاً، وبدأت المقطورة في إصدار أصوات أشبه بالصراخ، وبدأ لهم أن الصخرة على وشك أن تتزحج، فازدادت حماستهم، وعلت صيحاتهم، وارتسمت على وجوههم أشد علامات العزم والتصميم، لكن قبل أن تتحرك الصخرة انكسرت الحلقة المثبتة في العمود الخلفي للمقطورة، واندفعت المقطورة للأمام بسرعة بالغة وقد فقد «لييب» السيطرة عليها لعدة ثوانٍ، ثم استعاد التحكم فيها بصعوبة بالغة وتمكن من إيقافها في اللحظة الأخيرة قبل اصطدامها.

جلس الرفاق يلتقطون الأنفاس بين شهيق الأسى وزفير الاحباط، وقد تمكنت علامات خيبة الأمل من قسمة الوجوه، و«لييب» يشير لهم مودعاً، وهو يقول: لا مجال لمحاولة أخرى، سأذهب لتنفيذ ما اتفقنا عليه، تأكدوا أنني لن أخذلكم، أنا من أدخلتكم في هذه الورطة، وأنا من سيخرجكم منها.

لم يرد عليه واحد منهم، و جلسوا في صمت يراقبون المقطورة وهي تبتعد.

*** **

«عاصم»: الأمر يستحق محاولة ثانية، فهذه المتاهة أصبحت الأمل الوحيد لنا.

«جميلة»: ماذا تقصد؟

«عاصم»: نحاول اكتشاف الفروع الخمسة بحذر ربما أحدها يؤدي إلى الخروج من الكهف.

«ماجد»: يمكننا أن نذهب نحن الأربعة، و نتفقد فرعاً فرعاً من فروع المتاهة الخمس فعند أول تفرع يقف أحدها و يمضي الثلاثة، و عند التفرع الثاني يقف أحدها و يمضي الاثنان، و عند التفرع الثالث يتوقف واحد و يستمر الآخر، و هكذا نفعل مع كل طريق من الطرق الفرعية الخمسة لنرى إلى أين ستتهي بنا.

«عادل»: و يكون التواصل بيننا بالأصوات و الحبال في حدود المسافات التي تسمح بها علو الأولى و طول الثانية، فكرة لا بأس بها.

«سارة»: و ماذا عنا نحن الثلاثة؟

«عاصم»: ماذا عنكن؟ ستتظرن هنا بالطبع، أم تردن المشاركة؟

«جميلة»: أنا لا قدرة لي على المشاركة في هذه المخاطرة، و أفضل الانتظار هنا عسى أن يأتي الفرج من طريق غير المتاهة.

«حورية»: أما أنا فأريد المشاركة.

«سارة» وهي تقلب النظر بين «حورية» و «جميلة»: أنا مترددة.

«جميلة» بتوسل: أرجوك، لا تتركيني وحدي.

«سارة»: حسناً. سأكون في ذيل القافلة بحيث أقف على مسافة يمكنني فيها التواصل والحديث معك وأنت عند مدخل الممر، وفي نفس الوقت التواصل مع «حورية» وهي تقف عند أول تفرع، وليكمل الرجال الطريق.

هز الرفاق الرؤوس بالموافقة، وأخذوا في تجهيز الحبال و المصابيح، ثم شرعوا في تنفيذ الخطة، و بعدما وصلوا إلى أبعد نقطة ممكنة في كل فرع من الطرق الخمسة، عادوا أدراجهم إلى الكهف بوجبة دسمة من خفي حنين مضاف إليها الاحباط و التعب و الظمأ.

كانت المحاولات الصاخبة لزحزة الصخرة تتم أثناء وجود الأصدقاء في المتاهة لاستكشافها، و حتى «جميلة» التي انتظرتهم على بابها كانت بعيدة عن الصخرة، فلم تلتقط أذانها صراخ المقطورة، و صياح زملائها.

تحلق الأصدقاء كعادتهم في وسط الكهف ينظرون في أمرهم، فقالت جميلة: معنى هذا أن جميع الطرق تتفرع تفرعات لا نهاية لها؟

«ماجد»: لا نستطيع الجزم بهذا فنحن لم نصل إلى نهايتها، و لكن المسافات التي قطعناها داخلها توحى بذلك.

«عادل»: ما عدا الطريق الأوسط من الفرع الثاني، لم يتفرع حتى اللحظة التي غادرته فيها، ولكنه أيضاً لم يبد له نهاية.

«عاصم»: ربما كان سيتفرع بعد مسافة طويلة نوعاً ما بعكس الطرق الأخرى.

«حورية»: وربما كان مستقيماً حتى النهاية.

«سارة»: في هذه المسألة لا أحد عنده فصل الخطاب.

«جميلة» وقد أثارت عبارة «حورية» قلقها: ولنفرض أنه مستقيم حتى النهاية، فماذا يعني هذا بالنسبة لك؟
«حورية»: يعني أنه يستحق التجربة.

انتفض «عاطف» بعاطفته المعهودة وقال: ماذا تقصدين؟
إياك أن تفكري.

«حورية»: من حقي أن أفكر و من حقي أن أتخذ القرار.

«عاصم»: المسألة خطيرة يا «حورية»، ونحن نخشى عليك الهلاك.

«حورية» بهدوء: أقدر حسن نواياكم جميعاً، لكن هذا لا يعطيكم الحق في الحجر على حريتي في الاختيار.

«عادل»: بل يعطينا، إذا وجدنا إنساناً مقدماً على الانتحار بإرادته فهل نتركه احتراماً لحريته؟

«سارة»: وما يدريكم؟ لعل الانتحار هو في الانتظار.

«ماجد»: جميع الاحتمالات قائمة، لكننا نرجح أن اختبار المتاهة أشد خطورة من الانتظار في الكهف.

«حورية»: طالما الأمر قابل للاحتتمالات و الترجيحات، فمن حق كل واحد منا أن يرجح ما يشاء منها، لا تنسوا أننا لم نشارك في هذه الرحلة و لم نصل إلى هنا إلا من أجل الاقتراب من كنه الحرية، أفحين تحين ساعة الجدل نلقي بها خلف ظهورنا.

«جميلة» بقلق بالغ: هل ستفعلينها حقاً؟

«حورية»: لم أقرر بعد و لكنني احتفظ لنفسي بهذا الحق، و ما زالت الفكرة قيد الدراسة.

مال «عاطف» على «عاصم» هامساً: وقتها سأمنع هذه المجنونة بالقوة لأريح ضميري.

فأجابه «عاصم» هامساً أيضاً: و هل حين تراها تلفظ أنفاسها الأخيرة هنا في الكهف ستشعر بالراحة، عقولنا تخبرنا أن المتاهة هي الاحتمال الأضعف في النجاة، لكننا جميعاً نعلم أن الاحتمال الأضعف ينجح أحياناً.

توجهت «حurie» إلى الزاوية القريبة من المصباح كعادتها كلما أرادت القراءة، و أخرجت المذكرات و قبل أن تبدأ لحقت بها «سارة» بسرعة و قالت: أنتِ إنسانة غريبة جداً، كيف يمكنكِ القراءة الآن، أنتِ غير طبيعية قطعاً.

«حورية»: لم يتبق سوى جزء يسير من مذكرات جدي، و قلبي يحدثنني أنني قد أجد فيها ما يساعدني على اتخاذ القرار.

«سارة»: لم يعد لدي أدنى قدرة على الجدل، أنتِ و شأنك.

مرت حوالي الساعتان على رحيل «لييب» بالمقطورة، وأوشك النهار على الانتصاف، فجلس «هانئ» و «ماهر» و «ليلي» و «حنان» في ظل شجرة بالقرب من الصخرة التي تسد مدخل الكهف، ثم قال «ماهر» موجهاً حديثه لـ «هانئ»: كيف تركته يمضي بتلك البساطة؟

«هانئ»: ألم تر أنه كان مسلحاً؟

«ماهر»: وإن يكن، كان يمكننا التحايل بأية وسيلة، ربما هرب وتركنا لمصيرنا، كيف تضمن عودته؟

«هانئ»: سيعود لا شك عندي في ذلك.

«ليلي»: من أين لك تلك الثقة؟ ما الذي سيدفعه للعودة؟

«هانئ»: غروره العلمي، فهو ما زال يرى نفسه عالماً لا مجرماً، ولو كان يريد هلاكنا لما أطلق سراحنا.

«حنان»: العجيب أنه مع كل تلك الجلبة التي أحدثناها، لم تأتأ أية إشارة من داخل الكهف تفيد أن أصدقاءنا قد شعروا بمحاولاتنا!

«ماهر»: ربما لم يسمعوا.

«ليلي»: وربما سمعوا لكن ليس لديهم وسيلة لإشعارنا.

«هانئ»: أرجو فقط أن يكونوا لا يزالون بخير.

«حنان»: وماذا في أيدينا أن نصنع الآن؟

«ماهر»: لا شيء سوى الانتظار.

«ليلي»: لما لا نحاول الوصول إلى النجدة سيراً على الأقدام؟

«هانئ»: هذا قد يتطلب قطع مسافة طويلة جداً، و الوقت الذي سنقضيه في قطع هذه المسافة سيراً على الأقدام أطول بكثير من الوقت المتوقع لوصول الحفار.

«ماهر»: هذا إن وجدنا بعد تلك المسافة من يمكنه مساعدتنا.

«حنان»: يبدو أنه ليس في أيدينا شيء بالفعل.

*** **

سرعان ما اندمجت «حورية» مع البقية الباقية من مذكرات جدها، و ما كانت تقرأه منها لم تكن تراه ببصرها و إنما تسمعه بجنانها و تشاهده بوجدانها، فأخذت تراقب الكلمات الصادرة من حنجرة جدها و هي تتحول إلى صور ناطقة أمامها:

(... تعددت اللقاءات و توطدت الصلات بيني و بين الفتى، فقصصت عليه و أنصت له، و جمعتنا هواية المشي عدة مرات، و في إحدى هذه المرات جلسنا على أريكة في إحدى المنزهات العامة التي تطل على المحيط في قلب العالم، و وضع الفتى حقيته بيننا و أسند إليها ذراعه، ثم سألني الفتى:

- و لذلك قلت إن قصتك هي قصتي؟

- نعم.

- و لكنها ليست كذلك.

- نعم.

- معنى هذا أنك تراها هي هي وفي نفس الوقت تراها ليست هي؟

- نعم. فكما لا تتطابق بصمتان لا تتطابق قصتان، فكل واحد على ظهر البسيطة من بني جنسنا نسيج وحده، لم يتكرر في من مات قبله، ولن يتكرر مع من ولد بعده.

- و تعتقد أن كل واحد من هؤلاء له قصة تستحق أن تكتب!

- هذا السؤال إن كان استنكارياً فهو يعكس شعوراً يستوجب طلب المغفرة.

- أي شعور هذا؟

- الشعور بأن الكثير من بني البشر لا نفع لهم، ولا لزوم لوجودهم، ولا طائل من معرفة قصصهم، وأن الحياة كانت ستصبح أجمل بدونهم.

- هذه حقيقة رأيتها بعيني.

- أنت رأيت لقطات و مشاهد من سلوكهم و تصرفاتهم في أجزاء من حياتهم، هذه النظرة الجزئية القاصرة لا يمكن أن تعكس الحقيقة الكاملة.

- هب أنني رأيت الحقيقة الكاملة ألن أجد جماً غفيراً منهم لا جدوى من وجودهم سوى الضرر و التعاسة لمن حولهم؟

- ربما. ولكن تذكر أن هؤلاء الأشقياء وقفوا بين يدي الذات العلية، وخاطبتهم يوم «ألست؟» وأجابوا الجواب الصحيح، فكل هؤلاء حضروا هذا المشهد وأصبحوا من أصحاب الميثاق الأول، أتريد أنت محوهم من الحياة بالمحاة؟ سكت الفتى برهة، ثم بدا له أن يعود إلى النقطة الأولى، فقال: وكيف انتهت قصتك؟ وما الذي وصلت إليه في رحلتك؟ هل أدركت الحرية؟

- لم تنته قصتي طالما لم تنته حياتي، أما عن الحرية فلم أجد لها مدركاً، كل ما أستطيع أن أقوله لك إنها موجودة وحقيقة و لكنني لا أستطيع أن أراها بعيني ولا أن أ لمسها بيدي، ولا يمكنني إدراك ماهيتها ولا الإحاطة بكنهها.

- هذا ليس بجواب، هذا عجز عن الجواب.

- الْعَجْزُ عَنْ دَرَكِ الْإِدْرَاكِ إِدْرَاكٌ وَالْبَحْثُ عَنْ سِرِّ ذَاتِ السِّرِّ إِشْرَاكٌ

وفي سرائرِ هِمَّاتِ الورى هِمَمٌ عن دركها عجزت جنُّ وأملاك - وهكذا أضفت حضرتك ركناً سابعاً لأركان الإيمان، الإيمان بالحرية، نؤمن بها لكن لا نحيط بها.

- حضرتك، أنا لم أضف شيئاً، فمبحث الحرية وثيق الصلة بالقضاء والقدر، والقدر ركن من أركان الإيمان، شأنه شأن بقية الأركان، من ذا الذي يستطيع أن يدعي أنه قد أحاط بها علماً؟ وكما يشعر الإنسان بالعجز أمام الذات المقدسة العلية، وأمام شخص الرسول الكريم، وأمام آيات الذكر الحكيم، وأمام إدراك

الملائكة المقربين، و أمام فهم الحياة الآخرة، فعليه أن يشعر بالعجز أمام تصارييف الأقدار، و حظه من الاختيار. ثم أشرتُ إلى المحيط و أضفتُ: ها هو المحيط أمام ناظريك، هب أنك أحرزت منه دلواً، أو حتى جمعت منه بحراً، هل يعني هذا أنك سبرت أغواره و كشفت أسرارهِ؟

- كلامك عن المحيط يذكرني بحكيم القرية، يبدو أن جيلكم كله يفكر بنفس الطريقة.

- و كيف تفكر أنت؟

- أفكر بلا حدود، و أشعر بلا حدود، لا أنوي العيش في دوامة العجز، أدرك أن حريتي في التصرف مقيدة لأن هناك قوة أكبر مني لم تأذن لي في التصرف، و لو أذنت لأصبحت حرتي في التصرف مطلقة و لاستطعت تغيير قلب العالم كما أردت، لكنني أدرك أيضاً أن حريتي في التفكير و الشعور مطلقة من البداية، قد وهبت لي منذ خلقت إنساناً.

- كيف تكون حريتك في التفكير مطلقة و هي مقيدة بنسبة الذكاء التي ورثتها، و العلوم التي درستها، و الخبرات التي نلتها؟ كيف يكون العقل مطلقاً و منه اشتق الاعتقال و المعتقل؟

- و هكذا ترى المشاعر أيضاً؟

- كما يمكن خداع العقل يمكن خداع المشاعر، و كما يزيغ العقل تزيغ المشاعر، و لو مدحت لك شخصاً و أنشدت لك الأشعار في جميل خصاله ستحبه، و لو ذمته لك و نظمت لك القصائد في قبيح فعاله ستبغضه، و أعدك أنني في الحاليين لن أكون كذاباً.

- أرجوك لا تفرض علي نتائجك، أخبرتك أن قصتي ليست قصتك، وأن رحلتي ليست رحلتك.

- صدقت يا صادق، أنا بدأت رحلتي في خريف العمر وأنت بدأتها في ربيعك، وفررت أنا إلى قرينتك وفررت أنت منها، وقصتي أوشكت على نهايتها بينما قصتك لا تزال في بدايتها، أدرك هذا جيداً. أطرقتُ لحظات ثم رفعتُ رأسي وسألتُهُ: هل فتحت الصندوق؟

- أجل. و طالعت الوصايا، لكنني لم أعرف أين السفينة التي علي أن أركبها، ولم أحدد الأصنام التي يجب أن أكسرها، ولم أجد العصا التي لا بد أن ألقها.

- ستعرف يوماً وستجد حتماً.

- وهل عرفت أنت و وجدت؟

- ألم تخبرني أن قصتك غير قصتي؟

- بلى.

- وأنا بدوري أخبرك أن سفينتك غير سفيتي، وأصنامك غير أصنامي، وعصاك ليست عصاي.

- نعم، كل واحد من بني جنسنا نسيج وحده.

- أجل.

- وبما تنصحني؟

- العودة إلى القرية.

- هل هذا ما طلبته منك أمي؟

- لا .

- إذن لا .

- و إلى متى ستظل منقطعاً عنها، و لا تراسلها؟ أتظن أنها
تحمّل تلك القسوة؟

- أنا لم أنقطع عنها سوى ستة أشهر من بعد الحادثة، و كان
ذلك رغماً عني، و قد عاودت مراسلتها منذ ذلك الحين و حتى
الآن، فأنا ليس لدي أعز منها.

- فلما لا تعود إليها؟

- عودتي معناها نهاية رحلتي، معناها فشلي في مهمتي .

- و ما معنى بقائك في تلك المصيدة؟ و حتام ستظل أسيراً
لقلب العالم؟

- حتى أفهم سر نفاق هذا القلب و قسوته .

- أيهما أولى: أن تفهم سر القلب القاسي أم العودة إلى القلب
الحنون؟

- القضية ليست أن تعود إليه و إنما أن تحمله معك، و ليست
أن تعيش فيه و إنما أن تعيش به .

- و متى تظن أنك ستفهم هذا السر؟

مد الفتى يده إلى الحقيقة، و وضعها على ركبتيه، و فتحها
ليخرج منها صندوقين، أحدهما الصندوق الذي أرسلته والدته
السيدة «رحيمة»، و الآخر مماثل له تماماً إلا أنه حديث الصنع،

و فتح الصندوق الأول و أخرج منه القطع الجلدية التي تحتوي
الوصايا الثلاث، و أخرج من الآخر ثلاث قطع جلدية أيضاً إلا
أنها خالية من الكتابة، ثم أعاد الصندوقين إلى الحقيبة مرة أخرى
و أغلقها، و استخدمها كطاولة وضع عليها من الجهة اليمنى
الوصايا الثلاث، و من الجهة اليسرى وضع القطع الجلدية
الخالية، ثم قال: كما أرسلت لي أمي تلك الوصايا الثلاث،
أرسل لي قلب العالم ثلاث رسائل أيضاً شعرت بها في عقلي مع
أعنف ثلاث لكلمات تلقيتها في الحادثة الأخيرة منذ عامين تقريباً
لكنني لم استطع أن أتبينها وقتئذ، و لم أتمكن من فك طلاسمها،
و منذ ذلك الوقت و أنا أحاول حلها و كشف سرها، و عندما
أنجح في حل تلك الشفرة سأتححرر من أسر قلب العالم.

- الصندوق الأول أعرفه تمام المعرفة، أما الثاني فمن أين لك به؟
- صنعته بنفسني، ألم أخبرك عن مدى شغفي بهذا الصندوق،
و ماله من ذكريات عندي.

- يبدو أنك ورثت تذوق الجمال و صناعته من جدك.

- أشكر.

- و كيف كانت محاولاتك لفهم رسائل القلب القاسي، قلب
العالم الحالي؟

- كنت أستحضر الأحداث التي مرت بي قبل الواقعة ثم
أستعيد المشهد و أحاول أن أنصت و أفهم.

- و هل كنت تشعر بألم الركلات و اللكمات وقتها؟

- نعم.

- لا يمكن الفهم وقت الألم، لا بد أن تتحرر من الألم أولاً.

- وكيف يمكن ذلك؟

- أنت كنت تستعيد المشهد من الداخل، تشاهده من خلف ضلوعك المحطمة، وتشعر أنك داخل هذا الجسد والركلات و اللكمات تأتيك من الخارج. أليس كذلك؟

- بلى.

- أريدك الآن أن تستعيد المشهد من الخارج، أخرج من خلف أضلاعك المحطمة، وشاهد هذا الجسد من الخارج وكأنه ليس جسداً أنت، وانظر إلى وجوه المهاجمين إلى عيونهم إلى أفواههم، ستقرأ فيها الرسائل التي أرادوا إيصالها.

أغمض الفتى عينيه، و أراح رأسه إلى الخلف، وبعد عدة دقائق لاحظت دمتين تفلتان من قبضتي جفنيه، ثم فتح عينيه و التقط قلمه من جيب قميصه، وبدأ يسجل ما وصل إليه على القطع الجلدية المرصوة على الجهة اليسرى من الحقيبة، ثم قال و هو يجفف دمه: كنت كلما استعدت هذا المشهد أشعر بالألم لكن دون بكاء، وهذه هي المرة الأولى التي استعيده فأبكي لكن دون ألم.

التقطت الحقيبة منه و وضعتها على ركبتي، و أخذت أطالع القطع الجلدية و ما كتب فيها، فوجدت الوصايا التي أحفظها عن ظهر قلب على الجهة اليمنى:

(لكي تجد الحرية يجب أن تترك سفينة النجاة)

(لكي تعيش حراً يجب أن تحطم جميع الأصنام)

(لكي تظل حراً يجب أن تلقي عصاك)

و على الجهة اليسرى وجدت ما سجله الفتى منذ لحظات:

إن أردت أن تعيش في قلب العالم فعليك أن تكون تابعاً لا متبوعاً.

إن أردت أن تنجح في قلب العالم فعليك أن تقبل بالتاريخ المزور.

إن أردت أن تستمر في قلب العالم فعليك أن ترضى بالاختيار الزائف.

قلت: أحسب أن الشفرة قد حلت، و أن الصورة أمامك قد اكتملت، فماذا أنت صانع؟
- سأنطلق.

- إلى أين؟

- إلى المحطة التالية في رحلتي.

- أما زلت تريد أن تصلح العالم و تحرره؟ أما زلت ترى أن مكتبة الحكيم فيها الكفاية؟

- إذا أردت أن تعيش سعيداً فيجب أن تسعد من حولك، و كذلك إذا أردت أن تحيا حراً فعليك أن تحرر من حولك.

- الإشكالية يا صديقي أن الأولى عكس الثانية.

- كيف ذلك؟

- لا يسعد الإنسان حقيقة إلا بعد أن يسعد من حوله، بينما لا يمكنه أن يحرر من حوله إلا إذا تحرر هو أولاً، يعني الحالة الأولى تتوافق مع قاعدة ساقي القوم آخرهم، بينما الثانية تتلاءم أكثر مع قاعدة ابدأ بنفسك فانها عن غيرها، فإن انتهت حقاً فأنت حكيم. ففي أي السبيلين ستمضي: سبيل السعادة أم سبيل الحرية؟

- أنا ما زلت في رحلتي مع الحرية، ولن أنتقل منها لغيرها حتى أصل فيها إلى نتيجة مرضية، أعلم أنني تعثرت كثيراً و توقفت طويلاً، لكني سأبدأ من جديد، و سأصطحب معي نصيحة حكيم قريتي، و وصايا أسرتي، و أحسب أنني حين أجدها و أدل عليها من حولي سأكون سعيداً أيضاً.

- فما هي محطتك التالية إذاً؟

- محطتي التالية هي الوصية الأولى التي جئني بها، سأبحث عن سفينة النجاة.

- و أين تتوقع أن تجدها.

- من ضمن ما قرأت في مكتبة الحكيم كتاب قديم جداً و عجيب جداً، يتحدث عن منطقة كانت مأهولة ثم أصبحت مهجورة، كانت مقصداً للرحالة و السالكين الذين يبحثون عن أرض تجتمع فيها التناقضات، و تنفك فيها العضلات، ظاهرها غير باطنها، من يصلها يشعر أنه انتقل من بعد إلى بعد، و من أرض إلى أرض، و من زمان إلى زمان، و من حياة إلى حياة، كأنها جسر بين عالمين، أو برزخ بين حياتين، لكن الخطورة تكمن في أن

الغالبية يصلون إلى ظاهرها و لا يصلون إلى باطنها، و من يصلون منهم غالباً لا يعودون منها، و من يعودون منها لا يتكلمون عنها، و قد ارتبط اسم تلك المنطقة ببعض حوادث الاختفاء، قيل إن ذلك من الأساطير، و قيل بل إشاعات، لكن في النهاية توقف السالكون عن قصدها، و لم يكشف حتى الآن عن سرها، لا أعرف اسمها، و لم أجد رسمها، لكن إن عثرت عليها فأحسب أنني سأجد فيها سفينة نجاتي.

مع كل جملة نطقها الفتى كان ضربات قلبي تتصاعد و أنفاسي تتلاحق، فلما انتهى من كلامه قلت له:

- هذه المنطقة تقع في بلادنا، و نطلق عليها غابة الجبل، الآباء و الأجداد يذكرون عنها أشياء من قديم ما ذكرت، و الأبناء و الأحفاد لا يكادون يعرفون عنها شيئاً مما قصصت، و مما يذكره الأجداد عنها أن فيها عدة متاهات تصل ظاهرها بباطنها، لكن عبور بحر الظلمات أيسر من عبور إحدى هذه المتاهات، أفطمع أن تتخذ من متاهة الهلاك سفينة للنجاة؟

- أجل. فالكتاب الذي ذكرته لك يحتوي على خريطة لإحدى هذه المتاهات.

- و كيف ستحصل على هذا الكتاب الآن؟

- لا أحتاج إلى الكتاب، تكفيني الخريطة.

قال العبارة السابقة، ثم فتح الحقيبة مرة أخرى، و أخرج من أحد جيوبها ورقة مطوية، نشرها بين أيدينا و هو يقول بحماس و عيناه تشعان بريقاً: نقلتها خطأ بخط، و نقطة بنقطة.

- هذه مخاطرة كبيرة، و العواقب فيها قد تكون وخيمة، ما يدريك صدق الكتاب و الخريطة، و ما يدريني دقة نقلك لها؟
- الأمر يستحق المخاطرة، و المسألة تستحق التجربة.

فكرت في نهيه و محاولة منعه، لكنني تذكرت أن السيدة «رحيمة» لم تفعل ذلك في رحلته الأولى، و تذكرت قولها: (رغبته في السفر أضحت كالشجرة المحرمة التي يعجز عن الصبر عنها البشر)، فقلت: هل تأذن لي بمرافقتك؟

أجاب ببساطة ممتزجة بالمودة: يسعدني ذلك، و قد أحتاج عونك، فهي بلدك على كل حال، و أهل مكة أدرى بشعابها.
- ما عدا هذا الشعب يا ولدي، ما عندي فيه تجربة، و لا عهد لي به من قبل.

ابتسم الفتى ابتسامة مشرقة، ثم أعاد الخريطة إلى الحقيبة، و أخرج منها الصندوقين مرة أخرى، و وضع في الأول القطع الجلدية الست التي تشتمل على وصايا القرية و رسائل قلب العالم، و أعاده إلى الحقيبة، ثم التقط الصندوق الثاني و قدمه إلي قائلاً: لاحظت مدى إعجابك به، أرجو أن تقبله مني هدية.

بادلت ابتسامته المشرقة بابتسامة واسعة، و لمعت عيناها و تهلل وجهي من فرط السعادة، و التقطت منه الصندوق، و أنا أتذكر أول مرة رأيته فيه في بيت السيدة «رحيمة»، ثم وهي تخرج منه الوصايا على شاطئ بحيرة القرية و تسلمه لي، ثم عندما رفعته فوق رأسي و أنا أصبح على الفتى حتى لا يهرب مني للمرة الثانية، ثم قلت: هدية فريدة من شخص فريد، و هبة

غالية من صديق غال، و ذكرى جميلة لأحداث و أيام جميلة.
تهدأ الفتى للانصراف و هو يقول: ما زالت لدي بعض
الأمور التي يجب أن انتهي منها في قلب العالم قبل المغادرة،
عندما أجهز للسفر سأصل بك.
- سأكون في انتظار اتصالك.

انصرف الفتى، و بقيت جالساً أمام المحيط فترة من الزمن
متأملاً الماضي و مترقباً الآتي، ثم أخذت أكتب رسالة إلى السيدة
«رحيمة» أنبئها فيها أنني قد وفيت بوعدتي و أتممت مهمتي
و أوصلت الأمانة إلى ولدها، و أطمئنتها بأنني سأرفقه في رحلته
الثانية، ثم شرعت في كتابة الصفحات الأخيرة من تلك الورقات
و وضعتها في التحفة الفنية التي أهداها لي الفتى، ثم توجهت إلى
أقرب مكتب للبريد لأرسل هذه الهدية لابني الوحيد، و كان
آخر ما كتبه ما يلي من السطور:

ولدي الحبيب.. حفيدتي الغالية:

هذه الورقات خلاصة رحلة امتدت لخمس سنوات، أبهرت
فيها و أنا أحملكما في عقلي و قلبي، حاولت فيها الرسو على
شاطئ الحرية لكنني لم أجد لها شاطئاً، فالحرية ليست قرية و لا
بلدة و لا مدينة، ليست بقعة من المكان كما أنها ليست فترة من
الزمان، كما أخبرت الفتى لا يمكنك أن تراها بعينيك أو تلمسها
بيديك لكنك تقترب منها و تشعر بها خاصة في البدايات المشرقة
التي يكون الدافع لها الخير المطلق و في النهايات المفرحة التي
تقترب فيها من الحقيقة المطلقة، هي محصلة قد تصل إلى الصفر

و قد تستمر إلى ما لا نهاية، و تضيق أحياناً حتى تصل إلى العدم و تتسع أحياناً حتى تقترب من المطلق، يستحيل في ظني تفسيرها و إدراك كنهها بقوانين كوننا و قدرات عقولنا، فهي تحتاج إلى جوهر آخر من وراء العقل، و إلى عالم آخر من وراء الكون.

أحسب أن رحلتي قد انتهت، و أن مهمتي قد أنجزت، و أن أجراس العودة قد قرعت، و لكن بقيت لي مهمة واحدة، أن أساعد الفتى على الوصول لغابة الجبل، هو يظن أنه سيجد هناك حلاً للغز، أنا لا أظن ذلك و لكني لا أستطيع أن أتركه، سأنهي مهمتي الأخيرة ثم نلتقي.

عندما تصلك هذه الهدية ستكون حوريتك الجميلة قد بلغت ربيعها الخامس عشر من عمرها المبارك، أرجو أن تشاركها تلك الهدية، ثم تعيد الكرة عند تمامها العقد الثاني من حياتها السعيدة، إن كنت معكم وقتها سأعيد قراتها معها، و إن لم أكن ففيكم الكفاية و اذكراني بالخير.

محبكم

الجد نادر

*** **

قبيل العصر وصل صوت هدير سيارة إلى أسمع الرفاق خارج الكهف، و بعد لحظات ظهرت المقطورة على مرمى البصر، فقال «هانئ»: ألم أقل لكم. ها هو قد عاد.

فهبوا مسرعين و اجتازوا الممر الذي يفصل ساحة الجبل عن المقطورة ليعرفوا ما جد من الأخبار، فترجل «لييب» من

المقطورة ملوحاً بيده وهو يقول: اطمئنوا كل شيء سيكون على ما يرام.

«ماهر»: ماذا فعلت.

«لييب»: الحفار في الطريق، و أتوقع أن يصل بعد ست ساعات من الآن.

«هانئ»: ستكون أطول ست ساعات في حياتنا و حياتهم.

«ليلي»: المهم أن يصل قبل فوات الأوان.

«لييب»: قلت سيصل.

«حنان»: لماذا تأخرت؟

«لييب»: اشتريت المزيد من الماء و الغذاء، و المستحضرات الطبية و المصابيح الكهربائية، و كل ما يمكن أن نحتاج إليه بعد تحرير الشباب.

طوت «حورية» أوراقها و الأسئلة تدور في رأسها، ما هذه الأحاجي يا جداه؟ هل أنت هنا في «غابة الجبل»؟ لماذا لم تعد طوال تلك السنين؟ هل فقدت الخريطة؟ هل اختفيت أنت أيضاً مع من اختفى؟ لماذا لم يخبرني أبي؟

يبدو أنه لا بد مما ليس منه بد، قالت هذه العبارة ثم قامت و توجهت نحو فتحة الممر، لمحها «عاطف» من الجهة الأخرى للكهف و فهم قصدها، فنهض ليحول بينها و بين مرادها، أدركت ما نوى فأسرعت الخطى و كذلك فعل، زادت من سرعتها فزاد من سرعته، ركضت فركض بدوره، سابقته

فسابقها ثم سبقها، فوصل إلى مدخل المتاهة قبلها ثم استدار
و عقد ساعديه أمام صدره حائلاً بينها وبين خيارها، و تجمع
الرفاق من أرجاء الكهف ليلحقوا بهما.

«حورية» بغضب: لا وصاية لك علي، وليس من حقك منعي.

«عاطف» بانفعال: إنما أفعل ذلك حرصاً على مصلحتك.

«حورية»: و ما يدريك أين تقع المصلحة في هذا الموقف؟
أتظن نفسك أرجح عقلاً وأكثر ذكاء مني؟

«عاطف»: أنا لم أقل هذا يا «حورية».

«حورية»: فما هي المزية التي لك حتى تمنعني من خيارى و
تجبرني على خيارك؟

«عاطف»: لقد أخبرتك. إنه الحرص ليس إلا.

«حورية»: بل أنا أخبرك، إنه ليس الحرص إنها القوة، فهب
أنني الأقوى و أنني أرى المصلحة في اجتياز المتاهة، أيعطيني ذلك
الحق في جرك من قفاك لعبورها رغم أنفك؟

«عادل»: رويدك يا «حورية»، لا يحق لك هذا، و لا يليق بك.

«حورية»: اعتذر عن الإساءة، لم أقصد الإهانة، فقط أردت أن
أضرب مثلاً يوضح ما عانيت.

«عاصم»: دعها يا «عاطف»، قد أدبت ما عليك من النصح
لها، و كل واحد له عقل في رأسه يعرف به طريق خلاصه.

«ماجد»: رغم فجاجة المثال الذي ذكرته، إلا أنها محقة، فلو

كنا نمثل مجتمعاً أو دولة لكان الفصل في هذا النزاع للقوانين و
النظم و الحكومة و البرلمان، و كانت ستجري قاعدة الانتقاص
من حرية الفرد لصالح المجتمع، و قاعدة التنازل عن قدر من
حرية الفرد في سبيل الاستفادة من منافع الدولة، و لكن هذا
الوغد الذي نصب لنا هذا الشرك، تعمد ألا تكون هناك سلطة،
و أن نكون مجرد أفراد متساوون، و بالتالي ليس أمامنا إلا إقرار
حق الاختيار المطلق أو استخدام القوة.

أفسح «عاطف» الطريق أمام «حورية» و هو يقول: بل حق
الاختيار، فما جئنا هنا إلا من أجل الحرية.

«حورية»: شكراً لكم جميعاً، و أرجو أن تسامحوني.

و عندما خطت «حورية» نحو المتاهة، تعلق بها «سارة» و
«جميلة»، فقالت الأولى: أرجوك أن تعيد التفكير.

«حورية»: قد فعلت مراراً.

«جميلة»: أرجوك لا تتركنا.

«حورية»: لو علمت نفعاً لكم في بقائي معكم لما تركتكم.

«سارة»: سأرافك حتى تتفرع بنا المتاهة.

«جميلة»: ليتني استطيع التغلب على رهبتي من دخول المتاهة.

«حورية» و هي تعانقها: لا عليك، لن تصنع هذه المسافة
القليلة فارقاً كبيراً.

تقدم «عادل» و مديده بمصباح كهربى إلى «حورية» و هو
يقول: احتفظى به، من المؤكد أنك ستحتاجين إليه.

«حورية»: معي واحد بالفعل.

«عادل»: من الأفضل أن يكون معك اثنان.

التقطت «حورية» منه المصباح، وقالت: شكراً لك.

«عادل»: في أمان الله.

«عاصم»: أرجو لك النجاة و التوفيق.

«عاطف»: لا تترددي في العودة إن أحسست بالخطر، تصحبك السلامة.

«حورية»: شكراً لكم جميعاً، أرجو أن تصلكم النجدة سريعاً.

عبرت «حورية» و «سارة» من مدخل المتاهة الذي بدا كفك وحش عملاق يلتهم فريسته، و سارتا حتى وصلتا إلى نقطة التفرع الأولى، فقالت «حورية» لصديقتها: حسبك هنا.

«سارة»: بل سأكمل معك حتى التفرع الثاني.

و عند التفرع الثاني، تعانقتا ببكاء صامت حتى انتقلت دموع كل منهما إلى كتف الأخرى، ثم افترقتا، فسلكت «سارة» طريق العودة إلى الكهف، و تقدمت «حورية» نحو الفرع الأوسط الذي أخبرها رفاقها أنه لم يتفرع حتى أقصى موضع تمكنوا من الوصول إليه داخله، و أخذت تعد خطواتها لتتمكن من تقدير المسافة التي ستقطعها، و لتزيل عن نفسها بعض الشعور بالرهبة، و هي تقول لنفسها: ها نحن نتقل من عد الأنفاس لتقدير الساعات إلى عد الخطوات لتخمين المسافات.

طالت بها الطريق، وكانت تميل بها أحياناً ذات اليمين و ذات الشمال و لكن لا تتفرع، و استمرت في السير حتى أحصت عدة آلاف من الخطوات ثم يئست من العد، و كلما طالت بها الطريق زاد رجاءها و عظم خوفها، و كانت الاحتمالات الثلاثة تتناوب أمام عينها، إما أن تكون الطريق مسدودة في النهاية، و عندها ستواجه صعوبة العودة بعد قطع هذه المسافة الشاسعة، و إما أنها ستتفرع ثانية، و عندها ستواجه صعوبة الاختيار و معضلة الترجيح بين الفرعين الجديدين بغير مرجح، و إما أنها ستحقق أملها في نيل المطلوب و درك المقصود، و عندها أيضاً ستواجه صعوبة العودة إلى الديار بعد اجتياز الاختبار.

بدأت تشعر بالإرهاق الشديد، و بدأ يتمكن منها الظمأ، و اضمحلت عزيمتها فتثاقلت خطواتها، و لاح الاحتمال الرابع أمام مخيلتها، احتمال أن تكون المتاهة لا نهاية لها و أن تقضي فيها نحبها، فأخذت تنظر حولها بعينين زائغتين مخافة أن تجد هيكلاً عظيماً لمن سبقها يؤكد لها أنها وصلت قبرها، استمرت الوسواس في صحبتها، و لم تتنازل المخاوف عن رفقتها، و تضاءلت الأمانى عندها حتى أصبح منتهى أملها أن تموت في الضوء على ظهر الأرض لا أن تموت في الظلام في بطن الجبل.

توقفت لتقرر هل تجلس لتتظر الموت دون بذل المزيد من الجهد و التعب أم تستمر في السير حتى آخر رمق؟

جلست بالفعل و شعرت بشيء من الراحة بعد طول المشي، لكنها سرعان ما اكتشفت أن انتظار قدوم المنايا أقسى من الذهاب إليها، فقامت و أطلقت شعاع المصباح لأبعد مسافة

ممكنة، فلاحظت أن الطريق تتسع بالتدريج عند هذه النقطة، فتجدد الأمل في روحها، فبثت العزيمة في نفسها، والقوة في بدنها، فواصلت سيرها حتى تأكد لها ما لاحظته عينها، وكلما تقدمت كلما اتسعت الطريق أمامها، حتى انتهت إلى ساحة فسيحة، فوقفت في وسطها، وأضاءت المصباح الإضافي الذي أعطاه لها «عادل»، وعلى ضوء المصباحين تفقدت الجدران المحيطة بها من اليمين إلى الشمال، فوجدت في أقصى اليمين طريقاً فرعية جديدة، وكلما سار الضوء على الجدار كلما رأت طريقاً أخرى، حتى أحصت منها سبعة، فجثت على ركبتيها ودفنت وجهها في كفيها، وبكت بحرقة على الحال التي وصلت إليها، كانت تتوقع طريقين، وكانت تحمل هم الاختيار بينهما، وها هي تجد نفسها مطالبة بالاختيار بين سبعة خيارات لا اثنين، وشعرت أنه كلما اتسعت حريتها في الاختيار ضاقت فرصتها في الصواب، فما فائدة الاختيار بغير علم، وما قيمة الحرية بلا عرفان، فرفعت وجهها نحو السماء وقالت: أرجوك.. لا أريدها.. لا أريد الحرية، أريد الهداية.

*** **

تحلق الرفاق أمام الممر المؤدي إلى الوادي الواقع أمام الكهف قبيل الموعد المتوقع لوصول السيارة التي تحمل الحفار، وأضاءوا جميع ما معهم من المصابيح ليسهلوا على السائق التعرف على موقعهم عن بعد، فبدت البقعة التي يجلسون فيها كقطعة من النهار المشرق وسط الليل المظلم، وجلسوا يترقبون مرور الدقائق الأخيرة من الساعات الست لتحين ساعة الصفر، مرت

الدقائق ثقيلة بطيئة و دقت ساعة الصفر و لم تظهر السيارة و لم يصل الحفار، أرهفوا السمع و أطلقوا البصر لعلهم يسمعون الموسيقى الصاخبة الصادرة عن محرك السيارة أو يشاهدون الأضواء الراقصة المنبعثة من مصابيحها، لكن لا الأولى شنت أذانهم و لا الثانية خطفت أبصارهم، و استمرت الدقائق في المرور البطيء المسعر للقلق المدمر للأمل، و أربعة أزواج من العيون تنقل البصر بين الجهة المترقب وصول الحفار منها بتربص و شغف و بين النظر للدكتور «لييب» بغيظ و غضب، ثم مال «ماهر» نحو «هانئ» و همس في أذنه: (لو لم تصل النجدة فلن يكفني قتله).

ألقي «ماهر» عبارته و لم ينتظر جواب صاحبه، وإنما توجه نحو صخرة مرتفعة إلى حد ما و تسلقها رغم إصابته لتتيح له مساحة أوسع و مسافة أبعد من الرؤية، و في نفس الوقت تسلفت «ليلي» إحدى الشجيرات على الجهة المقابلة لنفس الهدف، و بعد حوالي نصف ساعة، صاحت بمزيج من الفرح و الجزع: أرى أضواء سيارة من بعيد، لكني لا أدري هل هي متجهة إلينا أم لا؟

«حنان»: يجب أن نجبرها على التوجه إلينا. قالت عبارتها و التقطت أحد المصابيح القوية و أخذت تطفئه و تشعله عدة مرات في الاتجاه الذي أشارت إليه صديقتها.

«ليلي»: أشعر أنه يقترب، لكني لا أدري هل التقطت إشارتك أم أنه طريقه بطبيعة الحال.

«لييب»: لا بد أنها سيارة الحفار، من سيأتي لهذا المكان في هذا الوقت غيرهم.

صاحت «ليلى» بفرع: إن كان كذلك فلما يتعد الآن!

في هذه اللحظة كان «لييب» يمر أسفل الصخرة التي يجلس «ماهر» فوقها، فلم يفلت الأخير الفرصة وقفز نحوه كالصاعقة فطرحه أرضاً واشتبكا في الصراع، حاول «لييب» أن يدفعه من فوق صدره، لكن «ماهر» كان يعرف تماماً ما يريد، فلكمه بيده اليمنى في نفس اللحظة التي سلب فيها سلاحه بيده اليسرى، اشتد فزع «هانى» و توجه نحوهما مسرعاً لمنع وقوع جريمة محتملة، ولكن قبل أن يصل إليهما، سمع صوت انطلاق رصاصة أحدثت دويّاً مدوياً، فصاح بأعلى صوته: لا.

صاح «ماهر»: حنانك يا دكتور «هانى». أنا أطلقت رصاصة في الهواء للفت انتباه السيارة إلينا فهي أملنا الأخير.

و في نفس الوقت صاحت «ليلى»: السيارة توقفت بالفعل، و ها هي تغير اتجاهها نحونا.

«حنان» بفرح: لقد نجحنا.

«ليلى»: لكنها ما زالت بعيدة و أخشى أن تحيد عنا مرة أخرى.

قام «لييب» و هو ينفذ الغبار عنه و وقفز في المقطورة و أدار محركها و أشعل مصابيحها الأمامية، و بدأ يستخدم آلة التنبيه لجذب السيارة نحو موقعهم.

«ليلى»: لقد انحرفت السيارة عن مجال رؤيتي، لكنني أحسب أنه يمكن متابعتها من فوق الصخرة المقابلة.

أعاد «ماهر» تسلق الصخرة، و لحق به «هانئ»، فقال الأول: أجل. يمكن رؤيتها من هنا. فأضاف الثاني: ويبدو أنها متوجهة إلينا بالفعل.

استمر هذا المشهد لبضع دقائق، كلما تقدمت السيارة كلما اشتعل حماسهم و علا صياحهم، و كلما أبطئت أو توقفت كلما اشتد جزعهم و علا صراخهم، حتى وصلت أخيراً و ترجل قائدها و مساعدته، فأسرع الجميع إلى استقبالهم.

تقدم السائق نحو الدكتور «لييب» و صافحه قائلاً: معذرة للتأخير، الطريق ليلاً في غاية الصعوبة، لقد كدنا أن نضل لولا أننا سمعنا صوت مدوياً يأتي من جهتك، و لاحظنا بعدها بعض الأضواء، ففهمنا الإشارة، و توجهنا نحوكم.

«لييب»: ليس لدينا مزيداً من الوقت لإضاعته، هل أنتم جاهزون؟

«السائق»: نعم.

و بدأ الرجل على الفور و معه مساعدته في إنزال الحفار على عربة صغيرة تعمل بالكهرباء، و قاما بتوصيل الأسلاك بالمولد الكهربائي الموجود في السيارة الناقلة، و اجتازوا الممر المؤدي إلى الكهف و خلفهم المجموعة كلها، و في يد كل منهم مصباح، و في اليد الأخرى حقيبة صغيرة ممتلئة بالماء و بعض الأطعمة.

أشار لهما «لييب» على الموضع الذي يريدان أن يبدأ منه الحفر، فقاما بتثبيت الحفار عنده، و أخذ كل منهما الموضع المناسب، ثم قام السائق بسحب اليد المخصصة لبدء التشغيل.

وبدا صوت الحفار المزعج الصاحب كأعذب لحن سمعته
أذانهم.

*** **

كان الجهد قد بلغ بأصحاب الكهف كل مبلغ، ومع ذلك
تفرق كل منهم في ركن من أركانه ينظر في حاله، فعادت «جميلة»
إلى التضرع والدعاء، وعادت «سارة» إلى التضجر والاضطراب، و
غرق «عاطف» في المخاوف، ودخل «عاصم» في الوسائس، وفقد
«عادل» القدرة على التفكير، وأسقط «ماجد» محاولات التدبير.

وبينما هم على تلك الأحوال، تسلفت الاهتزازات لأبدانهم،
والذبذبات لأسماعهم، فقاموا جميعاً من فورهم، وأقبل بعضهم
على بعض من كافة أرجاء الكهف، فالتقوا في وسطه على
ضوء المصباح الضعيف الذي بقي معهم، ثم توجهوا إلى بابه،
حيث تقبع الصخرة العملاقة، وكلما اقتربوا منها زاد شعورهم
بالاهتزازات وسمعاهم للذبذبات، فانطلقت حناجرهم:

- أنها النجدة.

- لقد نجونا.

- إنه الحفار.

- لقد فعلها أصدقائنا.

- مرحى مرحى.

- الحرية الحرية.

- الحمد لله.

ثم بدأت موجة من الصيحات و القفزات و الضحكات و
التصفيق تنتشر بينهم رغم الجوع و العطش و التعب، و تزداد
حدثها كلما اقترب الحفار من أنجاز مهمته.

و عندما استسلمت الصخرة، و انكشفت حصونها، و سقطت
راياتها، التقى الجمعان وسط الغبار الكثيف و الأتربة، و قد
سلطت عليها الأضواء الكاشفة الساطعة فبدت ذرات الغبار
بأحجامها و ألوانها المتباينة و كأنها مزيج من اللؤلؤ المنشور و
اليواقيت و الأحجار الكريمة.

و وسط هذا المشهد الذي ظاهره يزكم الأنوف و باطنه يسعد
النفوس، تصافحت الأيدي و تعانقت الأعناق، و التقت الوجوه
و تشابكت القلوب، و تداولوا الزجاجات و الكؤوس، فلما انقشع
النقع، و سكن الجمع، اختفى ما كان ظاهراً، و ظهر ما كان خافياً،
فانطلق سؤالان من جهتين متقابلتين، أحدهما على لسان «هانئ»
و الآخر من حنجرة «ماهر»:

فقال الأول: أين «حورية»؟

و قال الثاني: أين «ليب»؟

أطرق أصحاب الكهف وجوههم، ثم قال «ماجد» بمزيج
من الحزن و الحذر: لقد اختارت اختبار المتاهة.

و تلفت أصحاب المقطورة حولهم ثم قالت «ليلي» بمزيج من
الدهشة و الغيظ: لقد اختفى هو و صاحبيه، يبدو أنه قد هرب.

قال «هانئ» بحزم مشوب بالجزع: أين مدخل المتاهة.

أشار «عادل» إلى المدخل، فأنزل «عاطف» يده قبل أن تكتمل إشارته، وقال: أرجوك يا دكتور «هانئ»، لا تجعلنا نفقد صديقين، ونخسر خسارتين فادحتين.

اغرورقت عينا «هانئ» بالدموع، لكن لم يبد أثر ذلك على صوته وهو يقول: لا يمكنني العودة دونها، إما أن أذهب معها، وإما أن آتي بها.

فأشارت له «سارة» نحو المدخل، فالتقطت حقيبتين من حقائب الماء والطعام، وحمل معه مصباحين من المصابيح القوية الكاشفة، وانطلق دون أن يلتفت.

*** **

خرج الرفاق من الكهف و كأنما عادوا إلى الحياة بعد الموت، فشعروا بمدى لطف الهواء وجمال السماء، وتوجهوا نحو الموضع الذي تركوا فيه السيارات عند مجيئهم، وأثناء مشيهم كانوا يسمعون ألحاناً عذبة لا يعلمون مصدرها، تبدو وكأنها تأتي من ثنايا الصخر وأغصان الشجر، فلما وصلوا وجدوا مفاجأة في انتظارهم، فقد كانوا يتوقعون أن يجدوا سيارة «ماجد» فقط، ولكنهم وجدوا المقطورة أيضاً، فقالت «حنان»: يبدو أنه لم يهرب. «ماهر»: هل بلغ به الجنون هذا الحد؟

«عاطف»: هل من المعقول أن ينتظرنا وهو يدرك ما قد نفعله به.

«ماجد»: نحن بالفعل في حاجة بالغة للمقطورة، فالسيارة الجيب لن تكفيها جميعاً.

«عاصم»: لعله يريد التفاوض معنا.

«عادل»: أياً كان ما يريده سنعلمه بعد لحظات.

حشوا الخطى نحو المقطورة، فلما وصلوا عندها لم يجدوا أحداً داخل موضع القيادة، فصعدوا داخلها فلم يجدوا أحداً أيضاً، نزل «ماجد» من المقطورة، وصعد إلى موضع قيادتها فوجد المفتاح في موضعه، فصاح بفرح: أبشروا يا رفاق، حصلنا على وسيلة مواصلات جاهزة للانطلاق.

نطق عبارته السابقة وهو يدير المفتاح ليتأكد من ذلك، و بالفعل بدأ المحرك في الدوران، وفور تشغيل المحرك، اشتغلت الشاشة أيضاً داخل المقطورة، و ظهر عليها الدكتور «لييب» و هو يوجه رسالته الأخيرة لهم، قائلاً:

لقد أبلتكم بلاء حسناً يا شباب، و أداؤكم داخل الكهف كان رائعاً، رغم أنني لم أتمكن من تفسير قرارات و خيارات كل منكم ربما لأنني لم أعرف ما دار في خبايا نفوسكم، يبدو أن الحرية ليست أكبر خدعة في تاريخ البشرية كما ظننت و لكنها أكبر لغز فيه.

أعتقد أنه من الواضح الآن لديكم أنني لم أتخل عنكم، و هذه المقطورة دليل إضافي على حرصي عليكم، ما واجهتموه من المشاق لم يكن بسبب التجربة، أنا أردت أن أعلمكم و أراد القدر أن يختبركم، لو اكتملت التجربة لكان جدير بكم أن تشعروا بالرضا عما أنجزتم في مجال النفس و أن تشعروا بالفخر لما قدمتم لساحة العلم، لقد أنهيت التجربة و لا يعني ذلك الاعتراف بالفشل، فهي التجربة الأولى من نوعها، و في المرة القادمة سأكون أكثر حرصاً،

فالمدة الزمنية يجب أن تطول، و على أن أجد طريقة لتسجيل ما دار داخلكم كما تكمن من تسجيل ما دار بينكم، و لا بد بالطبع من وضع كاميرا احتياطية في التجربة الثانية، فكونوا مستعدين.

ثم ابتسم ابتسامته المستفزة المعهودة و أضاف:

تذكر يا «ماهر» أنني عاجلت قدمك و أنك لكمت وجهي.

هذا هو الفارق بين العالم و المتعلم.

انتهى التسجيل و انطفأت الشاشة، و تناثرت النظرات بين الأصدقاء، و تباينت التعبيرات على وجوههم، ثم توالى التعليقات:

«ماهر»: المجرم يريد أن يجعل من نفسه قديساً.

«عاطف»: و يريد أن يعيد التجربة كرة أخرى.

«ليلي»: هو ليس مجرماً، بل هو مجنون.

«حنان»: في كلا الحالين سنبلي عنه الشرطة، إما أن يدخلوه السجن و إما أن يودعوه مستشفى الأمراض العقلية.

«جميلة»: لقد فقدنا بسببه «هانئ» و «حورية».

«سارة»: لقد ظن نفسه إلهاً.

«عاصم»: لكن كلامه يستحق شيئاً من التأمل.

«عادل»: التجربة كانت بشعة في قسوتها، لكن لا يمكنني إنكار فائدتها.

توزع الأصدقاء بين المقطورة و السيارة الجيب، فاستقلت الفتيات المقطورة التي تطوع «عاطف» و «عاصم» بالتناوب على قيادتها، بينما توجه «عادل» و «ماهر» لمرافقة «ماجد»، و انطلقت القافلة.

«عادل» مخاطباً «ماجد»: هل استمعت لرسالة «ليب»؟

«ماجد»: نعم. فهناك شاشة صغيرة أيضاً في مقدمة المقطورة.

«عادل»: و ما شعورك نحو ما قال.

«ماجد»: أريد أن أشكره و أقتله.

و أخذت القافلة تشق ظلام الليل بأنوارها و هي تبعد عن غابة الجبل رويدا رويدا.

*** **

استجمعت «حورية» ما تبقى لها من قوة و قامت تتفقد الممرات السبعة لتحاول الاختيار فيما بينها، فوقفت أمام مداخلها و أخذت تسلط ضوء المصباحين- مصباحها و المصباح الذي أعطاه لها زميلها- على جدران الممرات و أرضها و سقفها، فلاحظت أن أرضية الممر الثالث تبدو و كأنها مبللة، فجثت على ركبتيها مرة أخرى و لمستها بيديها فتأكدت مما لاحظت، و قررت أن تسلك هذا الطريق، على أمل أنه حيثما وجد الماء وجدت الحياة، فالتقطت صخرة من الأرض و رسمت بها سهما على الجدار و كتبت عليه اسمها ثم شرعت في اجتياز الطريق التي اختارتها، هذه المرة لم تكن الرحلة طويلة كسابقاتها، و كان هذا من رحمة ربها بها، فبعد دقائق وصلت إلى نهايتها، فوجدت عيناً من ماء مساحتها ليست بالكبيرة و محاطة بالكهف من جميع

الجهات و لا توجد فتحات سوى الممر الذي جاءت منه، كاد اليأس أن يحيط بها كما أحاط الكهف بعين الماء، إلا أنها تساءلت بينها وبين نفسها ما مصدر هذا الماء و من أين جاء؟

بعد لحظات من التردد خاضت «حورية» في الماء حتى وصل إلى جذعها، تناولت غرفة منه و تذوقته بحذر فوجدته عذبا، فشربت منه قليلاً رغم عطشها مخافة ما يمكن أن يسببه من الضرر، ثم وضعت حقيبتها على رقبتها كالسلسلة و غاصت في الماء، و على ضوء مصباحها تمكنت من رؤية الفتحة التي ينبع منها الماء، كانت على عمق ثلاثة أمتار تقريبا، أخرجت رأسها من الماء و التقطت نفساً عميقاً ثم حبسته و غاصت هذه المسافة في محاولة لمعرفة إلى أين تؤدي الفتحة التي ينبع منها الماء، وصلت إلى فوهة الفتحة تحت الماء و سلطت عليها الضوء لكنها لم تستطع أن تحدد مدى عمقها و لا المسافة المطلوب سباحتها تحت الماء لاجتيازها، فصعدت إلى سطح الماء مرة أخرى لالتقاط أنفاسها، و التفكير في أمرها، و بعد دقائق حزمت أمرها.

فتحت حقيبتها و أخرجت منها كيساً و نفخته حتى امتلأ ثم قبضت على فوهته بقوة لمنع تسرب الهواء منه، و قبضت بيدها الأخرى على المصباح، ثم أخذت تملأ رئتيها بالهواء و تخرجه عدة مرات و كأنها تودعه، و في المرة الأخيرة حبسته و لم تخرجه و غاصت في اتجاه الفتحة التي ينبع منها الماء و أخذت في السباحة بأقصى سرعتها و أشد قوتها، و كانت كلما تفتقر إلى الهواء تثبت فوهة الكيس على فمها بإحكام و ترخي قبضتها قليلاً ثم تقوم بالشهيق و تحاول أن تحتفظ به في رئتها قدر المستطاع، لم تتمكن

من تكرار هذا الأمر أكثر من مرتين ثم تركت الكيس يفلت من قبضتها، وأخذت تصارع الماء لتتجنب الغرق، وعندما شعرت بأن قواها تخور وأنها على وشك الهلاك لمحت بصيصاً من الضوء مصدره ليس الصباح الذي تحمله، فمدت يدها إلى أعلى تبحث عن أي شيء تتعلق به قبل أن تغيب عن الوعي، فعلقت يدها بشيء عرفت فيما بعد أنه كان مجدافاً.

في تلك الأثناء كان الجد «نادر» ورفيقه الفتى «صادق» يستقلان قارباً في وسط البحيرة التي تقع في باطن غابة الجبل، كان الفتى واقفاً في مقدمة القارب يقوم بالتجديف بينما الجد جالساً في الجهة المقابلة، كان الفتى يجدف يمناً مرة ويسرة مرة ليحافظ على توازن القارب، وفجأة وقبل أن ينقل المجداف من الجهة اليمنى للجهة اليسرى شعر بمقاومة عنيفة كأن جسم ثقيل تعلق بالمجداف، فاختل توازنه وسقط في الماء، لكنه قبل يسقط لمح يداً بشرية قابضة على المجداف، كان أثناء سقوطه يجذب طرف المجداف إلى الأسفل بينما الطرف الآخر يرتفع إلى الأعلى و معه صاحبة اليد التي بدت وكأنها حورية البحر الأسطورية، وأخيراً سقط الفتى على الجهة اليسرى بينما كانت اليد تسحب المجداف من الجهة اليمنى لتغوص به مرة أخرى، تحرك الجد بسرعة ليلتقط المجداف قبل أن يغوص و جذبه ناحيته بيده اليمنى و استمر في جذبه ليصل إلى اليد التي تعلقته به، ولكنه قبل أن يصل إليها أفلت المجداف منها، فقبض على معصم الفتاة بيده اليسرى مسرعاً ليمنعها من الغرق، و جذبها ناحية القارب حتى ظهرت رأسها من الماء لكنه لم يستطع أن يحملها وحده إلى داخل القارب فاستنجد بالغلام، الذي سبح أسفل القارب إلى الناحية

التي فيها الفتاة و دفعها إلى الأعلى حتى تمكن الجدد من جذبها إلى داخل القارب، ثم صعد بدوره إلى القارب و تناول المجداف و أخذ في التجديف بقوة ناحية الشاطئ بينما الجدد منهمكاً في محاولة إسعاف الفتاة.

نجحت محاولة الجدد و أخرجت الفتاة بعض الماء من فمها و بدأت في السعال، ثم فتحت عينيها و نظرت إلى الجدد و أرادت أن تقول شيئاً لكن حارث قواها مرة أخرى و استسلمت للإغماء، فسأله الفتى: هل ستنجوا؟

«نادر»: أرجو ذلك، فهي لا زالت تتنفس.

رمقها «صادق» بطرف عينه و هو يقول بشيء من الخوف: هي؟ من هي؟ و هل هي إنسية أم جنية؟

نظر «نادر» إلى الوجه الذي امتزج فيه الجمال بالبراءة، و قال: ألم تعلمك السيدة «رحيمة» أن تميز بين الملائكة و الشياطين؟ هذا وجه «حورية» من الجنة لا «جنية» من النار.

«صادق»: و هل من عادة حوريات الجنة الغرق في غابة الجبل؟

«نادر»: ها قد وصلنا إلى الشاطئ فلا تكثر الكلام و هات بعض الأغذية من الخيمة.

أحاط الجدد جسد الفتاة بالأغذية و نقلها بمساعدة الفتى إلى جوار الخيمة، ثم أشعل النار لتدفئتها و في نفس الوقت أخذ يعد بعض الأطعمة و الشراب الساخن و هو يقول: يبدو عليها الضعف الشديد كأنها لم تذوق طعاماً منذ أيام.

بعد فترة وجيزة أفاقت الفتاة بالتدريج، وعندما اكتمل وعيها نظرت إلى جدها وقالت: توقعت إن نجوت من المتاهة أن ألتقي بك يا جدي في باطن الغابة.

عقد «نادر» حاجبيه متعجباً، ثم خطر في ذهنه أن الفتاة تهذي من شدة الإرهاق، فابتسم ملاطفاً وقال: يشرفني يا ابنتي أن تكون لي حفيدة مثلك.

اعتذلت «حورية» في جلستها، وقالت مؤكدة: أنا «حورية» يا جدي. ألم تعرفني؟

كاد عقل «نادر» أن يطير مغادراً رأسه، وهو يقول: أنا بالفعل لدي حفيدة بهذا الاسم، ولكنها تبلغ من العمر خمسة عشر ربيعاً، وأنت يا ابنتي تبدين قد تجاوزت العشرين من عمرك.

انتقلت الدهشة إلى «حورية» وأسقط في يدها فلم تدر ما تقول، ثم تذكرت حقيبتها فصاحت فجأة: أين حقيبتني؟

«نادر» وهو يناولها الحقيبة: ها هي لا تقلقي، نزعتها من رقبتك لأتمكن من إسعافك.

التقطت «حورية» الحقيبة بلهفة وفتحتها وأخرجت منها مذكرات جدها التي وضعتها داخل كيس من البلاستيك حتى لا يصل إليها الماء، ونشرتها أمام جدها وهي تقول: أليست هذه مذكراتك؟

نظر «نادر» إلى المذكرات في ذهول وهو يقول: بلى. كيف حصلت عليها؟

وهنا تدخل «صادق» في الحوار لأول مرة بعدما تغلب على دهشته هو الآخر وقال: تقول لك إنها حفيدتك، فتقول لها: كيف حصلت عليها؟

«حورية»: و أنت «صادق» ابن السيدة «رحيمة» أليس كذلك؟

«صادق» وقد عاودته فكرة أنها قد لا تكون من البشر: لا أريد أن أتدخل في أموركم العائلية، أرجو أن تخرجيني من الموضوع.

«حورية»: منذ متى و أنتما في غابة الجبل؟

«نادر» و هو لا يزال غارقاً في ذهوله: منذ خمسة أيام؟

«حورية» في فزع: بل منذ خمسة أعوام.

«نادر» و «صادق» في آنٍ واحد: ماذا تقولين!

التقطت «حورية» الحقيبة مرة أخرى و أخرجت منها بطاقةها الجامعية، و وضعتها أمام جدها و هي تقول: انظر إلى الاسم يا جدي؟ انظر إلى تاريخ السنة الدراسية؟

أمسك «نادر» المذاكرات بيد، و البطاقة باليد الأخرى، و أخذ ينقل النظر من التاريخ الذي سجله بخطه على المذاكرات و التاريخ المدون على بطاقة «حورية» الجامعية، ثم هز رأسه كأنها يحاول أن يطرد الفكرة التي تفسر المسألة، لكنه لم ينجح في طردها لأنه لم يجد تفسيراً غيرها، ثم نظر إلى الاسم المدون على البطاقة، ثم رفع بصره بنظرة حانية إلى صاحبة هذا الاسم، و قام إليها يضمها إلى صدره و يقبل رأسها و هو يقول: حورية التي تركتها بالأمس و قد أتمت العقد الأول من عمرها، ألقاها اليوم و قد

تجاوزت العقد الثاني! ثم أضاف ببطء كأنه لا يريد لجملة أن تكتمل حتى لا يواجه تبعاتها: يبدو أن اليوم داخل غابة الجبل بعام خارجها.

«صادق» مكرراً نفس المعنى: يعني اليوم في بطنها بسنة على ظهرها.

«نادر» وقد أخذ يستوعب الأمر و يحاول التعامل معه: يبدو أنك بدلاً من أن تجد سفينة النجاة، وجدت سفينة الزمان.

«حورية»: رغم أن الأمر لا يكاد يصدق، إلا أنه يفسر لماذا لم تعد كما ذكرت في مذكراتك، لكنه لا يفسر لماذا لم يأت أبي للبحث عنك منذ خمس سنين؟ ولماذا لم يبلغ السلطات؟

«نادر»: أنا طلبت منه ذلك. عندما وصلنا إلى المطار وقبل أن نتوجه إلى هنا اتصلت بأبيك هاتفياً، وأخبرته أننا لا نعلم ما قد نواجه في تلك الرحلة، ولكننا نعلم أن المتاهة هي طريقنا الوحيد للعودة، ولو تأخرنا لأي سبب و علمت السلطات باختفائنا، فسيقومون بسد جميع المتاهات حتى لا تتكرر حوادث الاختفاء، وهذا سنكون فقدنا وسيلتنا للعودة إلى الأبد.

«صادق»: لدي خيمة إضافية، سأبدل ملابسني ثم أنصبها لحفيدة لك لترتاح فيها بعد رحلتها الشاقة التي لا نعرف عنها شيئاً، بينما هي تعرف كل شيء عن رحلتك و عني، بل و حتى عن أمي السيدة «رحيمة» بفضل مذكرات سعادتك.

«نادر»: دعها تتناول شيئاً من الطعام و الشراب الساخن، و تنال قدراً من الراحة، ثم تحكي لنا قصتها.

قام «صادق» لينفذ ما قاله، و شرعت «حورية» في تناول ما أعدده لها جدها، ثم قالت: أنا بالفعل أعرف قصتكما قبل وصولكما إلى هنا، لكنني لا أعرف التطورات التي واجهتكما بعد ذلك، كيف تعاملتما مع غابة الجبل؟ وماذا وجدتما فيها؟

«نادر»: المكان كما ترين مكون من تلك البحيرة، و خلفها - على الشاطئ المقابل - توجد حديقة رائعة ممتدة بعمق بين جبلين، و على هذا الشاطئ - الذي نصبنا عليه خيامنا - تقع المتاهة التي قدمنا منها، و الجبال الشاهقة تحيط بالبحيرة و الحديقة من كل جانب، فترسم هذا المشهد البديع، و في نفس الوقت تعزل الغابة و تخفيها تماماً عن العالم الخارجي.

«حورية»: و كيف أمضيتم الأيام أو الأعوام الخمسة الماضية؟

«نادر»: لا شيء سوى التجول في الحديقة، و لكن هذا اللا شيء هو كل شيء، فهذه الحديقة أعجوبة من أعاجيب الزمان و المكان، فور دخولك إليها يصعب عليك مغادرتها، فأنت تجددين فيها خلال لحظات ما كنت تبحثين عنه طوال سنوات، لا أستطيع أن أصف لك، لا بد من التجربة الشخصية.

«حورية»: حتماً سأفعل.

انتهى «صادق» من نصب الخيمة، و انتهت «حورية» من طعامها، و قامت لتستريح و تصلح من شأنها، و عادت بعد فترة و قد استعادت نشاطها و نضارتها، فجلست مع جدها و رفيقه و قصت عليهما رحلتها، بداية من محاضرة الدكتور ليب ثم الوصول إلى الكهف و نهاية بالمتاهة و ما أدراك ما المتاهة، أنصتا

لها بجميع حواسهما، ثم قال جدها: لقد عانيت كثيراً يا ابنتي، ولكنك في النهاية نجوت.

«حورية»: أرجو أن تكون النجاة قد حالت أصدقائي أيضاً.

«صادق» كأنما يحدث نفسه: كل هذا من أجل متاهة الحرية! أتراها تستحق؟

غرق ثلاثتهم في التأمل برهة، ثم قطعت «حورية» الصمت و قالت لجدها: سأجول قليلاً في الحديقة.

«الجد»: يمكنك السير حول البحيرة ولكن ذلك سيستغرق بعض الوقت، الأفضل عبور البحيرة بالقارب، ويمكننا مرافقتك، أليس كذلك يا «صادق».

«صادق»: بالطبع، وهل هناك ملاح غيري ابتغماه هنا؟

ترجلت «حورية» وجدها على الشاطئ المقابل، بينما بقي «صادق» في القارب، فأشار الجد إلى الحديقة، وقال: هاهي بغيتك، فانطلقني إليها.

«حورية»: ألن ترافقني.

«الجد»: لا أريد أن أشوش عليك تجربتك، ولا أن أفسد عليك خلوتك. ثم جلس على صخرة ملساء، وأخرج من جيبه قلماً و دفترًا صغيراً وقال: سأنتظرك هنا، فلدي ما أريد أن أدونه.

«حورية»: لعله الجزء الثاني من رحلات السندباد.

«الجد» مبتسماً: ربما.

«صادق»: وأنا سأعود إلى وسط البحيرة في محاولة جديدة للصيد.

ما أن وطئت قدماها أرض الحديقة حتى بدأت تشعر بخبرة شعورية لم تمر بوجدانها من قبل، ومع كل خطوة داخلها كانت تجد داخلها مزيجاً من الصفاء الذهني الفريد، والإشراق الروحي العجيب، وبدأت تعيش حالة من ذوبان الجليد وزوال الحجب، فما كان قاسياً أصبح ليناً، وما كان كثيفاً أصبح لطيفاً، وما كان معتماً أمسى زاهراً، وما كان غائباً بات حاضراً.

كان المكان شبيهاً بحديقة الخالدين التي اعتادت أن ترتادها للترويح أو التأمل أو المطالعة، حتى تماثل العلماء والأدباء والشعراء والحكماء كانت شاخصة هنا أيضاً ولكن مع الفارق، ففي حديقة الخالدين كانت هذه التماثل لا حياة فيها، يغشاها الصمت ويلفها السكون، بينما هنا تشعر وكأن أرواح أصحابها تحيط بك وبها، وبمجرد الوقوف أمام واحد منها يحدث نوع من التواصل مع صاحبها، فيتلو عليك أبياته، وينثر لك كلماته، ويطلعك على كتاباته، ويشركك في تأملاته، ويصحبك في رحلاته، فتنسب داخلك سيمفونية من الأفكار والمشاعر والخبرات والمعارف تضطرب لها في البداية ثم تطرب لها في النهاية.

إذا تجاوزت العلماء والأدباء والشعراء والحكماء وواصلت الارتقاء في تلك الجنة الغناء ستنعم برؤية الكثير من المشكلات وهي تنحل، والعديد من العقد وهي تنفك، وما كنت تظنه مستحيلاً من باب الترجيح بغير مرجح ستكتشف أن المرجح كان حاضراً ولكنك حسبته غائباً، وما كنت تعتقد أنه من قبيل

اجتماع الضدين ستدرك أنهما لما يكونا ضدين إلا في مخيلتك، و ما كنت تراه تحصيلاً لحاصل سيتبين لك أنه لم يحصل بعد، عند هذه اللحظة ستجتمع المتناقضات أو تختفي، وستكشف الأسرار، وستزول معضلة الجبر والاختيار، ومعضلة العلم السابق و الفعل اللاحق، وسترى الأمور لا بعين الرأس و لا بعين العقل و إنما بعين الروح، كما رأيته لأول مرة في يوم الشهود.

عندما مرت «حورية» بتلك الرحلة الروحية، بدأت تجد إجابات للتساؤلات، و فهمت ما عناه جدها بقوله لها: (تجدين فيها خلال لحظات ما كنت تبحثين عنه طوال سنوات). بل كانت بمجرد أن يخطر السؤال على بالها تجد جوابه في ذهنها، و عند هذه اللحظة لم تستطع أن تمنع نفسها من السؤال عن رفاقها، فجاءها الجواب بأنهم على ما يرام و في طريقهم لبر الأمان، فقالت: و «هانئ»؟ أين هو الآن؟

- في البحيرة يستغيث بالرحمن.

كانت على وشك أن تطأ الأرض بقدمها اليسرى لتكمل خطوة جديدة إلى الأمام في الحديقة، فأبقتها معلقة في الهواء، و على الفور دارت على قدمها اليمنى مائة و ثمانين درجة رسمت قوساً مكتملة على تربة الجنة لتغير اتجاهها إلى الخلف و انطلقت كالسهم في اتجاه البحيرة، لمحها جدها من بعيد و لكنه لم يتبين ملامح الفزع على وجهها، فقال: أخبرتها أنها سيصعب عليها مغادرة الحديقة، فإذا بها تغادرها كالقذيفة، تأبى حفيدي إلا أن تحطم توقعاتي.

عندما انتهى من عبارته كانت قد اقتربت قليلاً فقراً على وجهها ما جعله يركض نحوها، لكنها أشارت إلى البحيرة، وصاحت بأعلى صوتها: أنقذاه.

فهم الجد الإشارة و التقط الرسالة، فالتفت بدوره إلى «صادق» وصاح وهو يشير إلى نفس المكان الذي عثرا فيه على «حورية» قائلاً: اقضيا غلام.

انتبه «صادق» لصياح الجد و ركض الحفيدة، فقال: لا شك عندي أنك و حفيدتك تريدان قتلي. ثم ملأ رثيته بالهواء و قفز برأسه في الماء، و أخذ يغوص حتى اختفى عن النظر، و بعد دقيقة مرت ثقيلة بطيئة، ظهر من جديد و معه الغريق، تنفست «حورية» الصعداء، ثم عاودها الاضطراب فهي لا تدري هل نجا الغريق أم قضى؟

بذل «صادق» جهداً كبيراً ليتمكن من رفع «هانئ» من البحيرة إلى القارب، ثم أنهمك في محاولة إسعافه دون أن يلتفت إلى «نادر» و حفيدته، فلما نجحت المحاولة نظر إليهما و رفع يده بعلامة النصر، فقفزت «حورية» في الهواء، و أخذت تصفق بكفيها و تدور حول جدها كأنها تراقصه، و هو يشاركها فرحتها جذلاً مبتسماً.

أخذ «صادق» يجدف في اتجاه الخيمة و أشار لهما أن يلحقا بهما سيراً على الأقدام، و عندما التقوا على الشاطئ كرروا مع «هانئ» ما فعلوه مع «حورية»، فلما أفاق من غيبوبته و استعاد حيويته سمع منهم و حكى لهم حكايته، ثم خاض في الحديقة تجربته و عندما عاد قالت له «حورية»: لماذا خاطرت بعد ما زال الخطر؟

«هانئ»: وعدت أباك ألا أرجع دونك.

«حورية»: أنا مدينة لك إذن.

«هانئ»: بل أنا المدين لك، فقدت أنقذت حياتي مرتين.

«حورية»: كيف؟

«هانئ»: مرة عندما رسمت السهم على ممر النجاة في المتاهة،
و مرة عندما أرسلت لي من ينقذني من الغرق.

«صادق»: يعني أنت مدين لمن صاح و صرخ و لست مديناً
لمن قفز و غطس؟

ضحك الجد ضحكة ذات مغزى و قال: ستفهم غداً يا فتى.

اضطرب «هانئ» و قال: معذرة لم أقصد هذا، فأنا مدين لك
أيضاً، بل أنا مدين لكم جميعاً.

«صادق»: لا عليك، يبدو أن السمك في هذه البحيرة مستجاب
الدعوة، كلما أردت صيداً تلقيت درساً.

«هانئ» مغيراً دفعة الحديث: و الآن ماذا نحن فاعلون؟ هل
ستغادرون؟

«حورية»: اليوم هنا بسنة، فالبقاء صعب لكن الرحيل أيضاً
صعب فما وجدناه في الحديقة كنز لا يفرط فيه.

«هانئ»: يمكننا العودة مرة أخرى.

«نادر»: أنا ما جئت هنا إلا لمرافقة هذا الفتى الطيب فأحب
أن أعرف قراره قبل أن أختار.

«صديق»: لقد غادرت قريتي منذ خمسة أعوام، و الأيام التي قضيناها هنا أضافت إليها خمسة أخرى، يعني حتى الآن غبت عن أُمي عقداً من الزمان، أحسب أنه قد آن الأوان.

«حورية»: لو كان معنا أبي لما فكرت في العودة أبداً. الآن أدرك لماذا الكثيرون لا يعودون، لكنني لا أفهم لماذا من يعودون لا يتكلمون؟ وقد خطرت لي هذا السؤال في الحديقة ورغم ذلك لم يحضرني الجواب.

«هانئ»: ظاهرة حصول الجواب في الحديقة ليست مطلقة، فقد لاحظت أيضاً أن الأسئلة المستقبلية لا إجابة لها هنا، فقد تسألت أثناء تجولي: هل سنعود منها أم سنبقى فيها؟ فلم تجبني.

«نادر»: نعم لأن هذا اختيارك لا اختيارها.

«صديق»: الحديقة وما فيها تحتاج دراسة عميقة، و عزاًؤنا في امتلاكنا لحق العودة، فمعنا الخريطة.

«حورية»: هذه الخريطة ستغير وجه الحياة على ظهر البسيطة، فعندما يعلم العالم الخارجي بأسرار الحديقة سيأتي البشر إليها من كل حذب و صوب.

«هانئ»: يجب أن يظل الإعلان عن هذا الكشف في حدود أضيق الدوائر العلمية الرسمية حتى لا تحدث فوضى عارمة.

«حورية»: ولماذا نحرم الناس من تلك التجربة المعرفية الروحية؟ لماذا الحجر على الحرية؟

«هانئ»: الحرية مرة أخرى يا «حورية»؟ المسألة هنا ليست في منح الحرية أو سلبها فنحن لا نملكها أصلاً، ولكن هناك قواعد علمية لا بد أن تتبع واعتبارات أكاديمية لا بد أن تحترم، لا تنسي أن هذه وظيفتي، ولم يكن صدامي مع الدكتور «ليب» إلا لأنه أراد التحايل على الأولى والقفز على الثانية.

همت «حورية» بالرد، لكن جدها تدخل ليضع حداً لهذا النقاش، فقال: دعونا ننتهي من مناقشة ما يخصنا أولاً، ونحزم أمرنا ونقر قرارنا، ثم بعد ذلك نناقش مشكلة البشرية ونحلها. «صادق»: أنا اخترت العودة.

«هانئ»: أجل عودتنا أكثر فائدة للعالم الخارجي من بقائنا هنا، لا بد من وضع خطة محكمة لدراسة هذه الظاهرة يشارك فيها فريق من العلماء من عدة تخصصات وأرجو أن يكون لي شرف الانضمام لهذا الفريق.

«حورية»: بل عودتنا بعدما وجدنا ستكون أشبه بخروج أبينا آدم من الجنة، ولكن ما باليد حيلة، فعلاً العزاء الوحيد في الخريطة.

«نادر»: حسناً. طالما الريح تدفع سفيتتنا في اتجاه العودة فدعونا نتجهز لها حتى لا يمتد غيابنا لعام آخر.

انهمك «نادر» و «صادق» في إعداد العدة للرحيل، بينما جلست «حورية» على شاطئ البحيرة شاخصة البصر دامعة العين، فلحق بها «هانئ» يحاول أن يخفف عنها، ويذكرها بأبيها، ويعدها خيراً.

بالفعل عندما تذكرت «حورية» أباهما، بدأت تتحمس للمغادرة، ونشطت لتساعد جدها في جمع أغراضه، فلما انتهوا من اللمسات الأخيرة لتجهيز رحلة العودة قال الجد: أظن أننا جاهزون الآن، هل أنتم مستعدون؟ فقالوا: أجل.

فقال: إذن هيا بنا.

قام «صادق» و«هانئ» بحمل الأمتعة، وتوجه الرهط ناحية المتاهة، فلما وصلوا إلى مدخلها التفتوا إلى البحيرة والحديقة وظلوا واقفين برهة يتأملون الغابة ويودعونها ويتذكرون أهم المشاهد في رحلاتهم، وأهم الخبرات والمعارف والإجابات والأسرار التي انكشفت لهم و انسكبت في أرواحهم، ثم رفع الجد يده ملوحاً للغابة بالتحية، فشعروا جميعاً أنه يعبر عما بداخلهم، ففعلوا مثلاً فعل، ثم أشار الجد إلى «صادق» أن يتقدم ليقوم بدور الدليل في رحلة العودة، فاستدار الفتى وخطى داخل المتاهة وتبعه بقيتهم، وبدأوا كأن الغابة تراقبهم وهم يتعدون رويداً رويداً حتى اختفت أجسامهم داخل المتاهة، وبقيت لوهلة أصواتهم تنقل شيئاً من كلامهم.

«صادق»: أين الخريطة؟

«نادر»: أليست معك يا فتى؟

«صادق»: ألم تأخذها مني عقب وصولنا؟

«نادر»: كف عن المزاح وقم بدورك كدليلنا في الرحلة.

«هانئ»: ترى كم بقينا هنا بتوقيت عالمنا؟

«حورية»: ربما من ثلاثة إلى ستة أشهر.

«هانئ»: مدة ليست بالقليلة.

«حورية»: يا ترى ماذا فعل أصدقائنا فيها؟

«نادر»: لو أمضينا شهراً واحداً هنا كنت سأصبح أصغر من أبيك.

«صادق»: أضيئوا المزيد من المصابيح فالظلام شديد.

و بعدما قطعوا نصف المسافة، سلط «صادق» الضوء على الخريطة، وهو يقول: علينا أن نسلك الممر الأيمن ثم، ثم لم يكمل عبارته، فقد توقف فجأة عن الكلام.

«نادر»: لماذا سكت يا فتى؟

«صادق»: هناك ظاهرة عجيبة، بل مستحيلة.

«حورية»: ماذا حدث؟

رفع «صادق» الخريطة أمامهم و سلط عليها الضوء، وهو يقول: انظروا. الجزء الذي قطعناه حتى الآن اختفى!

«هانئ»: أجل. كأن الخريطة تبدأ من النقطة التي نحن فيها الآن.

«حورية»: هذا معناه أننا لن يمكننا العودة للغابة مرة أخرى.

«نادر»: و من يريد العودة؟

«هانئ»: صحيح. فليس هناك سوى بحيرة محاطة بالجبال.

«صادق»: فعلاً. الرحلة لم تحقق هدفها، ولم تكن الغابة بالنسبة لي سفينة النجاة.

«حورية»: ولكن لماذا تمحى الخريطة؟ وكيف يتم هذا تلقائياً؟ لا بد أن نطلب حل هذا اللغز عندما نصل.

«نادر»: ومن سيصدقنا إن قلنا أنه كانت معنا خريطة و انمحت؟

«صادق»: يبدو بالفعل أن الأفضل ألا نثير هذا الموضوع على الملأ.

«هانئ»: المهم أن ننجو، وأن نظمئن أن أصدقاءنا على ما يرام، ونعلم ماذا فعلوا مع «لييب».

«حورية»: لكم أشتاق إلى أبي، و صديقتي «سارة».

*** **

واستمرت الرحلة وكلما قطعوا شوطاً اختفى من الخريطة، فلما وصلوا إلى نهاية المتاهة كانت الخريطة قد محيت بالكامل، وفي نفس اللحظة التي خرجوا فيها من المتاهة، وفي قرية «الحرية» على بعد آلاف الأميال، كان حكيم القرية يدخل إلى مكتبته، ويقوم بطقوسه المعتادة في القراءة، فيملأ المصباح بالزيت ثم يوقده، و يضعه على يمينه، ثم يشعل المجرمة و يضعها على يساره لأنه على قناعة تامة أن الروائح الطيبة تجذب الأرواح الطيبة، وأن القراءة في حضور تلك الأرواح تكون أعمق أثراً و أرجى نفعاً،

ثم يجلس القرفصاء على قطعة من القטיפه اللينه و يغمض عينيه
ثم يمد يده إلى المكتبة و يسحب منها كتاباً و يفتح صفحة منه
ثم يبدأ في قراءة ما تقع عليه عيناه بصوت مسموع.

كان الكتاب الذي وقع في يده هذه المرة يدعى «غابة الجبل»، و
كانت الفقرة التي قرأها بصوته الهادئ المميز تنص على ما يلي:

(.. و من عجائب هذا المكان أنه لا يمكن لإنسان أن يدخله
أكثر من مرة واحدة في الزمان، وأنه إذا دخله ثم خرج منه نسي
ما كان، فمن يصلون هناك عادة لا يعودون، و من يعودون لا
يتكلمون لأنهم لا يتذكرون، نعم هم يتذكرون المكان و البحيرة
و الجبال، و لكن ينسون حديقة الأسرار، يتذكرون فقط ما قبلها
و ما بعدها، و لكن أبداً لا يذكرونها، و يمحي من عقولهم
ما تعلموه فيها، و من قلوبهم ما تذوقوه، و من أبصارهم ما
شاهدوه، و من أسماعهم ما سمعوه، و من أوراقهم و دفاترهم
ما كتبوه، و من خرائطهم ما رسموه، و ينسون ما خبروه فيها و
ما قرؤوه عنها، و يبقى فقط لأرواحهم أشواقاً إليها و إشراقات
منها، و لكنهم يعجزون غالباً عن معرفة أن هذه الجنة الواقعة
في باطن غابة الجبل هي منبع الأشواق و مصدر الإشراقات..).

تحت بحمد الله

رمضان ١٤٣٧ هـ

يونيو ٢٠١٦ م

المدينة المنورة